

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

سورة الحجرات

٤٩

رقية محمود غرايبة

الفهرس

٢	الفهرس
٣	الفهرس (٢)
٨	الحجرات ٥-١
١٩	الحجرات ٨-٦
٣٩	الحجرات ١٠-٩
٧٤	الحجرات ١٣-١١
٩٠	الحجرات ١٥-١٤

الفهرس (٢)

٢ الفهرس

٨ الحجرات ٥-١

- ٨ الواجب النظر في نفس الحب والبغض
- ٨ في الأضحية يشترط في أحد القولين أن يذبح بعد الإمام
- ٩ الواجب رد التنازع الى الكتاب و السنة
- ١٠ الذوق والوجد ان لم يكن بسلطان من الله كان متبعا لهواه
- ١١ التقوى ان تعمل بطاعة الله على نور من الله
- ١١ قلب الإيمان
- ١٢ الايات الدالة على كفر الشاتم للرسول صلى الله عليه وسلم
- ١٣ الصوت المسموع من العبد هو صوت العبد
- ١٣ إن الله لم يجعل شيئا يحبط جميع الحسنات إلا الكفر
- ١٤ هل يحبط بعض الحسنات بذنب دون الكفر؟
- ١٥ " الجفاء والغلط وقسوة القلوب في الفدادين "
- ١٦ الصوت والبصر جماع ما يدخل إلى القلب ويخرج منه
- ١٦ كل من عمل سوءا فهو جاهل
- ١٦ لفظ العقل في القرآن
- ١٧ إن الله لم يثن على من لا يعقل
- ١٧ ليس مناداة الله كمناداة العبد
- ١٨ لطائف لغوية

١٩ الحجرات ٨-٦

- ١٩ { إن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا }
- ١٩ لا يمتنع على الأنبياء أن يكون الأمر بخلاف ما ظنوه
- ٢٠ الإمام ليس معصوم
- ٢٠ دلالات قوله { إن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا }
- ٢١ النهي عن التكلم بلا علم
- ٢٢ يسمع خبر الفاسق ويتبين ويتثبت
- ٢٣ تبين الأشياء للقلب ضد اشتباههم عليه
- ٢٣ اتهموا الراي على الدين

- ٢٤ _____ ليس حسن النية بالرعية ان يفعل ما يهوونه
- ٢٥ _____ أن الله هو الذي يقرب قلوب العباد
- ٢٦ _____ أن الله خص المؤمنين بنعمة دون الكافرين
- ٢٨ _____ المعبود يجب أن يكون هو الله و حده
- ٢٨ _____ الحسنات أمور وجودية
- ٢٩ _____ الانسان هو فاعل السيئات
- ٣٠ _____ السيئات تهواها النفوس ويزنها الشيطان
- ٣٠ _____ وجوب النهي عن المنكر وبغضه
- ٣١ _____ مجوس هذه الأمة
- ٣٢ _____ اسم الايمان اذا أطلق
- ٣٤ _____ الله سبحانه هو الذى خلق العبد وجعله مسلماً طائعاً
- ٣٥ _____ أعظم عون لولي الأمر ثلاثة أمور
- ٣٥ _____ فرق بين التزيين المتصل بالقلب وتزيين الشئ المنفصل عنه
- ٣٦ _____ ما أوجب الله فيه العلم واليقين وجب فيه ما أوجب الله
- ٣٦ _____ إن الله سبحانه هو المان بالعمل
- ٣٧ _____ لطائف لغوية

٣٩ الحجرات ٩-١٠

- ٣٩ _____ الشريعة مبناها على دفع الفسادين بالتزام أدناهما
- ٤٠ _____ اذا أمكن دفع البغي بلا قتال لم يجز القتال
- ٤١ _____ لم يجز الإتيان بأعظم الفسادين لدفع أدناهما
- ٤٣ _____ ليس كل ما كان بغياً يخرج عموم الناس عن الايمان
- ٤٤ _____ القتال بين المؤمنين لا يخرجهم من الايمان
- ٤٤ _____ الفتن والافتتال التي تقع من أهل البر من أعظم المحرمات
- ٤٥ _____ الظلم لا يقطع الموالاتة الإيمانية
- ٤٦ _____ ضل من ظن أن من قاتل علياً كافر
- ٤٧ _____ من كان فيه ايمان وفيه فجور أعطى من الموالاتة بحسب ايمانه
- ٥٠ _____ لم يأمر بقتال الباغية ابتداء
- ٥١ _____ وجوب السعى بالاصلاح
- ٥١ _____ الواجب الحكم بين الناس بالعدل
- ٥٣ _____ اذا انقطع عن الناس نور النبوة وقعوا في ظلمة الفتن
- ٥٣ _____ لا يجوز تكفير المسلم بذنب فعله ولا بخطأ فيه

- ٥٥ _____ الفاسق مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته
- ٥٦ _____ ذو الكبيرة لا يكفر مع الايمان
- ٥٦ _____ مذهب من كفر أهل القبلة بالذنوب باطل
- ٥٩ _____ " أن ترك القتال فى الفتنة خير "
- ٦٣ _____ القتال يوم الجمل وصفين فيه نزاع
- ٦٤ _____ سماهم مؤمنين إخوة مع وجود الاقتال والبغى
- ٦٥ _____ لفظ الأمر يراد به المصدر والمفعول
- ٦٦ _____ المضاف إلى الله نوعان
- ٦٦ _____ الصفات الاختيارية
- ٦٧ _____ محبة الرب سبحانه لعبده
- ٦٨ _____ " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه "
- ٦٩ _____ المؤمن من يوالى جميع أهل الايمان
- ٦٩ _____ المؤمنون إخوة مع قيام الكبائر بهم
- ٧٠ _____ أعظم أصول الإسلام
- ٧١ _____ قلب الدين
- ٧١ _____ لطائف لغوية

٧٤ _____ الحجرات ١١-١٣

- ٧٤ _____ " سباب المسلم فسوق وقتاله كفر "
- ٧٤ _____ حصر الظلم فيمن لم يتب
- ٧٥ _____ جماع الشر الجهل والظلم
- ٧٥ _____ " الغيبة ذكرك أخاك بما يكره "
- ٧٦ _____ " كفارة الغيبة ان تستغفر لمن اغتبتة "
- ٧٧ _____ العبادة والتقوى لله وحده
- ٧٧ _____ الفضيلة بكمال الإيمان والتقوى لا بقرب النسب
- ٧٨ _____ تعليق الشرف في الدين بمجرد النسب من أحكام الجاهلية
- ٧٨ _____ التقوى العمل بطاعة الله على نور من الله
- ٧٩ _____ لم يثن الله على أحد في القرآن بنسبه
- ٨١ _____ القرابة لم يعلق بها ثوابا ولا عقابا ولا مدح
- ٨٣ _____ ليس لاحد أن ينتسب إلى شيخ يوالى على متابعتة
- ٨٤ _____ المملوك المسلم خير من الملك الكافر
- ٨٤ _____ فضل الجنس لا يستلزم فضل الشخص

- ٨٧ من البدع المنكرة تكفير الطائفة غيرها من طوائف
 ٨٧ ايهما افضل الفقير الصابر او الغنى الشاكر؟
 ٨٩ لطائف لغوية

الحجرات ١٤ - ١٥ ٩٠

- ٩٠ الإسلام علانية والإيمان في القلب
 ٩١ نفى عنهم كمال الايمان الواجب
 ٩٢ أعظم الحسنات وأعظم السيئات
 ٩٣ كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنا
 ٩٣ سنة الله عز وجل من الابتلاء والامتحان
 ٩٤ لم يثبت المدح الا على ايمان معه العمل
 ٩٥ أثبت الله في القرآن إسلاما بلا ايمان
 ١٠٨ الايمان قول وعمل يزيد وينقص
 ١١٠ الاسلام أعمال الايمان والايمان عقود الاسلام
 ١١٤ الذين وصفوا بالإسلام دون الإيمان قد لا يكونون كفارا في الباطن
 ١١٦ اذا أفرد لفظ الإيمان دخل فيه الباطن والظاهر
 ١١٧ المنافق
 ١١٨ اساس النفاق
 ١١٨ الصدق يهدي إلى البر
 ١١٩ الشارع دائما لا ينفي المسمى الشرعى إلا لإنتفاء واجب فيه
 ١١٩ لفظ الإيمان تختلف دلالاته بالإطلاق والإقتران
 ١٢٣ " ليس الايمان بالتمني ولا بالتحلي "
 ١٢٤ الايمان المطلق مستلزم للأعمال
 ١٢٦ لا يلزم من كون إيمانه ناقصا عن الواجب أن يكون باطلا حابطا
 ١٢٦ الايمان قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح
 ١٢٨ تحقيق الايمان بالأعمال الظاهرة والباطنة
 ١٣٠ الفرع يستمد من أصله والأصل يثبت ويقوى بفرعه
 ١٣١ حصر المؤمنين فيمن آمن وجاهد
 ١٣١ لا بد لمحبة الله من متابعة الرسول والمجاهدة
 ١٣٢ اكد الله ايجاب الجهاد وعظم أمره
 ١٣٤ الجهاد بالنفس يكون باللسان و باليد
 ١٣٤ ترك الجهاد هو دليل النفاق

- ١٣٥ _____ أمير الحرب هو إمام الصلاة
- ١٣٦ _____ أهل الصبر والشكر
- ١٣٦ _____ الجهاد تمام الايمان وسنام العمل
- ١٣٧ _____ طريقة القرآن الإنكار بالقلب واللسان قبل الإنكار باليد
- ١٣٩ _____ الجهاد بالمال مقدم على الجهاد بالنفس
- ١٣٩ _____ المنافق تختلف سريرته وعلانيته
- ١٣٩ _____ النية عمل القلب فلم يشرع اظهارها باللسان
- ١٤٠ _____ ان الله سبحانه هو المان بالعمل
- ١٤٠ _____ أفعال العباد مخلوقة لله
- ١٤١ _____ الإيمان نعمة خص الله بها المؤمنين
- ١٤٢ _____ من اعتقد أن منته على المؤمنين بالهداية دون الكافرين ظلم منه فهذا جهل
- ١٤٣ _____ لطائف لغوية

الحجرات (مدنية) ١٨

§§~

~§§

الحجرات ١-٥

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدَمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } {١} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ } {٢} إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ } {٣} إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ } {٤} وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } {٥}

الواجب النظر في نفس الحب والبغض

فالواجب على العبد ان ينظر في نفس حبه وبغضه ومقدار حبه وبغضه هل هو موافق لأمر الله ورسوله وهو هدى الله الذي انزله على رسوله صلى الله عليه وسلم بحيث يكون مأمورا بذلك الحب والبغض لا يكون متقدما فيه بين يدي الله ورسوله فإنه قد قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدَمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} الحجرات ١ ومن احب او ابغض قبل ان يأمره الله ورسوله ففيه نوع من التقدم بين يدي الله ورسوله ومجرد الحب والبغض هو هوى لكن المحرم منه اتباع حبه وبغضه بغير هدى من الله

في الأضحية يشترط في أحد القولين أن يذبح بعد الإمام

وقد يكون الترتيب شرطا لا يسقط بجهل ولا نسيان كما في الحديث الصحيح من ذبح قبل الصلاة فإنما هو شاة لحم فالذبح للأضحية مشروط بالصلاة قبله وأبو بردة بن نيار رضي الله عنه كان جاهلا فلم يعذره بالجهل بل أمره بإعادة الذبح بخلاف الذين قدموا في الحج الذبح على الرمي أو الحلق على ما قبله فإنه قال افعل ولا حرج فهاتان سنتان سنة في الأضحية إذا ذبحت قبل الصلاة أنها لا تجزئ وسنة في الهدي إذا ذبح قبل الرمي جهلا أجزاء والفرق بينهما والله أعلم أن الهدي صار نسكا بسوقه إلى الحرم وتقليده وإشعاره فقد بلغ محله في المكان والزمان فإذا قدم جهلا لم يخرج عن كونه هديا وأما الأضحية فإنها قبل الصلاة لا تتميز عن شاة اللحم كما قال النبي من ذبح قبل الصلاة فإنما هي شاة لحم قدمها لأهله وإنما هي نسك بعد الصلاة كما قال تعالى {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ} الكوثر ٢

الاستقامة ج: ٢ ص: ٢٢٥-٢٢٦

وقال { إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي } الأنعام ١٦٢ فصار فعله قبل هذا الوقت كالصلاة قبل وقتها فهذا وقت الأضحية ووقته بعد فعل الصلاة كما بين الرسول ذلك في الأحاديث الصحيحة وهو قول الجمهور من العلماء مالك وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل وغيرهم وإنما قدر وقتها بمقدار الصلاة الشافعي ومن وافقه من أصحاب أحمد كالخرفي وفي الأضحية يشترط في أحد القولين أن يذبح بعد الإمام وهو قول مالك وأحد القولين في مذهب أحمد ذكره أبو بكر والحجة فيه حديث جابر في الصحيح وقد قيل إن قوله { لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ } الحجرات ١ نزلت في ذلك^١

الواجب رد التنازع الى الكتاب والسنة

قال الامام أحمد في خطبته في الرد على الجهمية والزنادقة الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل الى الهدى و يصبرون منهم على الأذى يحيون بكتاب الله الموتى و يبصرون بنوره أهل العمى فكم من قتيل لإبليس قد احيوه و كم ضال تائه قد هدوه فما أحسن أثرهم على الناس و أقبح أثر الناس عليهم ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين و إنتحال المبطلين و تأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة و أطلقوا عنان الفتنة فهم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب مجتمعون على مخالفة الكتاب يقولون على الله و في الله و في الكتاب بغير علم يتكلمون بالمتشابه من الكلام و يخذعون جهال الناس بما يشبهون عليهم فنعود بالله من فتن المضلين و الثانية طريقة هشام و أتباعه يحكى عنهم أنهم أثبتوا ما قد نزه الله نفسه عنه من إتصافه بالنقائص و مماثلته للمخلوقات فأجابهم الإمام أحمد بطريقة الأنبياء و أتباعهم و هو الإعتصام بحبل الله الذي قال الله فيه { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } ١٠٢ { وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا } ١٠٣ { آل عمران ١٠٢-١٠٣ } و قال { كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } البقرة ٢١٣ و قال تعالى { المص } ١ { كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ } ٢ { اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ } ٣ { الاعراف ١-٣ } و قال تعالى { فَأَمَّا يَا تِيزِيكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } ١٢٣ { وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } ١٢٤ { قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا } ١٢٥ { قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى } ١٢٦ { طه ١٢٣-١٢٦ } و قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } النساء ٥٩ و قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَآتُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } ١ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ } ٢ { الحجرات ١-٢ } و قال تعالى { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا } ٦٠ { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى اللَّهِ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُونَ عَنكَ صُدُودًا } ٦١ { فَكَيْفَ إِذَا أَصَابْتَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا } ٦٢ { أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَعَظَّمَهُمْ وَقَالَ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا } ٦٣ { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا } ٦٤ { فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } ٦٥ { النساء ٦٠-٦٥ } و قوله تعالى { وَإِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَأَسْتَأْذِنُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ } الأنعام ١٥٩ و قوله تعالى { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } ٣٠ { مُبِينِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } ٣١ { مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } ٣٢ { الروم ٣٠-٣٢ } و قوله

{ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ } الشورى ١٣ فهذه النصوص وغيرها تبين أن الله أرسل الرسل وأنزل الكتب لبيان الحق من الباطل وبيان ما اختلف فيه الناس وأن الواجب على الناس اتباع ما أنزل اليهم من ربهم و رد ما تنازعوا فيه الى الكتاب والسنة وان من لم يتبع وان من لم يتبع ذلك كان منافقا وان من اتبع الهدى الذي جاءت به الرسل فلا يضل ولا يشقى ومن عرض عن ذلك حشر أعمى ضاللا شقيا معذبا وأن الذين فرقوا دينهم قد برىء الله ورسوله منهم فاتبع الإمام أحمد طريقة سلفه من أئمة السنة والجماعة المعتصمين بالكتاب والسنة المتبعين ما أنزل الله اليهم من ربهم وذلك أن ننظر فما وجدنا الرب قد أثبت لنفسه في كتابه أثبتناه وما وجدناه قد نفاه عن نفسه نفيناه وكل لفظ وجد في الكتاب والسنة بالإثبات أثبت ذلك اللفظ وكل لفظ وجد منفيا نفي ذلك اللفظ وأما الألفاظ التي لا توجد في الكتاب والسنة بل ولا في كلام الصحابة والتابعين لهم باحسان وسائر أئمة المسلمين لا إثباتها ولا نفيها وقد تنازع فيها الناس فهذه الألفاظ لا تثبت ولا تنفي إلا بعد الإستفسار عن معانيها فان وجدت معانيها مما أثبتته الرب لنفسه أثبت وان وجدت مما نفاه الرب عن نفسه نفيت وان وجدنا اللفظ أثبتت به حق وباطل أو نفي به حق وباطل أو كان مجملا يراد به حق وباطل وصاحبه أراد به بعضها لكنه عند الاطلاق يوهم الناس أو يفهمهم ما أراد وغير ما أراد فهذه الألفاظ لا يطلق اثباتها ولا نفيها كلفظ الجوهر والجسم والتحيز والجهة ونحو ذلك من الألفاظ التي تدخل في هذا المعنى فقل من تكلم بها نفيًا أو إثباتًا إلا وأدخل فيها باطلاً وأن أراد بها حقاً والسلف والأئمة كرهوا هذا الكلام المحدث لاشتماله على باطل وكذب وقول على الله بلا علم وكذلك ذكر أحمد في رده على الجهمية أنهم يفترون على الله فيما ينفونه عنه ويقولون عليه بغير علم وكل ذلك مما حرمه الله ورسوله ولم يكره السلف هذه لمجرد كونها اصطلاحية ولا كرهوا الإستدلال بدليل صحيح جاء به الرسول بل كرهوا الأقوال الباطلة المخالفة للكتاب والسنة ولا يخالف الكتاب والسنة إلا ما هو باطل لا يصح بعقل ولا سمع ولهذا لما سئل أبو العباس ابن سريج عن التوحيد فذكر توحيد المسلمين وقال وأما توحيد أهل الباطل فهو الخوض في الجواهر والأعراض وإنما بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم بانكار ذلك ولم يرد بذلك أنه أنكر هذين اللفظين فإنهما لم يكونا قد أحدثا في زمنه وإنما أراد إنكار ما يعنى بهما من المعاني الباطلة فإن أول من أحدثهما الجهمية والمعتزلة وقصدهم بذلك إنكار صفات الله تعالى أو أن يرى أو أن يكون له كلام يتصف به وأنكرت الجهمية أسماءه أيضا وأول من عرف عنه إنكار ذلك الجعد بن درهم فضحى به خالد بن عبدالله القسري بواسطة وقال يا أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فاني مضح بالجعد بن درهم إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ولم يكلم موسى تكليما تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا ثم نزل فذبحه وكلام السلف والأئمة في ذم هذا الكلام وأهله مبسوط في غير هذا الموضوع^١

الذوق والوجد ان لم يكن بسطان من الله كان متبعا لهواه

قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } الحجرات ١ فالذوق والوجد هو يرجع الى حب الانسان ووجده بحلاوته وذوقه وطعمه وكل صاحب محبة فله في محبوبه ذوق ووجد فان لم يكن ذلك بسطان من الله وهو ما أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم كان صاحبه متبعا لهواه بغير هدى وقد قال الله تعالى { وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغْيَرِ هُدَىٰ مِّنَ اللَّهِ } القصص ٥٠ وقال تعالى { وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا دُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُررْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بَغْيَرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ } الأنعام ١١٩ وكذلك من اتبع ما يرد عليه من الخطاب أو ما يراه من الأنوار والاشخاص الغيبية ولا يعتبر ذلك بالكتاب والسنة فانما يتبع ظنا لا يعنى من الحق شيئا فليس في المحدثين الملهمين أفضل من عمر كما قال أنه قد كان في الأمم قبلكم محدثون فان يكن في أمتي منهم أحد فعمر منهم وقد وافق عمر ربه في عدة أشياء ومع هذا فكان عليه أن يعتصم بما جاء به الرسول ولا يقبل ما يرد عليه حتى يعرضه على الرسول ولا يتقدم بين يدي الله ورسوله بل يجعل ما ورد عليه اذا تبين له من ذلك اشياء خلاف ما وقع

^١ مجموع الفتاوى ج: ١٧ ص: ٣٠٠-٣٠٥

له فيرجع الى السنة وكان أبو بكر يبين له اشياء خفيت عليه فيرجع الى بيان الصديق وارشاده وتعليمه كما جرى يوم الحديبية ويوم مات الرسول ويوم ناظره في مانعي الزكاة وغير ذلك وكانت المرأة ترد عليه ما يقوله وتذكر الحجة من القرآن فيرجع اليها كما جرى في مهور النساء ومثل هذا كثير فكل من كان من أهل الالهام والخطاب والمكاشفة لم يكن أفضل من عمر فعليه أن يسلك سبيله في الاعتصام بالكتاب والسنة تبعاً لما جاء به الرسول لا يجعل ما جاء به الرسول تبعاً لما ورد عليه وهؤلاء الذين أخطوا وضلوا وتركوا ذلك واستغنوا بما ورد عليهم وظنوا أن ذلك يغنيهم عن اتباع العلم المنقول وصار أحدهم يقول أخذوا علمهم ميتاً عن ميت وأخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت فيقال له أما ما نقله الثقات عن المعصوم فهو حق ولولا النقل المعصوم لكنت أنت وأمثالك اما من المشركين واما من اليهود والنصارى واما ما ورد عليك فمن أين لك أنه وحى من الله ومن أين لك أنه ليس من وحى الشيطان و الوحي وحيان وحى من الرحمن ووحى من الشيطان قال تعالى { وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَلْيَوْحُونَ إِلَىٰ أُولِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ } الأنعام ١٢١ وقال تعالى { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ عُرُورًا } الأنعام ١١٢ وقال تعالى { هَلْ أَنْبَأَكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَنْزَلُ الشَّيَاطِينَ } الشعراء ٢٢١ وقد كان المختار بن أبي عبيد من هذا الضرب حتى قيل لابن عمر وابن عباس قيل لأحدهما انه يقول أنه يوحى اليه فقال { وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَلْيَوْحُونَ إِلَىٰ أُولِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ } الأنعام ١٢١ وقيل للآخر أنه يقول أنه ينزل عليه فقال { هَلْ أَنْبَأَكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَنْزَلُ الشَّيَاطِينَ } الشعراء ٢٢١ فهؤلاء يحتاجون الى الفرقان الایمانى القرآنى النبوى الشرعى أعظم من حاجة غيرهم^١

التقوى ان تعمل بطاعة الله على نور من الله

قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } الحجرات ١ عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك اذا أفرد اسم طاعة الله دخل في طاعته كل ما أمر به وكانت طاعة الرسول داخلة في طاعته وكذا اسم التقوى اذا أفرد دخل فيه فعل كل مأمور به وترك كل محظور قال طلق بن حبيب التقوى ان تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو رحمة الله وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله وهذا كما فى قوله { إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ } { ٥٤ } فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ { ٥٥ } القمر ٥٤- ٥٥ وقد يقرن بها اسم آخر كقوله { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا } { ٢ } وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ } { ٣ } الطلاق ٢- ٣ وقوله { إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ } يوسف ٩٠ وقوله { وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ } النساء^١

أن اسم تقوى الله يجمع فعل كل ما أمر الله به ايجاباً واستحباباً وما نهى عنه تحريماً وتنزيهاً وهذا يجمع حقوق الله وحقوق العباد^٢

قلب الإيمان

توحيد الله وإخلاص الدين له فى عبادته وإستعانته فى القرآن كثير جدا بل هو قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره كما قال النبى صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وقال إني لأعلم كلمة لا يقولها عند الموت أحد إلا وجد روحه لها روحاً وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا

^{١١} مجموع الفتاوى ج: ١٣ ص: ٧٣-٧٥

^{٢٢} مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٤

^٣ الزهد والورع والعبادة ج: ١ ص: ٩٠

الله وجبت له الجنة وهو قلب الدين والإيمان وسائر الأعمال كالجوارح له وقول النبي إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرى ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه فبين بهذا أن النية عمل القلب وهي أصل العمل وإخلاص الدين لله وعبادة الله وحده ومتابعة الرسول فيما جاء به هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وهو دين الإسلام العام الذي بعث الله به جميع الرسل كما قال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} النحل ٣٦ وقال النبي لمعاذ بن جبل يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وقال لابن عباس إذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله وقال تعالى {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا} الزخرف ٦٣ فجعل العبادة والتقوى لله وجعل له أن يطاع وكذلك في مواضع كثيرة جدا من القرآن اتقوا الله اتقوا الله {وَاتَّقُوا اللَّهَ} الحجرات ١

وفي البخاري عن ابن الزبير أنه لما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وفد تميم قال أبو بكر أمر القعقاع بن معبد وقال عمر أمر الأقرع بن حابس فقال ما أردت إلا خلافي فقال ما أردت خلافاً فارتفعت أصواتهما فأنزل قال الله تعالى قال الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} {٢} {٣} الحجرات ٢- ٣ فكان عمر بعد ذلك لا يحدثه إلا كأخي السرار ٢

الايات الدالة على كفر الشاتم للرسول صلى الله عليه وسلم

واما الايات الدالة على كفر الشاتم للرسول صلى الله عليه وسلم وقتله او على احدهما اذا لم يكن معاهدا وان كان مظهرا للاسلام فكثيرة مع ان هذا مجمع عليه كما تقدم حكاية الاجماع عن غير واحد منها قوله سبحانه {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} الحجرات ٢ اي حذرا ان تحبط اعمالكم او خشية ان تحبط اعمالكم او كراهة ان تحبط او منع ان تحبط هذا تقدير البصريين وتقدير الكوفيين لئلا تحبط فوجه الدلالة ان الله سبحانه نهاهم عن رفع اصواتهم فوق صوته وعن الجهر له كجهر بعضهم لبعض لان هذا الرفع والجهر قد يفضي الى حبوط العمل وصاحبه لا يشعر فانه علل نهيهم عن الجهر وتركهم له بطلب سلامة العمل عن الحبوط وبين ان فيه من المفسدة جواز حبوط العمل وانعقاد سبب ذلك وما قد يفضي الى حبوط العمل يجب تركه غاية الوجوب والعمل يحبط بالكفر قاله سبحانه {وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمْتٌ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ} البقرة ٢١٧ وقال تعالى {وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ} المائدة ٥ وقال {وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} الأنعام ٨٨ وقال {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ} الزمر ٦٥ وقال {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرَهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ} محمد ٩ وقال {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ} محمد ٢٨ كما ان الكفر اذا قارنه عمل لم يقبل لقوله تعالى {إِنَّمَا يَنْتَقِلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} المائدة ٢٧ وقوله {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ} محمد ١ وقوله {وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلْ مِنْهُمْ تَفَقَّاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ} التوبة ٥٤ وهذا ظاهر ولا تحبط الاعمال بغير الكفر لان من مات على الايمان فانه لا بد من ان يدخل الجنة ويخرج من النار ان دخلها ولو حبط عمله كله لم يدخل الجنة قط ولان الاعمال انما يحبطها ما ينافيها ولا ينافي الاعمال مطلقا الا الكفر وهذا معروف من اصول اهل السنة نعم قد يبطل بعض الاعمال بوجود ما يفسده كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى} البقرة ٢٦٤ ولهذا لم يحبط الله الاعمال في كتابه الا بالكفر فاذا ثبت ان رفع الصوت فوق صوت النبي والجهر له بالقول يخاف منه ان يكفر صاحبه وهو لا يشعر ويحبط عمله بذلك وانه مظنة لذلك وسبب فيه فمن

^١مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٧٢

^٢منهاج السنة النبوية ج: ٦ ص: ٣١٣

المعلوم ان ذلك لما ينبغي له من التعزير والتوقير والتشريف والتعظيم والاكرام والاجلال ولما ان رفع الصوت قد يشتمل على اذى له او استخفاف به وان لم يقصد الرافع ذلك فاذا كان الاذى والاستخفاف الذي يحصل في سوء الادب من غير قصد صاحبه يكون كفرا فالاذى والاستخفاف المقصود المتعمد كفرا بطريق الاولى^١

الصوت المسموع من العبد هو صوت العبد

ذكر في غير موضع ان الصوت المسموع من العبد هو صوت العبد كما قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ { الحجرات ٢ } وقال { إِنَّ الَّذِينَ يَعْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ { الحجرات ٣ } وقال لقمان لابنه { وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ { لقمان ١٩ }^٢

إن الله لم يجعل شيئا يحبط جميع الحسنات إلا الكفر

وإن الله لم يجعل شيئا يحبط جميع الحسنات إلا الكفر كما أنه لم يجعل شيئا يحبط جميع السيئات إلا التوبة و المعتزلة مع الخوارج يجعلون الكبائر محبطة لجميع الحسنات حتى الإيمان قال الله تعالى { وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمَتٌ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ { البقرة ٢١٧ } فعلق الحبوط بالموت على الكفر وقد ثبت أن هذا ليس بكافر والمعلق بشرط يعدم عنه عده وقال تعالى { وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ { المائدة ٥ } وقال تعالى لما ذكر الأنبياء { وَمَنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَنِبْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ { ٨٧ } ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ { ٨٨ } { الأنعام ٨٧-٨٨ } وقال { لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ { الزمر ٦٥ } مطابق لقوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ { النساء ٤٨ } فإن الإشراك إذا لم يغفر وأنه موجب للخلود في النار لزم من ذلك حبوط حسنات صاحبه ولما ذكر سائر الذنوب غير الكفر لم يعلق بها حبوط جميع الأعمال وقوله { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرَّهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ { محمد ٢٨ } لأن ذلك كفر وقوله تعالى { لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبِطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ { الحجرات ٢ } لأن ذلك قد يتضمن فيقتضي الحبوط وصاحبه لا يدري كراهية أن يحبط أو خشية أن يحبط فنهاهم عن ذلك لأنه يفضي إلى الكفر المقتضى للحبوط ولا ريب أن المعصية قد تكون سببا للكفر كما قال بعض السلف المعاصي بريد الكفر فينهي عنها خشية أن تفضي إلى الكفر المحبط كما قال تعالى { فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ { النور ٦٣ } وهي الكفر { أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ { النور ٦٣ } وإبليس خالف أمر الله فصار كافرا وغيره أصابه عذاب أليم وقد احتجت الخوارج والمعتزلة بقوله تعالى { إِنَّمَا يَنْتَقِلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ { المائدة ٢٧ } قالوا فصاحب الكبيرة ليس من المتقين فلا يقبل الله منه عملا فلا يكون له حسنة وأعظم الحسنات الإيمان فلا يكون معه إيمان فيستحق الخلود في النار وقد أجابتهم المرجئة بأن المراد بالمتقين من يتقى الكفر فقالوا لهم اسم المتقين في القرآن يتناول المستحقين للثواب كقوله تعالى { إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ { ٥٤ } في مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُتَنَدِّرٍ { ٥٥ } { القمر ٥٤-٥٥ } وأيضا فابنا آدم حين قريبا قربانا لم يكن المقرب المرود قربانه حينئذ كافرا وإنما كفر بعد ذلك إذ لو كان كافرا لم يتقرب وأيضا فما زال السلف يخافون من هذه الآية ولو أريد بها من يتقى الكفر لم يخافوا وأيضا فإطلاق لفظ المتقين والمراد به من ليس بكافر لا أصل له في خطاب الشارع فلا يجوز حمله عليه والجواب الصحيح أن المراد من إتقى الله في ذلك العمل كما قال الفضيل بن عياض في قوله تعالى { لِيُبْلُوَكُمْ أَنِ كُنْتُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا { هود ٧ } قال أخلصه وأصوبه قيل يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه قال إن

^١ الصارم المسلول ج: ٢ ص: ١١٢-١١٥

^٢ الرد على المنطقيين ج: ١ ص: ٥٤٤

العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة فمن عمل لغير الله كأهل الرياء لم يقبل منه ذلك كما في الحديث الصحيح يقول الله عز وجل أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك معي فيه غيري فأنا بريء منه وهو كله للذي أشركه وقال في الحديث الصحيح لا يقبل الله صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول وقال لا يقبل الله صلاة حائض إلا بخمار وقال في الحديث الصحيح من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد أي فهو مردود غير مقبول فمن إتقى الكفر وعمل عملا ليس عليه أمر النبي صلى الله عليه وسلم لم يقبل منه وإن صلى بغير وضوء لم يقبل منه لأنه ليس متقيا في ذلك العمل وإن كان متقيا للشرك وقد قال تعالى {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ} المؤمنون ٦٠ وفي حديث عائشة عن النبي أنها قالت يا رسول الله أهو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر ويخاف أن يعذب قال لا يا ابنة الصديق ولكنه الرجل يصلى ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه وخوف من خاف من السلف أن لا يتقبل منه لخوفه أن لا يكون أتى بالعمل على وجهه المأمور وهذا أظهر الوجوه في إستثناء من إستثنى منهم في الإيمان وفي أعمال الإيمان كقول أحدهم أنا مؤمن إن شاء الله وصليت إن شاء الله لخوف أن لا يكون أتى بالواجب على الوجه المأمور به لا على جهة الشك فيما بقلبه من التصديق لا يجوز أن يراد بالآية إن الله لا يقبل العمل إلا ممن يتقى الذنوب كلها لأن الكافر والفاسق حين يريد أن يتوب ليس متقيا فإن كان قبول العمل مشروطا بكون الفاعل حين فعله لا ذنب له إمتنع قبول التوبة بخلاف ما إذا اشترط التقوى في العمل فإن التائب حين يتوب يأتي بالتوبة الواجبة وهو حين شروعه في التوبة منتقل من الشر إلى الخير لم يخلص من الذنب بل هو متق في حال تخلصه منه وأيضا فلو أتى الإنسان بأعمال البر وهو مصر على كبيرة ثم تاب لوجب أن تسقط سيئاته بالتوبة وتقبل منه تلك الحسنات وهو حين أتى بها كان فاسقا وأيضا فالكافر إذا أسلم وعليه للناس مظالم من قتل وغصب وقذف وكذلك الذمي إذا أسلم قبل إسلامه مع بقاء مظالم العباد عليه فلو كان العمل لا يقبل إلا ممن لا كبيرة عليه لم يصح إسلام الذمي حتى يتوب من الفواحش والمظالم بل يكون مع إسلامه مخلصا وقد كان الناس مسلمين على عهد رسول الله ولهم ذنوب معروفة وعليهم تبعات فيقبل إسلامهم ويتوبون إلى الله سبحانه من التبعات كما ثبت في الصحيح أن المغيرة بن شعبه لما أسلم وكان قد رافق قوما في الجاهلية فغدر بهم وأخذ أموالهم وجاء فأسلم فلما جاء عروة بن مسعود عام الحديبية والمغيرة قائم على رأس النبي صلى الله عليه وسلم بالسيف دفعه المغيرة بالسيف فقال من هذا فقالوا ابن أختك المغيرة فقال يا غدر ألسنت أسعي في غدرتك فقال النبي صلى الله عليه وسلم أما الإسلام فأقبله وأما المال فلست منه في شيء وقد قال تعالى {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَنْطَرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ} الأنعام ٥٢ وقالوا لنوح { أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبِعْكَ الْأَرْدَلُونَ } { ١١١ } قَالَ وَمَا عَلَّمِي مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ { ١١٢ } إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ { ١١٣ } الشعراء ١١١-١١٣ ولا نعرف من المسلمين جاءه ذمي يسلم فقال له لا يصح إسلامك حتى لا يكون عليك ذنب وكذلك سائر أعمال البر من الصلاة والزكاة^١

هل يحبط بعض الحسنات بذنب دون الكفر؟

فالذنوب إنما تقع إذا كانت النفس غير ممتثلة لما أمرت به ومع إمتثال المأمور لا تفعل المحظور فإنهما ضدان قال تعالى { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } يوسف ٢٤ الآية وقال { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ } الحجر ٤٢ فعباد الله مخلصون لا يغويهم الشيطان والغى خلاف الرشد وهو إتباع الهوى فمن مالت نفسه الى محرم فليات بعبادة الله كما أمر الله مخلصا له الدين فإن ذلك يصرف عنه السوء الفحشاء خشية ومحبة والعبادة له وحده وهذا يمنع من السيئات فإذا كان تائبا فإن كان ناقصا فوقعت السيئات من صاحبه كان ماحيا لها بعد الوقوع فهو كالترياق الذي يدفع أثر السم ويرفعه بعض حصوله وكالغذاء من الطعام والشراب

^١مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٤٩٤ - ٤٩٨

وكالإستمتاع من بالحلال الذى يمنع النفس عن طلب الحرام فإذا حصل له طلب إزالته وكالعالم الذى يمنع من الشك ويرفعه بعد وقوعه وكالطب الذى يحفظ الصحة ويدفع المرض وكذلك كما فى القلب من الإيمان يحفظ بأشباهة مما يقوم به وإذا حصل منه مرض من الشبهات والشهوات وأزيل بهذه ولا يحصل المرض إلا لنقص أسباب الصحة كذلك القلب لا يمرض إلا لنقص إيمانه وكذلك الإيمان والكفر متضادان فكل ضدين فأحدهما يمنع الآخر تارة ويرفعه أخرى كالسواد والبياض حصل موضعه ويرفعه إذا كان حاصلًا كذلك الحسنات والسيئات والأحباط والمعتزلة إن الكبيرة تحبط الحسنات حتى الإيمان وإن من مات عليها لم يكن الجبائى وإبته بالموازنة لكن قالوا من رجحت سيئاته خلد فى النار والموازنة بلا تخليد قول الأحباط ما أجمع عليه وهو حبوط الحسنات كلها بالكفر كما قال { وَمَنْ يَزِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ } البقرة ٢١٧ الآية وقوله { وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ } المائدة ٥ وقال { وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } الأنعام ٨٨ وقال { لَنْ أَشْرَكَتْ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ } الزمر ٦٥ الآية وما إدعته المعتزلة مخالف لأقوال السلف فإنه سبحانه ذكر حد الزانى وغيره ولم يجعلهم كفارا حابطى الأعمال وعلى قاتل نفسه ولو كانوا كفارا ومنافقين لم تجز الصلاة عليهم فعمل أنهم لم يحبط إيمانهم كله وقال عمن شرب الخمر لا تلعة فإنه يحب الله ورسوله وكذلك الحب من أعظم شعب الإيمان فعل أن إدمانه لا يذهب الشعب كلها وثبت من وجوه كثيرة يخرج من النار من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ولو حبط لم يكن فى قلوبهم شيء منه وقال تعالى { ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمَنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ } فاطر ٣٢ الآية فجعل من المصطفين فإذا كانت السيئات لا تحبط جميع الحسنات فهل تحبط بقدرها وهل يحبط بعض الحسنات بذنب دون الكفر فيه قولان للمنتسبين الى السنة منهم من ينكره ومنهم من يثبتته كما دلت عليه النصوص مثل قوله { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صِدْقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَدَى } البقرة ٢٦٤ الآية دل على أن هذه السيئة تبطل الصدقة ضرب مثله بالمرائى وقالت عائشة أبلغى زيدا أن جهاده بطل الحديث وأما قوله { **أَنْ تَحْبِطَ أَعْمَالُكُمْ** } **الحجرات ٢** وحديث صلاة العصر فى ذلك نزاع فقال تعالى { **وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ** } محمد ٣٣ قال الحسن بالمعاصى والكبائر وعن عطاء بالشرك والنفاق وعن ابن السائب بالرياء والسمعة وعن مقاتل بالمن وذلك أن قوما منوا بإسلامهم فما ذكر عن الحسن يدل على أن المعاصى والكبائر تحبط الأعمال فإن قيل لم يرد إلا إبطالها بالكفر قيل ذلك منهى عنه فى نفسه وموجب للخلود الدائم فالنهي عنه لا يعبر عنه بهذا بل يذكره على وجه التغليب كقوله { **مَنْ يَزِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ** } المائدة ٥٤ ونحوها والله سبحانه فى هذه وفى آية المن سماها إبطالا ولم يسمه إحباطا ولهذا ذكر بعدها الكفر بقوله { **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَرَاءُ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ** } محمد ٣٤ الآية فإن قيل المراد إذا دخلتم فيها فأتموها وبها إحتج من قال يلزم التطوع بالشروع فيه قيل لو قدر أن الآية تدل على أنه منهى عن إبطال بعض العمل فإبطاله كله أولى بدخوله فيها فكيف ذلك قيل فراغه لا يسمى صلاة ولا صوما ثم يقال الإبطال يوجد قبل الفراغ أو بعده وما ذكره أمر بالإتمام والإبطال هو إبطال الثواب ولا نسلم أن من لم يتم العبادة يبطل جميع ثوابه بل يقال إنه يثاب على من فعل من ذلك وفى الصحيح حديث المفلس الذى يأتى بحسنات أمثال الجبال^١

" الجفاء والغلط وقسوة القلوب فى الفدادين "

قال الله تعالى { **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبِطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ** } {٢} { **إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ** } {٣} **الحجرات ٢- ٣** ذم الله ما يكون بأختيار العبد من رفع الصوت الرفع المنكر كما يوجد ذلك فى أهل الغلط والجفاء كما قال النبي ص الجفاء والغلط وقسوة القلوب فى الفدادين من أهل الوبر وهم الصياحون صياحا وقال تعالى إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون سورة الحجرات ٤ وقال لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له القول سورة الحجرات ٢ وقال إن الذين

^١ مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٦٣٧- ٦٤٠

يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى سورة الحجرات ٣ وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو في صفة النبي ص في التوراة قال ليس بفظ ولا غليظ ولا لصخاب بالأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر^١

الصوت والبصر جماع ما يدخل إلى القلب ويخرج منه

قال الله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ } {٢} { إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ } {٣} { الحجرات ٢- ٣ } قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ } { الحجرات ٣ } الآية فإنه مدحهم على غض الصوت عند رسوله مطلقا فهم مأمورون بذلك في مثل ذلك ينهون عن رفع الصوت عنده وأما غض الصوت مطلقا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهو غض خاص ممدوح ويمكن العبد أن يغض صوته مطلقا في كل حال ولم يؤمر العبد به بل يؤمر برفع الصوت في مواضع إما أمر إيجاب أو إستحباب فلهذا قال { وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ } لقمان ١٩ فإن الغض في الصوت والبصر جماع ما يدخل إلى القلب ويخرج منه فبالسمع يدخل القلب وبالصوت يخرج منه كما العضوين في قوله { أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ } {٨} { وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ } {٩} { البلد ٨- ٩ } فبالعين والنظر يعرف القلب الأمور واللسان والصوت يخرج من عند القلب الأمور هذا رائد القلب وصاحب خبره وجاسوسه وهذا ترجمانه^٢

كل من عمل سوءا فهو جاهل

قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ } {٤} { وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } {٥} { الحجرات ٤- ٥ } قال أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كل من عمل سوءا فهو جاهل وسبب ذلك أن العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل فمتى صدر خلافه فلا بد من غفلة القلب عنه أو ضعف القلب عن مقاومة ما يعارضه وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم فيصير جهلا بهذا الاعتبار ومن هنا تعرف دخول الأعمال في مسمى الإيمان حقيقة لا مجازا وإن لم يكن كل من ترك شيئا من الأعمال كافرا أو خارجا عن أصل مسمى الإيمان وكذلك اسم العقل ونحو ذلك من الأسماء ولهذا يسمى الله تعالى أصحاب هذه الأحوال موتى وعميا وصما وبكما وضالين وجاهلين ويفهم بأنهم لا يعقلون ولا يسمعون ويصف المؤمنين بأولي الألباب والنهي وأنهم مهتدون وأن لهم نورا وأنهم يسمعون ويعقلون^٣

لفظ العقل في القرآن

قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ } {٤} { وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } {٥} { الحجرات ٤- ٥ } ان اسم العقل عند المسلمين وجمهور العقلاء إنما هو صفة وهو الذي يسمى عرضا قائما بالعاقل وعلى هذا دل القرآن في قوله تعالى لعلمكم تعقلون وقوله { أَقَلَّمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونْ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا } { الحجرات ٤٦ } وقوله { قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ } { آل عمران ١١٨ }

^١ الاستقامة ج: ١ ص: ٣٣٥

^٢ مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٣٨٤

^٣ اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٧٨

ونحو ذلك مما يدل على ان العقل مصدر عقل يعقل عقلا وإذا كان كذلك فالعقل لا يسمى به مجرد العلم الذي لم يعمل به صاحبه ولا العمل بلا علم بل إنما يسمى به العلم الذي يعمل به والعمل بالعلم ولهذا قال أهل النار {لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} الملك ١٠ وقال تعالى {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَنُوكُنَّ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا} الحج ٤٦ والعقل المشروط في التكليف لا بد أن يكون علوما يميز بها الانسان بين ما ينفعه وما يضره فالمجنون الذي لا يميز بين الدراهم والفلوس ولا بين أيام الاسبوع ولا يفقه ما يقال له من الكلام ليس بعاقل أما من فهم الكلام ويميز بين ما ينفعه وما يضره فهو عاقل ثم من الناس من يقول العقل هو علوم ضرورية ومنهم من يقول العقل هو العمل بموجب تلك العلوم والصحيح أن اسم العقل يتناول هذا وهذا وقد يراد بالعقل نفس الغريزة التي في الانسان التي بها يعلم ويميز ويقصد المنافع دون المضار كما قال أحمد بن حنبل والحارث المحاسبى وغيرهما ان العقل غريزة وهذه الغريزة ثابتة عند جمهور العقلاء كما أن في العين قوة بها يبصر وفي اللسان قوة بها ينطق وفي الجلد قوة بها يلمس عند جمهور العقلاء^١

الناس يدركون بعقولهم الامور الدنيا فيعرفون ما يجلب لهم منفعة في الدنيا وما يجلب لهم مضرة وهذا من العقل الذى ميز به الانسان فانه يدرك من عواقب الافعال ما لا يدركه الحس ولفظ العقل في القران يتضمن ما يجلب به المنفعة وما يدفع به المضرة^٢

إن الله لم يثن على من لا يعقل

قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون} {٤} {وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} {٥} الحجرات ٤-٥ قال تعالى {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى} طه ٥٤ أى العقول وقال تعالى {هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ} الفجره أى لذى عقل وقال تعالى {وَأَتَقُونَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ} البقرة ١٩٧ وقال {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ} الأنفال ٢٢ وقال تعالى {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} يوسف ٢ فإنما مدح الله وأثنى على من كان له عقل فأما من لا يعقل فإن الله لم يحمده ولم يثن عليه ولم يذكره بخير قط بل قال تعالى عن أهل النار {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} الملك ١٠ وقال تعالى {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} الأعراف ١٧٩ وقال {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا} الفرقان ٤٤^٣

ليس مناداة الله كمناداة العبد

قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون} {٤} {وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} {٥} الحجرات ٤-٥ سمي الله نفسه بأسماء وسمى صفاته بأسماء وكانت تلك الأسماء مختصة به اذا اضيفت اليه لا يشركه فيها غيره وسمى بعض مخلوقاته بأسماء مختصة بهم مضافة اليهم توافق تلك الأسماء اذا قطعت عن الاضافة والتخصيص ولم يلزم من اتفاق الاسمين وتمائل مساهما واتحاده عند الاطلاق والتجريد عن الاضافة والتخصيص اتفاقهما ولا تماثل المسمى عند الاضافة والتخصيص فضلا عن ان يتحد مساهما عند الاضافة والتخصيص فقد سمي الله نفسه حيا فقال {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} البقرة ٢٥٥

^١ مجموع الفتاوى ج: ٩ ص: ٢٨٦

^٢ مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٣١١

^٣ مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٤٣٧

وسمى بعض عباده حيا فقال {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ} الروم ١٩ وليس هذا الحي مثل هذا الحي لأن قوله الحي إسم لله مختص به وقوله {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ} الروم ١٩ اسم للحي المخلوق مختص به وإنما يتفقان إذا اطلقا وجردا عن التخصيص ولكن ليس للمطلق مسمى موجود في الخارج ولكن العقل يفهم من المطلق قدرا مشتركا بين المسميين وعند الاختصاص يقيد ذلك بما يتميز به الخالق عن المخلوق والمخلوق عن الخالق ولا بد من هذا في جميع أسماء الله وصفاته يفهم منها ما دل عليه الاسم بالمواطأة والإتفاق وما دل عليه بالإضافة والاختصاص المانعة من مشاركة المخلوق للخالق في شيء من خصائصه سبحانه وتعالى وكذلك سمي صفاته بأسماء وسمى صفات عباده بنظير ذلك فوصف نفسه بالمناداة فقال {وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا} مريم ٥٢ ووصف عباده بالمناداة فقال {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} الحجرات ٤ وليس المنادة كالمنادة^١

لطائف لغوية

- ١- قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} الحجرات ١ فقوله {فَأَيُّمًا تُولُوا} البقرة ١١٥ أى تتولوا أى تتوجهوا وتستقبلوا يتعدى الى مفعول واحد بمعنى يتولاها ونظير ولى وتولى قدم وتقدم وبين وتبين كما قال {لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} الحجرات ١ وقال {بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ} النساء ١٩
- ٢- قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} الحجرات ١ سمع منزه عن الصم عليم منزه عن الجهل^٢
- ٣- قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} الحجرات ١ أن جميع الأفعال مشتقة سواء كانت هي مشتقة من المصدر أو كان المصدر مشتقا منها أو كان كل واحد منهما مشتقا من الآخر بمعنى أن بينهما مناسبة في اللفظ والمعنى لا بمعنى أن أحدهما أصل والآخر فرع بمنزلة المعاني المتضايقة كالأبوة والبنوة أو كالأخوة من الجانبين ونحو ذلك فعلى كل حال إذا أمر بفعل كان نفس مصدر الفعل أمرا مطلوباً للأمر مقصوداً له كما في قوله {وَاتَّقُوا اللَّهَ} الحجرات ١ وفي قوله {وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} البقرة ١٩٥ وفي قوله {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} الحديد ٧ وفي قوله {اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ} المائدة ٧٢ وفي قوله {فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا} يونس ٨٤ فإن نفس التقوى والإحسان والإيمان والعبادة والتوكل أمور مطلوبة مقصودة بل هي نفس المأمور به^٣
- ٤- قال الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} {٢} إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ} {٣} الحجرات ٢- ٣ المضاف الى الله سبحانه فى الكتاب والسنة كان منه اضافة المخلوقات كقوله {نَاقَةُ اللَّهِ} هود ٦٤ وقوله {أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ} البقرة ١٢٥ وقوله {رَسُولِ اللَّهِ} الحجرات ٣ و {عِبَادَ اللَّهِ} الصافات ٤٠ وقوله {ذُو الْعَرْشِ} غافر ١٥ وقوله {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} البقرة ٢٥٥ فهذا القسم لا خلاف بين المسلمين فى انه مخلوق^٤

^١ مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ١٤

^٢ مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٤٢٩

^٣ الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧

^٤ اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٥١

^٥ مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ١٤٤

الحجرات ٦- ٨

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ } ٦ { وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ } ٧ { فَضَلَّ مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } ٨

{ إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا }

قد اشتهر في التفسير والحديث والسير أن النبي صلى الله عليه وسلم ولى الوليد بن عقبة على صدقات ناس من العرب فلما قرب منهم خرجوا إليه فظن أنهم يحاربونه فأرسل الى النبي صلى الله عليه وسلم يذكر محاربتهم له فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يرسل إليهم جيشاً فأنزل الله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ } الحجرات ٦

لا يمتنع على الأنبياء أن يكون الأمر بخلاف ما ظنوه

لا يمتنع على الأنبياء أن يظنوا شيئاً فيكون الأمر بخلاف ما ظنوه فقد يظنون فيما وعدوه تعييناً وصفات ولا يكون كما ظنوه فيبأسون مما ظنوه في الوعد لا من تعيين الوعد كما قال النبي صلى الله عليه وسلم رأيت أن أبا جهل قد أسلم فلما أسلم خالد ظنوه فلما أسلم عكرمة علم أنه هو وروى مسلم في صحيحه أن النبي مر بقوم يلحقون فقال لو لم تفعلوا هذا لصلح قال فخرج سبتاً فمر بهم فقال ما لفحلكم قالوا قلت كذا وكذا قال أنتم اعلم بأمر دنياكم وروى أيضاً عن موسى بن طلحة عن أبيه طلحة ابن عبيد الله قال مررت مع رسول الله يقوم على رؤوس النخل فقال ما يصنع هؤلاء فقال يلحقونه يجعلون الذكر في الأنثى فتلقح فقال رسول الله ما أظن يغني ذلك شيئاً فأخبروا بذلك فتركوه فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فإنني ظننت ظناً فلا تؤاخذوني بالظن ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به فإنني لأنا أكذب على الله فإذا كان النبي يأمرنا إذا حدثنا بشيء عن الله أن نأخذ به فإنه لن يكذب على الله فهو أصدقنا لله وأعلمنا بما يتقى وهو أحق أن يكون أخذاً بما يحدثنا عن الله فإذا أخبره الله بوعده كان علينا أن نصدق به وتصديقه هو به أعظم من تصديقنا ولم يكن لنا أن نشك فيه وهو بأبي أولى وأحرى أن لا يشك فيه لكن قد يظن ظناً كقوله إنما ظننت ظناً فلا تؤاخذوني بالظن وإن كان أخبره به مطلقاً فمستنده ظنون كقوله في حديث ذي اليمين ما قصرت الصلاة ولا نسيت وقد يظن الشيء ثم يبين الله الأمر على جليلته كما وقع مثل ذلك في أمور كقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ } الحجرات ٦ نزلت في الوليد ابن عقبة لما استعمله النبي وهم أن يغزوهم لما ظن صدقه حتى أنزل الله هذه الآية وكذلك في قصة بني أبيرق التي أنزل الله فيها { إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا } النساء ١٠٥ وذلك لما جاء قوم تركوا السارق الذي كان يسرق وأخرجوا البريء فظن النبي صدقهم حتى تبين

^{١١} منهاج السنة النبوية ج: ٦ ص: ٢٤٠

الأمر بعد ذلك وقال في حديث قصر الصلاة لم أنس ولم تقصر فقالوا بلى قد نسيت وكان قد نسي فأخبر عن موجب ظنه وإعتقاده حتى تبين الأمر بعد ذلك وروى عنه أنه قال إنى لا أنسى لأسن^١

الإمام ليس معصوم

والرافضي إن زعم أن الإمام يكون منصوصا عليه وهو معصوم فليس هو أعظم من الرسول ونوابه وعماله ليسوا معصومين ولا يمكن أن ينص الشارع على كل معينة ولا يمكن النبي ولا الإمام أن يعلم الباطن في كل معينة بل قد كان النبي صلى الله عليه وسلم يولى الوليد بن عقبة ثم ينزل الله فيه { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ } { الحجرات ٦ } وقد كان يظن أن الحق في قضيته مع بني أبيرق ثم ينزل الله { إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ حَصِيمًا } { النساء ١٠٥ } الآيات وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون الحن بحجته من بعض وإنما أفضى بنحو مما أسمع فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار فحكمه في القضية المعينة إنما هو باجتهاده ولهذا نهى المحكوم له أن يأخذ ما حكم له به إذا كان الباطن بخلاف ما ظهر للحاكم^٢

دلالات قوله { إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا }

قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ } { الحجرات ٦ } ففي الآية دلالات أحدها قوله { إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا } { الحجرات ٦ } فأمر بالتبين عند مجيء كل فاسق نبأ بل من الأنبياء ما ينهى فيه عن التبين ومنها ما يباح فيه ترك التبين ومن الأنبياء ما يتضمن العقوبة لبعض الناس لأنه علل الأمر بأنه إذا جاءنا فاسق نبأ خشية أن نصيب قوما بجهالة فلو كان كل من أصيب نبأ كذلك لم يحصل الفرق بين العدل والفاسق بل هذه الأدلة واضحة على أن الإصابة بنبأ العدل الواحد لا ينهى عنها مطلقا وذلك يدل على قبول شهادة العدل الواحد في جنس العقوبات فإن سبب نزول الآية يدل على ذلك فإنها نزلت في إخبار واحد بأن قوما قد حابوا بالردة أو نقض العهد وفيه أيضا أنه متى إقترن بخبر الفاسق دليل آخر يدل على صدقه فقد إستبان الأمر وزوال الأمر بالثبوت فتجوز إصابة القوم وعقوبتهم بخبر الفاسق مع قرينة إذا تبين بهما الأمور فكيف خبر الواحد العدل مع دلالة أخرى ولهذا كان أصح القولين أن مثل هذا لوث في باب القسامة فعذا إنضاف إيمان المقسمين صار ذلك بينة تبيح دم المقسم عليه وقوله { أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ } { الحجرات ٦ } فجعل المحذور هو الإصابة لقوم بلا علم فمتى أصيبوا بعلم زال المحذور وهذا هو المناط الذي دل عليه القرآن كما قال { إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } { الزخرف ٨٦ } وقال { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ } { الإسراء ٣٦ } وأيضا فإنه علل ذلك بخوف الندم إنما يحصل على عقوبة البريء من الذنب كما في سنن أبي داود ادروا الحدود بالشبهات فإن الإمام أن يخطيء في العفو خير من أن يخطيء في العقوبة فإذا دار الأمر بين أن يخطيء فيعاقب برئيا أو يخطيء فيعفو عن مذنب كان هذا الخطأ خير الخطأين أما إذا حصل عنده علم أنه لم يعاقب إلا مذنبا فإنه يندم ولا يكون فيه خطأ والله أعلم^٣

^١ مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ١٨٦-١٩٥

^٢ منهاج السنة النبوية ج: ٦ ص: ١٤٠

^٣ مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٣٠٦-٣١٣

قال تعالى { مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ } البقرة ٢٨٢ وقال في آية الوصية { ائْتَانِ دَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ } المائدة ١٠٦ وقال في آية الرجعة { وَأَشْهَدُوا دَوِيَّ عَدْلٍ مِّنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ } الطلاق ٢ فقد أمرنا الله سبحانه بأن نحمل الشهادة المحتاج إليها لأهل العدل والرضا وهؤلاء هم الممثلون ما أمرهم الله به بقوله { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا } النساء ١٣٥ الآية وفي قوله تعالى { وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ } البقرة ٢٨٣ وقوله { وَلَا يَأْبُ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا } البقرة ٢٨٢ وقوله { وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ } المعارج ٣٣ فهم يقومون بالشهادة بالقسط لله فيحصل مقصود الذي إستشهده الوجه الثاني أن كون شهادتهم مقبولة مسموعة لأنهم أهل العدل والرضى فدل على وجوب ذلك في القبول والأداء وقد نهى سبحانه عن قبول شهادة الفاسق بقوله { إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا } الحجرات ٦ الآية لكن هذا نص في أن الفاسق الواحد يجب التبين في خبره وأما الفاسقان فصاعدا فالدلالة عليه يحتاج إلى مقدمة أخرى وما ذكره من عدد الشهود لا يعتبر في الحكم بإتفاق العلماء في مواضع وعند جمهورهم قد يحكم بلا شهود في مواضع عند النكول والرد ونحو ذلك ويحكم بشاهد ويمين رواه أبو داود وغيره من حديث أبي هريرة ورواه مسلم من حديث ابن عباس أن رسول الله قضى بشاهد ويمين ورواه غيرهما^١

النهي عن التكلم بلا علم

قال تعالى { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا } الإسراء ٣٦ وهذا نهى عن التكلم بلا علم وهو عام في جميع أنواع الأخبار وقد يتناول ما أخبر به الإنسان وما قد يعتقده بغير الأخبار من الدلائل والآيات والعلامات ليس له أن يتكلم بلا علم فلا يفتي شيئا إلا بعلم ولا يثبت إلا بعلم ولهذا كان عامة العلماء على أن النافي للشيء عليه الدليل على ما ينفيه كما أن المثبت للشيء عليه الدليل على ثبوته وحكي عن بعض الناس أنه قال النافي ليس عليه دليل وفرق بعضهم بين العقليات والشرعيات فأوجبه في العقليات دون الشرعيات وهؤلاء اشتبه عليهم النافي بالمانع المطالب فإن من أثبت شيئا فقال له آخر أنا لا أعلم هذا ولا أوافقك عليه ولا أسلمه لك حتى تأتي بالدليل كان هذا مصيبا ولم يكن على هذا المانع المطالب بالدليل وإنما الدليل على المثبت بخلاف من نفى ما أثبته غيره فقال له قولك خطأ والصواب في نقيض قولك ولم يكن هذا كذا فإن هذا عليه الدليل على نفيه كما على ذلك المثبت الدليل على إثباته وإذا لم يأت واحد منهما بدليل كان كلاهما بلا حجة ولهذا كان من أثبت شيئا أو نفاه وطلب منه الحجة فلم يأت بها كان منقطعاً في المناظرة وإذا اعترض المعترض عليه بممانعة أو معارضة فأجاب عنها انقطع المعترض عليه وثبت قول الأول وإن لم يجب عن المعارضة انقطع المستدل إذ كان الدليل الذي يجب اتباعه هو الدليل السالم عن المعارض المقاوم ولو أقام دليلاً قطعياً فعورض بما لا يفيد القطع كان له أن يقول ما ذكرته يفيد العلم والعلم لا يعارضه الظن والبيّنات لا تعارض بالشبهات التي هي من جنس كلام السوفسطائية فهو سبحانه نهى عن الكلام بلا علم مطلقاً وخص الكلام على الله بقوله تعالى { قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَإِنتِمُ وَالْبَغْيُ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } الأعراف ٣٣ ونهى عن اتباع خطوات الشيطان وأخبر أنه يأمر بالقول على الله بلا علم فقال { يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ } {١٦٨} إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } {١٦٩} وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلَوْكَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ } {١٧٠} البقرة ١٦٨ - ١٧٠ وكذلك ذم من يجادل ويحاج بلا علم بقوله تعالى { هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَآجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } آل عمران ٦٦ وقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِيبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ تَادِيمٍ } الحجرات ٦ يتناول خبر كل فاسق وإن كان كافراً لا يجوز تكذيبه إلا ببينة

^١ مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٣٥٢-٣٥٣

كما لا يجوز تصديقه إلا ببينة وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرية ويفسرونها بالعربية فقال النبي صلى الله عليه وسلم إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه وقولوا { أَمَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَالْهَذَا وَوَحْنٌ لَهُ مُسْلِمُونَ } العنكبوت ٤٦ وهذا الذي دل عليه الكتاب والسنة من إمساك الإنسان عما لا يعلم انتفاؤه وثبوته هو مأتور عن غيره من الأنبياء كما جاء عن المسيح عليه السلام أنه قال الأمور ثلاثة أمر تبين رشده فاتبعوه وأمر تبين فيه فاجتنبوه وأمر اشتبه عليكم فكلوه إلى عالمه وعمامة عقلاء بني آدم على هذا ولهذا لا يجوز أن يصدق بخبر منقول عن الرسول أو غيره إلا بدلالة تدل على صدقه ولا يجوز أن يكذبه إلا بدلالة تدل على كذبه وعلى هذا العلم والدين وقد تكلم العلماء وصنفوا كتباً كثيرة في الجرح والتعديل في الرجال والأحاديث فمن الناس من يعرف بالصدق والضبط فهذا هو العدل المقبول خبره ومنهم من يكون صدوقاً لكنه قد لا يحفظ ولا يضبط فيقولون في مثل هذا هو صدوق تكلم فيه من قبل حفظه ومنهم من عرف بالكذب وإذا روى الحديث من هو سيء الحفظ أو من قد يكذب لم يحكموا بذلك الحديث ولم يثبتوه ثم تارة يقوم الدليل على كذبه وتارة يتوقفون فيه لا يعلمون أصدق هو أم كذب ومثل هذا لا يعتد ولا يثبت ولا يحتج به كالشاهد الذي شهد للمدعي وليس بعدل مرضي أو هو خصم أو متهم ظنين فهذا إذا أردت شهادته ولم تقبل لم يكن معنى ذلك الحكم بكذبه أو خطئه بل معنى ذلك أنه لا تقوم به حجة ولا يحكم به لعدم العلم بصدقته لا للعلم بكذبه والمدعى عليه إذا كان صاحب يد أو ذمته بريئة فهو حجة ترجح جانبه وقد ضم إليها الشارع اليمين كما في صحيح البخاري عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لو يعطى الناس بدعواهم لا دعى رجال دعاء قوم وأموالهم ولكن اليمين على المدعى عليه فإذا لم يكن مع المدعى إلا مجرد دعواه فجانب المنكر أقوى من جانبه لأن معه أن الأصل في الأيدي أنها محقة والأصل براءة الذمة ولكن قد يكون المدعي صادقاً ولا يكون له حجة وهذا كثير جداً فلا يدفع بمجرد الأصل بل يحلف المنكر فيكون يمينه مع الأصل بحجة فيكون إنكار هذا مقابلاً لدعوى هذا كلاهما خبر لم يعلم صدقه فتعارضاً وترجح المنكر بالأصل فيبقى على ما كان لا يسلم بحجة للمدعى ما ادعاه بمجرد دعواه ولا تنقطع مطالبته للمدعى عليه لأنه لم يأت حجة تدفعه فإذا حلف المنكر كانت يمينه حجة فصلت الخصومة وقطعت الدعوى وإذا لم يأت المنكر باليمين بل نكل عنها ولا أتى المدعى بحجة وقف للأمر عند أكثر العلماء وعند بعضهم يقضي على المنكر بالنكول فيجعل نكوله إما بدلاً لما طلب وإما إقراراً به والأكثر يقولون بل ترد اليمين على المدعى الطالب الذي يقول إنه يعلم صدق نفسه فيما ادعاه وأنه عالم بما ادعاه فيقال له احلف وخذ فإن حلف أخذ وإلا دفعا ثم من العلماء من يرد اليمين في عامة الدعاوي ومنهم من يحكم بالنكول وإن كان المنكر يقول لا أعلم ما ادعى به وكل من الطائفتين يذكر آثاراً عن الصحابة والمنقول عن الصحابة يدل على التفصيل وهو أظهر الأقاويل وهو أنه إن كان المنكر هو العالم دون المدعى كما إذا ظهر في المبيع عيب وقد بيع بالبراءة فقال المشتري أنا لم أعلم به فإنه هنا يقال له كما قال عثمان بن عفان لابن عمر رضي الله عنهما احلف أنك بعته وما به داء تعلمه فإن حلف وإلا قضي عليه بالنكول كما قضى عثمان على ابن عمر بالنكول^١

يسمع خبر الفاسق ويتبين ويتثبت

والرجل الفاسق المعروف أنه يكذب لا بد أن يصدق في بعض الأخبار فلا يكون في الناس من لا يخبر إلا بكذب ولهذا قال تعالى { **إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا { الحجرات ٦** وفي القراءة الأخرى فتثبتوا فأمر بالتبين والتثبت إذا أخبر الفاسق بخبر ولم يأمر بتكذيبه بمجرد إخباره لأنه قد يصدق أحياناً فلما أمر سبحانه بالتبين والتثبت في خبر الفاسق دل ذلك على أنه لا يجوز تصديقه بمجرد إخباره إذ كان فاسقاً قد يكذب ولا يجوز أيضاً تكذيبه قبل أن يعرف أنه قد كذب وإن كان فاسقاً لأن الفاسق قد يصدق^٢

^١ الجواب الصحيح ج: ٦ ص: ٤٥٨ - ٤٦٥

^٢ الجواب الصحيح ج: ٦ ص: ٤٥٥

يسمع خبر الفاسق ويتبين ويتثبت فلا يجزم بصدقه ولا كذبه إلا ببينة كما قال تعالى **{إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أ**
{الحجرات ٦} وقد ثبت في صحيح البخارى عن أبى هريرة أن أهل الكتاب كانوا يقرأون التوراة ويفسرونها بالعربية
فقال النبى إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم فأما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه وإما أن يحدثوكم
بباطل فتصدقوه وقولوا **{ أَمَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَالْهَذَا وَالْهَٰؤُلَاءِ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ }** العنكبوت ٤٦
فقد جاز للمسلمين سماع ما يقولونه ولم يصدقوه ولم يكذبوه

تبين الأشياء للقلب ضد اشتباههم عليه

وتبين الأشياء للقلب ضد اشتباههم عليه كما قال الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات الحديث
وقد قرىء قوله **{ وَكَذَلِكَ نَفَصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ }** الأنعام ٥٥ بالرفع والنصب أي ولتتبين أنت
سبيلهم فالإنسان يستبين الأشياء وهم يقولون قد بان الشيء وبينته وتبين الشيء واستبان الشيء واستبينته
كل هذا يستعمل لازما ومتعديا ومنه قوله تعالى **{إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا}** الحجرات ٦ هو هنا معتمد ومنه
قوله **{ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ }** النساء ١٩ أي متبينة فهنا هو لازم والبيان كالكلام يكون مصدر بان الشيء بيانا ويكون
اسم مصدر لبين كالكلام والسلام لسلم وبين فيكون البيان بمعنى تبين الشيء ويكون بمعنى بينت الشيء أي اوضحته
وهذا هو الغالب عليه^٢

اتهموا الراى على الدين

ان الاعتراض قد يكون ذنبا ومعصية يخاف على صاحبه النفاق وان لم يكن نفاقا مثل قوله تعالى **{ يُجَادِلُونَكَ**
فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ } الأنفال ٦ ومثل مراجعتهم له في فسح الحج الى العمرة وابطائهم عن الحل وكذلك كراهم
للحل عام الحديبية وكراهم للصلح ومراجعة من راجع منهم فان من فعل ذلك فقد اذنب ذنبا كان عليه ان يسغفر
الله منه كما ان الذين رفعوا اصواتهم فوق صوته اذنبوا ذنبا تابوا منه وقد قال تعالى **{ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ**
اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ
وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّٰشِدُونَ } {٧} **فَضَلَّ مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }** {٨} الحجرات ٧-٨ وقال سهل بن حنيف
اتهموا الراى على الدين فلقد رايتني يوم ابي جندل ولو استطيع ان ارد امر رسول الله لفعلت فهذه امور صدرت
عن شهوة وعجلة لا عن شك في الدين كما صدر عن حاطب التجسس لقريش مع انها ذنوب ومعاصي يجب على
صاحبها ان يتوب وهي بمنزلة عصيان امر النبي ومما يدخل في هذا حديث ابي هريرة في فتح مكة قال فقال
رسول الله من دخل دار ابي سفيان فهو امن ومن القى السلاح فهو امن ومن اغلق بابه فهو امن فقالت الانصار اما
الرجل فقد ادركته رغبة في قرابته ورافة في بعشيرته قال ابو هريرة وجاء الوحي وكان اذا جاء لا يخفى علينا فاذا
جاء فليس احدا منا يرفع طرفه الى رسول الله حتى ينقضي الوحي فلما قضى الوحي قال رسول الله يا معشر
الانصار قالوا لبيك يا رسول الله قال قلتم ام الرجل فادركته رغبة في قرابته ورافة بعشيرته قالوا قد كان ذلك قال
كلا اني عبد الله ورسوله هاجرت الى الله واليكم المحيا محياكم والممات مماتكم فاقبلوا اليه بكون ويقولون والله ما
قلنا الذي قلنا الا الظن بالله وبرسوله فقال رسول الله ان الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم رواه مسلم وذلك ان
الانصار لما راوا النبي قد امن اهل مكة واقدمهم على اموالهم وديارهم مع دخوله عليهم عنوة وقهرا وتمكنه من
قتلهم واخذ اموالهم لو شاء خافوا ان يكون النبي يريد ان يستوطن مكة ويستوطن قريشا لان البلد بلده والعشيرة
عشيرته وان يكون نزاع النفس الى الوطن والاهل يوجب انصرافه عنهم فقال من قال منهم ذلك ولم يقله الفقهاء

^١ مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ٦٣

^٢ مجموع الفتاوى ج: ٩ ص: ٦٥

واولو الالباب الذين يعلمون انه لم يكن له سبيل الى استيطان مكة فقالوا ذلك لا طعنا ولا عيبا ولكن ضنا بالله وبرسوله والله ورسوله قد صدقاهم انما حملهم على ذلك الضن بالله ورسوله وعذراهم فيما قالوا لما راوا وسمعوا ولان مفارقة الرسول شديد على مثل اولئك المؤمنين الذين هم شعاع وغيرهم دثار والكلمة التي تخرج عن محبة وتعظيم وتشريف وتكريم يغتفر لصاحبها بل يحمد عليها وان كان مثلها لو صدر بدون ذلك استحق صاحبها النكال وكذلك الفعل الا ترى ان النبي لما قال لابي بكر حين اراد ان يتاخر عن موقعه في الصلاة لما احس بالنبي مكانك فتاخر ابو بكر فقال له النبي ما منعك ان تثبت مكانك وقد امرتك فقال ما كان لابن ابي قحافة ان يتقدم بين يدي النبي وكذلك ابو ايوب الانصاري لما استأذن النبي في ان ينتقل الى السفلى وان يصعد رسول الله الى العلو وشق عليه ان يسكن فوق النبي فامر النبي بالمكث في مكانه وذكر له ان سكناه اسفل ارفق به من اجل دخول الناس عليه فامتنع ابو ايوب من ذلك ادبا مع النبي وتوقيرا له فكلمة الانصار رضى الله عنهم من هذا الباب وبالجملة فالكلمات في هذا الباب ثلاثة اقسام احدها ما هو كفر مثل قوله ان هذه لقسمة ما اريد بها وجه الله الثاني ما هو ذنب ومعصية يخاف على صاحبها ان يحبط عمله مثل رفع الصوت فوق صوته ومثل مراجعة من راجعه عام الحديبية بعد ثباته على الصلح ومجادلة من جادله يوم بدر بعد ما تبين له الحق وهذا كله يدخل في المخالفة عن امره الثالث ما ليس من ذلك بل يحمد عليه صاحبه او لا يحمد كقول عمر ما بالنا نقصر الصلاة وقد امنا وكقول عائشة الم يقل الله {فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ} الحاققة ١٩ وكقول حفصة الم يقل الله {وَإِنْ مَنَّكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا} مريم ٧١ وكمراجعة الحباب في منزل بدر ومراجعة سعد في صلح غطفان على نصف تمر المدينة ومثل مراجعتهم له لما امرهم بكسر الانية التي فيها لحوم الحمر فقالوا او لا نغسلها فقال اغسلوها وكذلك رد عمر لابي هريرة لما خرج مبشرا ومراجعتة للنبي في ذلك وكذلك مراجعتة له لما اذن له في نحر الظهر في بعض المغازي وطلبه منه ان يجمع الأزواد ويدعو الله ففعل ما اشر به عمر ونحو ذلك مما فيه سؤال عن اشكال ليتبين لهم او عرض لمصلحة قد يفعلها الرسول^١

ليس حسن النية بالرعية ان يفعل ما يهونه

فليس حسن النية بالرعية والاحسان اليهم ان يفعل ما يهونه ويترك ما يكرهونه فقد قال الله تعالى {وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ} المؤمنون ٧١ وقال تعالى للصحابه {وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ إِلَّا يَمَانٌ وَرَيْبَةٌ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَتْ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ} {٧} فَضَلَّ اللَّهُ مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} {٨} الحجرات ٧-٨. وإنما الاحسان اليهم فعل ما ينفعهم في الدين والدنيا ولو كرهه من كرهه لكن ينبغي له ان يرفق بهم فيما يكرهونه ففي الصحيحين عن النبي انه قال ما كان الرفق في شئ إلا زانه ولا كان العنف في شئ إلا شاناه وقال إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وكان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه يقول والله انى لأريد أن أخرج لهم المرة من الحق فأخاف ان ينفروا عنها فأصبر حتى تجئ الحلوة من الدنيا فأخرجها معها فاذا نفروا لهذه سكنوا لهذه وهكذا كان النبي إذا أتاه طالب حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول وسأله مرة بعض أقاربه أن يوليه على الصدقات ويرزقه منها فقال ان الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد فمنعهم إياها وعوضهم من الفئ وتحاكم اليه على وزيد وجعفر في ابنه حمزة فلم يقض بها لواحد منهم ولكن قضى بها لخالتها ثم إنه طيب قلب كل واحد منهم بكلمة حسنة فقال لعلى أنت منى وأنا منك وقال لجعفر أشبهت خلقى وخلقى وقال لزبد انت أخونا ومولانا فكهذا ينبغي لولى الأمر في قسمه وحكمه فان الناس دائما يسألون ولى الأمر ما لا يصلح بذله من الولايات والأموال والمنافع والأجور والشفاعة في الحدود وغير ذلك فيعوضهم من جهة أخرى إن أمكن أو يردهم بميسور من القول مالم يحتج إلى الاغلاظ فان رد السائل يؤلمه خصوصا من يحتاج الى تأليفه وقد قال الله تعالى {وَأَمَّا السَّائِلُ فَلَا تَنْهَرْ} الضحى ١٠ وقال الله تعالى {وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا} الإسراء ٢٦ إلى قوله {وَأِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا}

^١ الصارم المسلول ج: ٢ ص: ٣٧٠-٣٧٨

{الإسراء ٢٨} وإذا حكم على شخص فانه قد يتأذى فاذا طيب نفسه بما يصلح من القول والعمل كان ذلك تمام السياسة وهو نظير ما يعطيه الطبيب للمريض من الطب الذي يسوغ الدواء الكريه وقد قال الله لموسى عليه السلام لما أرسله إلى فرعون {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} طه ٤٤ وقال النبي لمعاذ بن جبل وأبى موسى الأشعري رضى الله عنهما لما بعثهما إلى اليمن يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا وتطوعا ولا تختلفا وبال مرة أعرابى فى المسجد فقام أصحابه اليه فقال لا تزرموه أ لا تقطعوا عليه بوله ثم أمر بدلو من ماء فصب عليه وقال النبي إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين والحديثان فى الصحيحين وهذا يحتاج اليه الرجل فى سياسة نفسه وأهل بيته ورعيته فان النفوس لاتقبل الحق إلا بما تستعين به من حظوظها التى هى محتاجة اليها فتكون تلك الحظوظ عبادة لله وطاعة له مع النية الصالحة ألا ترى ان الأكل والشرب واللباس واجب على الانسان حتى لو اضطر الى الميتة وجب عليه الأكل عند عامة العلماء فان لم يأكل حتى مات دخل النار لأن العبادات لاتودى غلا بهذا ومالا يتم الواجب إلا به فهو واجب^١

أن الله هو الذي يقرب قلوب العباد

إن كل ما فى الوجود فهو مخلوق له خلقه بمشيئته وقدرته و ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن و هو الذي يعطى و يمنع و يخفض و يرفع و يعز و يذل و يغني و يفقر و يضل و يهدى و يسعد و يشقى و يولى الملك من يشاء و ينزعه ممن يشاء و يشرح صدر من يشاء للإسلام و يجعل صدر من يشاء ضيقا كأنما يصعد فى السماء و هو يقرب القلوب ما من قلب من قلوب العباد إلا و هو بين إصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أن يقيمه أقامه و إن شاء أن يزيغه أزاعه و هو الذي حبب إلى المؤمنين الإيمان و زينه فى قلوبهم و كره إليهم الكفر و الفسوق و العصيان أولئك هم الراشدون و هو الذي جعل المسلم مسلما و المصلي مصليا قال الخليل {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةً لَّكَ} البقرة ١٢٨ و قال {رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي} إبراهيم ٤٠ و قال تعالى {وَاجْعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يُهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا} السجدة ٢٤ و قال عن آل فرعون {وَاجْعَلْنَا هُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ} القصص ٤١ و قال تعالى {إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا} ١٩ {إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا} ٢٠ {وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا} ٢١ {المعارج ١٩-٢١} و قال {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا} هود ٣٧ و قال {وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ} هود ٣٨ و الفلك مصنوعة لبني آدم و قد أخبر الله تبارك و تعالى أنه خلقها بقوله {وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ} يس ٤٢ و قال {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَانًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ} النحل ٨٠ الآيات و هذه كلها مصنوعة لبني آدم و قال تعالى {أَتَعْبُدُونَ مَا تَدْعُونَ} ٩٥ {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} ٩٦ {الصفات ٩٥-٩٦} فما بمعنى الذي و من جعلها مصدرية فقد غلط لكن إذا خلق المنحوت كما خلق المصنوع و الملبوس و المبنى دل على أنه خالق كل صانع و صنعته و قال تعالى {مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا} الكهف ١٧ و قال {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا} الأنعام ١٢٥ و هو سبحانه خالق كل شيء و ربه و مليكه و له فيما خلقه حكمة بالغة و نعمة سابغة و رحمة عامة و خاصة و هو لا يسأل عما يفعل و هم يسألون لا لمجرد قدرته و قهره بل لكمال علمه و قدرته و رحمته و حكمته فإنه سبحانه و تعالى أحكم الحاكمين و أرحم الراحمين و هو أرحم بعباده من الوالدة بولدها و قد أحسن كل شيء خلقه و قال تعالى {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ} النمل ٨٨ و قد خلق الأشياء بأسباب كما قال تعالى {وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} البقرة ١٦٤ و قال {فَأَنْزَلْنَا بِهِ

^١مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٣٦٤-٣٦٧ و دقائق التفسير ج: ١ ص: ٢١٤

الْمَاءِ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ { الأعراف ٥٧ } وقال تعالى { يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ } المائدة ١٦^١

ففي القرآن من ذكر تفصيل أفعال العباد التي بقلوبهم وجوارحهم وأنه هو تبارك وتعالى يحدث من ذلك ما يطول وصفه كقوله تعالى { فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ } { الأعراف ٣٠ } وقوله تعالى { فَهَدَىٰ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } { البقرة ٢١٣ } وقوله { وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ } { الأيمان ٧ } وقوله { وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ } { الحجرات ٧ } ومعلوم أنه لم يرد بذلك الهداية المشتركة بين المؤمن والكافر مثل إرسال الرسل والتمكين من الفعل وإزاحة العلة بل أراد ما يختص به المؤمن كما دل عليه القرآن في مثل قوله تعالى { وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } { الأنعام ٨٧ } وقوله { وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ } { ١١٧ } { وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } { ١١٨ } { الصافات ١١٧ } - ١١٨ ومنه قولنا في الصلاة { ٥ } { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } { ٦ } { صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } { ٧ } الفاتحة ٦ - ٧ فإن الهداية المشتركة حاصلة لا تحتاج أن تسأل وإنما تسأل الهداية التي خص بها المهتدين ومن تأول ذلك بمعنى زيادة الهدى والتثبيت وقال كان ذلك جزءا كان متناقضا فإنه يقال هذا المطلوب إن لم يكن حاصلا باختيار العبد لم يثب عليه فإنه إنما يثاب على ما فعله باختياره وإن كان باختياره فقد ثبت أن الله يحدث الفعل الذي يختاره العبد وهذا مذهب أهل السنة وكذلك ما أخبر الله في القرآن من إضلال وهدى ونحو ذلك فإنهم قد يتأولون ذلك بأنه جزء على ما تقدم وعامة تأويلاتهم مما يعلم بالاضطرار أن الله ورسوله لم يرد بها بكلامه مع أن هذا الاجزاء مما يثاب الفاعل عليه وإن جوزوا أن الله يثيب العبد على ما ينعم به على العبد من فعله الاختياري جاز أن ينعم عليه ابتداء باختياره الطاعة وإن لم يجز عندهم الثواب والعقاب على ما يجعل العبد فاعلا له بطل أن يريد هدى أو ضلالة يثاب عليها أو يعاقب عليها وامتنع أن يكون ما أخبر أنه فعله من جعل الأغلال في أعناقهم وجعله من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا ونحو ذلك هو مما يعاقبون عليه وقد قال تعالى { إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ } { النحل ٣٧ } فأخبر أنه من أضله الله لا يهتدي وفي الجملة ففي القرآن من الآيات المبينة أن الله خالق أفعال العباد وأنه هو الذي يقرب قلوب العباد فيهدي من يشاء ويضل من يشاء وأنه هو المنعم بالهدى على من أنعم عليه ما يتعذر استقصاؤه في هذه المواضع وكذلك فيه ما يبين عموم خلقه لكل شيء كقوله { اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ } { الرعد ١٦ } وغير ذلك وفيه ما يبين أنه فعال لما يريد وفيه ما يبين أنه لو شاء لهدى الناس جميعا وأمثال ذلك مما يطول وصفه^٢

أن الله خص المؤمنين بنعمة دون الكافرين

أن أفعال العباد حادثة كائنة بعد ان لم تكن فحكمها حكم سائر الحوادث وهي ممكنة من الممكنات فحكمها حكم سائر الممكنات فما من دليل يستدل به على أن بعض الحوادث والممكنات مخلوقة لله إلا وهو يدل على أن أفعال العباد مخلوقة لله فإنه قد علم أن المحدث لا بد له من محدث وهذه المقدمة ضرورية عند جماهير العقلاء وكذلك الممكن لا بد له من مرجح تام فإذا كان فعل العبد حادثا بعد أن لم يكن فلا بد له من محدث وإذا قيل المحدث هو العبد فيكون العبد صار محدثا له بعد أن لم يكن هو أيضا أمر حادث فلا بد له من محدث إذ لو كان العبد لم يزل محدثا له لزم دوام ذلك الفعل الحادث وإذا كان إحداثه له حادثا فلا بد له من محدث وإذا قيل المحدث إرادة العبد قيل إرادته أيضا حادثة فلا بد لها من محدث وإن قيل حدثت بإرادة من العبد قيل تلك الإرادة أيضا لا بد لها من محدث فأى محدث فرضته في العبد إن كان حادثا فالقول فيه كالقول في الحادث الأول وإن جعلته قديما أزليا كان هذا ممتنعا لأن ما يقوم بالعبد لا يكون قديما أزليا وإن قلت هو وصف للعبد وهي قدرته المخلوقة فيه مثلا لم

^١ مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٧٨

^٢ منهاج السنة النبوية ج: ٣ ص: ٢٦٢-٢٦٤

ينفك هذا لوجوه أحدها أن يقال فإذا كانت هذه القدرة المخلوقة فيه موجودة قبل حدوث الفعل وحين حدوثه فلا بد من سبب آخر حادث ينضم إليها وإلا لزم ترجيح أحد المتئين على الآخر بلا مرجح وحدوث الحادث بلا سبب حادث وإلا فإذا كان حال العبد قبل أن يفعل وحاله حين الفعل سواء لا مزية لأحد الحالين على الآخر وكان تخصيص هذه الحال بكونه فاعلا فيها دون الأخرى ترجيحا لأحد المتماثلين بدون مرجح وهكذا إذا قيل فعله يمكن أن يكون وأن لا يكون والممكن لا يترجح وجوده على عدمه إلا بمرجح تام والمرجح إذا كان من العبد فالقول فيه كالقول في الفعل فلا بد أن يكون المرجح التام من الله تعالى وأن يستلزم وجوده وجود الفعل وإلا لم يكن تاما ولأجل هذا اتفق أهل السنة المثبتون للقدر على أن الله خص المؤمنين بنعمة دون الكافرين بأن هداهم للإيمان ولو كانت نعمته على المؤمنين مثل نعمته على الكافرين لم يكن المؤمن مؤمنا كما قال تعالى { **وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ** } **الإِيمَانُ وَرَيْبُهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ** { الحجرات ٧ } وقال تعالى { **يَمْتَنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْتَنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } { الحجرات ١٧ } وقال تعالى { **فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** } البقرة ٢١٣ وقال تعالى { **أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ** } { المجادلة ٢٢ } وقال تعالى { **فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ** } { الأنعام ١٢٥ }

و هو سبحانه قد شاء أن تكون العبادة ممن فعلها فجعلهم عابدين مسلمين بمشيئته و هداه لهم و تحببهم إليهم الإيمان كما قال تعالى { **وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَرَيْبُهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ** } { الحجرات ٧ } فهؤلاء أراد العبادة منهم خلقا و أمرا أمرهم بها و خلقا جعلهم فاعلين^٢

أن الذي يعمل الحسنات إذا عملها فنفس عمله الحسنات هو من إحسان الله و بفضلته عليه بالهداية و الايمان كما قال أهل الجنة { **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ** } { الأعراف ٤٣ } وفي الحديث الصحيح يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله و من وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه فنفس خلق الله لهم أحياء و جعله لهم السمع و الأبصار و الأفئدة هو من نعمته و نفس إرسال الرسول إليهم و تبليغه البلاغ المبين الذي اهتدوا به هو من نعمته و إلهامهم الايمان و هدايتهم إليه و تخصيصهم بمزيد نعمة حصل لهم بها الايمان دون الكافرين هو من نعمته كما قال تعالى { **وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَرَيْبُهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ** } {٧} **فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً** } {٨} { الحجرات ٧-٨ } فجميع ما يتقلب فيه العالم من خيري الدنيا و الآخرة هو نعمة محضة منه بلا سبب سابق يوجب لهم حقا و لا حول و لا قوة لهم من أنفسهم إلا به و هو خالق نفوسهم و خالق أعمالها الصالحة و خالق الجزاء^٣

وما قالته القدرية فهو بناء على أصلهم الفاسد وهو أن إقدار الله المؤمن والكافر والبر والفاجر سواء فلا يقولون إن الله خص المؤمن المطيع بإعانة حصل بها الإيمان بل يقولون إن إعانته للمطيع والعاصي سواء ولكن هذا بنفسه رجح الطاعة و هذا بنفسه رجح المعصية كالوالد الذي أعطى كل واحد من ابنيه سيفا فهذا جاهد به في سبيل الله و هذا قطع به الطريق أو أعطاهما مالا فهذا أنفق في سبيل الله و هذا أنفق في سبيل الشيطان و هذا القول فاسد باتفاق أهل السنة والجماعة المثبتين للقدر فإنهم متفقون على أن الله على عبده المطيع المؤمن نعمة دينية خصه بها دون الكافر وأنه أعانته على الطاعة إعانة لم يعن بها الكافر كما قال تعالى { **وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَرَيْبُهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ** } { الحجرات ٧ } فبين أنه حبيب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم فالقدرية تقول هذا التحبيب والترتيب عام في كل الخلق أو هو بمعنى البيان وإظهار دلائل الحق والآية تقتضي أن هذا خاص بالمؤمنين ولهذا قال { **أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ** } { الحجرات ٧ } والكفار ليسوا راشدين وقال

^١ منهاج السنة النبوية ج: ٣ ص: ١١٦-١١٩

^٢ مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٥٦

^٣ مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٢٦١

تعالى { فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ { الأنعام ١٢٥ } وقال { أَوْ مَنْ كَانَ مُمْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ { الأنعام ١٢٢ }

المعبود يجب أن يكون هو الله و حده

فالعبد كما أنه فقير الى الله دائماً في إعانته و إجابة دعوته و إعطاء سؤاله و قضاء حوائجة فهو فقير إليه في أن يعلم ما يصلحه و ما هو الذي يقصده و يريده و هذا هو الأمر و النهي و الشريعة و إلا فإذا قضيت حاجته التي طلبها و أَرادها ولم تكن مصلحة له كان ذلك ضرراً عليه و إن كان في الحال له فيه لذة و منفعة فالاعتبار بالمنفعة الخالصة أو الراجحة و هذا قد عرفه الله عباده برسله و كتبه علموهم و زكوههم و أمروهم بما ينفعهم و نهوهم عما يضرهم و بينوا لهم أن مطلوبهم و مقصودهم و معبودهم يجب أن يكون هو الله و حده لا شريك له كما أنه هو ربهم و خالقهم و أنهم إن تركوا عبادته أو أشركوا به غيره خسروا خسارنا مبينا و ضلوا ضلالاً بعيدا و كان ما أوتوه من قوة و معرفة و جاه و مال و غير ذلك و إن كانوا فيه فقراء الى الله مستعينين به عليه مقربين بربوبيته فإنه ضرر عليهم و لهم بنس المصير و سوء الدار و هذا هو الذي تعلق به الأمر الديني الشرعي و الإرادة الدينية الشرعية كما تعلق بالأول الأمر الكوني القدري و الإرادة الكونية القدرية و الله سبحانه قد أنعم على المؤمنين بالإعانة و الهداية فإنه بين لهم هداهم بإرسال الرسل و إنزال الكتب و أعانهم على اتباع ذلك علما و عملا كما من عليهم و على سائر الخلق بأن خلقهم و رزقهم و عافاهم و من على أكثر الخلق بأن عرفهم بربوبيته لهم و حاجتهم إليه و أعطاهم سؤالهم و أجاب دعاءهم قال تعالى { يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ { الرحمن ٢٩ } فكل أهل السموات و الأرض يسألونه فصارت الدرجات أربعة قوم لم يعبدوه و لم يستعينوه و قد خلقهم و رزقهم و عافاهم و قوم استعانوه فأعانهم و لم يعبدوه و قوم طلبوا عبادته و طاعته و لم يستعينوه و لم يتوكلوا عليه و الصنف الرابع الذين عبدوه و استعانوه فأعانهم على عبادته و طاعته و هؤلاء هم الذين آمنوا و عملوا الصالحات و قد بين سبحانه ما خص به المؤمنين في قوله { وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ } الإِيمَانَ وَرَبِّيْتَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ { الحجرات ٧ } والحمد لله رب العالمين و صلى الله على أفضل المرسلين محمد و آله و صحبه أجمعين^٢

الحسنات أمور وجودية

أن ما يحصل للإنسان من الحسنات التي يعملها كلها أمور وجودية أنعم الله بها عليه و حصلت بمشيئة الله و رحمته و حكمته و قدرته و خلقه ليس في الحسنات أمر عدمي غير مضاف إلى الله بل كلها أمر وجودي و كل موجود و حادث فالله هو الذي يحدثه و ذلك أن الحسنات إما فعل مأمور به أو ترك منهي عنه و التترك أمر وجودي فترك الإنسان لما نهى عنه و معرفته بأنه ذنب قبيح و بأنه سبب للعذاب و بغضه و كراهته له و منع نفسه منه إذا هويته و اشتهيته و طلبته كل هذه أمور وجودية كما أن معرفته بأن الحسنات كالعدل و الصدق حسنة و فعله لها أمور وجودية ولهذا إنما يثاب الإنسان على فعل الحسنات إذا فعلها محبا لها بنية و قصد فعلها ابتغاء وجه ربه و طاعة لله و لرسوله و يثاب على ترك السيئات إذا تركها بالكراهة لها و الامتناع منها قال تعالى { وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ } الإِيمَانَ وَرَبِّيْتَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ { الحجرات ٧ } وفي الصحيحين عن أنس عن

^١ منهاج السنة النبوية ج: ٣ ص: ٤٣ - ٤٤

^٢ مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٣٥ - ٣٦

النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ثلاث من كن فيه وجد حلوة الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار^١

الانسان هو فاعل السيئات

قال تعالى { مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا } النساء ٧٩ فهذه الآية بيان أن الإنسان هو فاعل السيئات وأنه يستحق عليها العقاب والله ينعم عليه بالحسنات عملها جزائها فإنه إذا كان ما أصابهم من حسنة فهو من الله فالنعم من الله سواء كانت ابتداء أو كانت جزاء وإذا كانت جزاء وهي من الله فالعمل الصالح الذي كان سببها هو أيضا من الله أنعم بهما الله على العبد وإلا فلو كان هو من نفسه كما كانت السيئات من نفسه لكان كل ذلك من نفسه والله تعالى قد فرق بين النوعين في الكتابة والسنة كما في الحديث الصحيح الإلهي عن الله يا عبادي إنما هي أعمالكم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه وقال تعالى للمؤمنين { وَاعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ } الحجرات ٧^٢

ففس خلق الله لهم أحياء وجعله لهم السمع والأبصار والأفئدة هو من نعمته ونفس إرسال الرسول إليهم وتبليغه البلاغ المبين الذي اهدوا به هو من نعمته وإلهامهم الإيمان وهدايتهم إليه وتخصيصهم بمزيد نعمة حصل لهم بها الإيمان دون الكافرين هو من نعمته كما قال تعالى { وَاعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ } الحجرات ٧ فجميع ما يتقلب فيه العالم من خيري الدنيا والآخرة هو نعمة محضة منه بلا سبب سابق يوجب لهم حقا ولا حول ولا قوة لهم من أنفسهم إلا به وهو خالق نفوسهم وخالق أعمالها الصالحة وخالق الجزاء^٣

و يجب أن يعلم العبد أن عمله من الحسنات هو بفضل الله ورحمته ومن نعمته كما قال أهل الجنة { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ } الأعراف ٤٣ وقال تعالى { وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ } الحجرات ٧ وقال تعالى { أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْفَاسِقِينَ لِقُلُوبِهِمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ } الزمر ٢٢ وقال { أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا } الأنعام ١٢٢ وقال تعالى { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا } الشورى ٥٢ وكذلك إضافة السيئات إلى نفسه هو الذي ينبغي أن يفعله مع علمه بأن الله خالق كل موجود من الأعيان والصفات والحركات والسكنات كما قال آدم { رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } الأعراف ٢٣ وقال موسى { رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي } القصص ١٦ وقال الخليل { وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ } الشعراء ٨٢^٤

^١ الحسنة والسيئة ج: ١ ص: ٥٣

^٢ مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٢٤٧ - ٢٤٨ والحسنة والسيئة ج: ١ ص: ٣٢

^٣ الحسنة والسيئة ج: ١ ص: ٤١

^٤ مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٤٤٢

السيئات تهواها النفوس ويزنها الشيطان

قال تعالى { **وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبَ الْإِيمَانِ وَرَبَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ** } {٧} **فَضلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** } {٨} { **الحجرات ٧-٨** } فان السيئات تهواها النفوس ويزنها الشيطان فتجتمع فيها الشبهات والشهوات فإذا كان المؤمن قد حبب الله اليه الايمان وزينه في قلبه وكره اليه الكفر والفسوق والعصيان حتى يعوض عن شهوات الغي بحب الله ورسوله وما يتبع ذلك وعن الشهوات والشبهات بالنور والهدى وأعطاه الله من القوة والقدرة ما أيده به حيث دفع بالعلم الجهل وبارادة الحسنات ارادة السيئات وبالقوة على الخير القوة على الشر في نفسه فقط والمجاهد في سبيل الله يطلب فعل ذلك في نفسه وغيره أيضا حتى يدفع جهله بالظلم وارادته السيئات بارادة الحسنات ونحو ذلك والجهاد تمام الايمان وسنام العمل كما قال تعالى { **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** } { **الحجرات ١٥** }^١

وجوب النهي عن المنكر وبغضه

اما قول السائل فيما ورد من الأخبار والآيات في الرضا بقضاء الله فإن كانت المعاصي بغير قضاء الله فهو محال وقدح في التوحيد وإن كانت بقضاء الله تعالى فكرهتها وبغضها كراهة وبغض لقضاء الله تعالى فيقال ليس في كتاب الله ولا في سنة رسول الله آية ولا حديث يأمر العباد أن يرضوا بكل مقضى مقدر من أفعال العباد حسننها وسيئها فهذا أصل يجب أن يعتنى به ولكن على الناس أن يرضوا بما أمر الله به فليس لأحد أن يسخط ما أمر الله به قال تعالى { **فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً** } { **النساء ٦٥** } وقال تعالى { **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرَّهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ** } { **محمد ٢٨** } وقال { **وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ** } { **التوبة ٥٩** } وذكر الرسول هنا يبين أن الإيتاء هو الإيتاء الديني الشرعي لا الكوني القدرى وقال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا وبالاسلام ديناً وبمحمد نبياً وينبغي للإنسان أن يرضى مما يقدره الله عليه من المصائب التي ليست ذنوباً مثل أن يبتليه بفقر أو مرض أو ذل و أذى الخلق له فإن الصبر على المصائب واجب وأما الرضا بها فهو مشروع لكن هل هو واجب أو مستحب على قولين لأصحاب أحمد وغيرهم أصحهما أنه مستحب ليس بواجب ومن المعلوم أن أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله وقد أمرنا الله أن نأمر بالمعروف ونحبه ونرضاه ونحب أهله ونهى عن المنكر وبغضه ونسخطه وبغض أهله ونجاهدهم بأيدينا وألسنتنا وقلوبنا فكيف نتوهم أنه ليس في المخلوقات ما نبغضه ونكرهه وقد قال تعالى لما ذكر ما ذكر من المنهيات { **كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً** } { **الإسراء ٣٨** } فإذا كان الله يكرهها وهو المقدر لها فكيف لا يكرهها من أمر الله أن يكرهها ويبغضها وهو القائل { **وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ** } { **الحجرات ٧** } وقال تعالى { **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرَّهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ** } { **محمد ٢٨** } وقد قال تعالى { **فَلَمَّا أَسْفَوْنا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ** } { **الزخرف ٥٥** } وقال تعالى { **وَعَصِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ وَعَنْهُمْ** } { **الفتح ٦** } وقال تعالى { **يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ** } { **النساء ١٠٨** } فأخبر أن من القول الواقع مالا يرضاه وقال تعالى { **وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ** } { **النور ٥٥** } وقال تعالى { **وَرَضِيَتْ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِيناً** } { **المائدة ٣** } وقال { **وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ** } { **الزمر ٧** } فبين أنه يرضى الدين الذي أمر به فلو كان يرضى كل شيء لما كان له خصيصة وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا أحد أغير من الله أن يرضى عبده أو تزنى أمته وقال إن الله يغار و

المؤمن يغار و غيره الله أن يأتي العبد ما حرم عليه و لا بد في الغيرة من كراهة ما يغار منه و بغضه و هذا باب واسع^١

مجوس هذه الأمة

مادل عليه الكتاب و السنة و كان عليه السابقون الأولون من المهاجرين و الأنصار و الذين إتبعوهم بإحسان و هو أن الله خالق كل شيء و ربه و مليكه و قد دخل في ذلك جميع الأعيان القائمة بأنفسها و صفاتها القائمة بها من أفعال العباد و غير أفعال العباد و أنه سبحانه ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن فلا يكون في الوجود شيء إلا بمشيئته و قدرته لا يمتنع عليه شيء شاءه بل هو قادر على كل شيء و لا يشاء شيئاً إلا و هو قادر عليه و أنه سبحانه يعلم ما كان و ما يكون و ما لم يكن لو كان كيف يكون و قد دخل في ذلك أفعال العباد و غيرها و قد قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم قدر آجالهم و أرزاقهم و أعمالهم و كتب ذلك و كتب ما يصيرون إليه من سعادة و شقاوة فهم يؤمنون بخلقه لكل شيء و قدرته على كل شيء و مشيئته لكل ما كان و علمه بالأشياء قبل أن تكون و تقديره لها و كتابته إياها قبل أن تكون و غلاة القدرية يفكرون علمه المتقدم و كتابته السابقة و يزعمون أنه أمر و نهى و هو لا يعلم من يطيعه ممن يعصيه بل الأمر أنف أي مستأنف و هذا القول أول ما حدث في الإسلام بعد إنقراض عصر الخلفاء الراشدين و بعد إمارة معاوية بن أبي سفيان في زمن الفتنة التي كانت بين ابن الزبير و بين بنى أمية في أواخر عصر عبد الله بن عمر و عبد الله بن عباس و غيرهما من الصحابة و كان أول من ظهر عنه ذلك بالبصرة معبد الجهني فلما بلغ الصحابة قول هؤلاء تبرءوا منهم و أنكروا مقاتلهم كما قال عبد الله بن عمر لما أخبر عنهم إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم و أنهم برءاء مني و كذلك كلام ابن عباس و جابر بن عبد الله و آثله بن الأسقع و غيرهم من الصحابة و التابعين لهم بإحسان و سائر أئمة المسلمين فيهم كثير حتى قال فيهم الأئمة كمالك و الشافعي و أحمد بن حنبل و غيرهم أن المنكرين لعلم الله المتقدم يكفرون ثم كثر خوض الناس في القدر فصار جمهورهم يقر بالعلم المتقدم و الكتاب السابق لكن ينكرون عموم مشيئة الله و عموم خلقه و قدرته يظنون أنه لا معنى لمشيئته إلا أمره فما شاءه فقد أمر به و ما لم يشأه لم يأمر به فلزمهم أن يقولوا أنه قد يشاء ما لا يكون يكون ما لا يشاء و أنكروا أن يكون الله تعالى خالقا لأفعال العباد أو قادرا عليها أو أن يخص بعض عبادة من النعم بما يقتضي إيمانهم به و طاعتهم له و زعموا أن نعمته التي يمكن بها الإيمان و العمل الصالح على الكفار كأبي لهب و أبي جهل مثل نعمته بذلك على أبي بكر و عمر و عثمان و علي بمنزلة رجل دفع لأولاده مالا فقسمه بينهم بالسوية لكن هؤلاء أعمالهم الصالحة و هؤلاء أحدثوا أعمالهم الفاسدة من غير نعمة خص الله بها المؤمنين و هذا قول باطل و قد قال تعالى {يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} {الحجرات ١٧} و قال تعالى {وَأَعْلَمُوا أَنْ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ} {الحجرات ٧} وقد أمرنا الله أن نقول في صلاتنا {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} {٦} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} {٧} الفاتحة ٦-٧ و قال أهل الجنة { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ } الأعراف ٤٣ و قال الخليل صلوات الله و سلامه عليه { رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ } البقرة ١٢٨ و قال { رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ } إبراهيم ٤٠ و قال تعالى { وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا } السجدة ٢٤ و قال { وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ } القصص ٤١ و نصوص الكتاب و السنة و سلف الأمة المبينة لهذه الأصول كثيرة مع ما في ذلك من الدلائل العقلية الكثيرة على ذلك و سلف الأمة و أئمتها متفقون أيضا على أن العباد مأمورون بما أمرهم الله به منهيون عما نهاهم الله عنه و متفقون على الإيمان بوعده و وعيده الذي نطق به الكتاب و السنة و متفقون أنه لا حجة لأحد على الله في و اجب تركه و لا محرم فعله بل الله الحجة البالغة على عباده و من إحتج بالقدر على ترك مأمور أو فعل محظور أو دفع ما جاءت به النصوص في الوعد و الوعيد فهو أعظم ضلالا و إفتراء على الله و

مخالفة لدين الله من أولئك القدرية فإن أولئك مشبهون بالمجوس و قد جاءت الآثار فيهم أنهم مجوس هذه الأمة كما روى ذلك عن ابن عمر و غيره من السلف و قد رويت في ذلك أحاديث مرفوعة الى النبي صلى الله عليه و سلم منها ما رواه أبو داود و الترمذي و لكن طائفة من أئمة الحديث طعنوا في صحة الأحاديث المرفوعة في ذلك و هذا مبسوط في موضعه و المقصود هنا أن القدرية النافية يشبهون المجوس في كونهم أنبتوا غير الله يحدث أشياء من الشر بدون مشيئته و قدرته و خلقه و أما المحتجون على القدر بإسقاط الأمر و النهي و الوعد و الوعيد فهؤلاء يشبهون المشركين الذين قال الله فيهم { سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى دَافُوا بِأَسْنَانِهِمْ هَلْ عَنْكُمْ حِمْزٌ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ } الأنعام ١٤٨ و قال تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } النحل ٣٥

اسم الايمان اذا اطلق

فهذا حكم اسم الايمان اذا اطلق في كلام الله ورسوله فانه يتناول فعل الواجبات و ترك المحرمات و من نفى الله ورسوله عنه الايمان فلا بد ان يكون قد ترك واجبا أو فعل محرما فلا يدخل في الاسم الذى يستحق أهله الوعد دون الوعيد بل يكون من أهل الوعيد و كذلك قوله تعالى { وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ } الحجرات ٧ قال محمد بن نصر المروزي لما كانت المعاصي بعضها كفر و بعضها ليس بكفر فرق بينها فجعلها ثلاثة أنواع نوع منها كفر و نوع منها فسوق و ليس بكفر و نوع عصيان و ليس بكفر و لا فسوق و أخبر أنه كرهها كلها الى المؤمنين و لما كانت الطاعات كلها داخلة في الايمان و ليس فيها شيء خارج عنه لم يفرق بينها فيقول حبيب اليكم الايمان و الفرائض و سائر الطاعات بل أجمل ذلك فقال { حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ } الحجرات ٧ فدخل في ذلك جميع الطاعات لأنه قد حبيب الى المؤمنين الصلاة و الزكاة و سائر الطاعات حب تدين لأن الله أخبر أنه حبيب ذلك اليهم و زينه في قلوبهم لقوله { حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ } الحجرات ٧ و يكرهون جميع المعاصي الكفر منها و الفسوق و سائر المعاصي كراهة تدين لأن الله أخبر أنه كره ذلك اليهم و من ذلك قول رسول الله من سرته حسنته و ساءته سيئته فهو مؤمن لأن الله حبيب الى المؤمنين الحسنات و كره اليهم السيئات قلت و تكريهه جميع المعاصي اليهم يستلزم حب جميع الطاعات لأن ترك الطاعات معصية و لأنه لا يترك المعاصي كلها ان لم يتلبس بصددها فيكون محبا لضدها و هو الطاعة اذ القلب لا بد له من ارادة فاذا كان يكره الشر كله فلا بد أن يريد الخير و المباح بالنية الحسنة يكون خيرا و بالنية السيئة يكون شرا و لا يكون فعل اختيارى الا بارادة و لهذا قال النبي في الحديث الصحيح أحب الأسماء الى الله عبد الله و عبد الرحمن و أصدق الأسماء حارث و همام و أقبحها حرب و مرة و قوله أصدق الأسماء حارث و همام لأن كل انسان همام حارث و الحارث الكاسب العامل و الهمام الكثير الهم و هو مبدأ الارادة و هو حيوان و كل حيوان حساس متحرك بالارادة فاذا فعل شيئا من المباحات فلا بد له من غاية ينتهي اليها قصده و كل مقصود اما ان يقصد لنفسه و اما أن يقصد لغيره فان كان منتهى مقصوده و مراده عبادة الله و حده لا شريك له و هو إلهه الذى يعبد لا يعبد شيئا سواه و هو احب اليه من كل ما سواه فان ارادته تنتهى الى ارادته وجه الله فيثاب على مباحاته التى يقصد الاستعانة بها على الطاعة كما فى الصحيحين عن النبي انه قال نفقة الرجل على اهله يحتسبها صدقة و فى الصحيحين عنه انه قال لسعد بن ابى وقاص لما مرض بمكة و عاده انك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله الا زددت بها درجة و رفعة حتى اللقمة ترفعها الى فى امرأتك و قال معاذ بن جبل لأبى موسى انى احتسب نومتى كما احتسب قومتى و فى الاثر نوم العالم تسبيح و إن كان أصل مقصوده عبادة غير الله لم تكن الطيبات مباحة له فان الله أباحها للمؤمنين من عباده بل الكفار و اهل الجرائم و الذنوب و اهل الشهوات يحاسبون يوم القيامة

على النعم التي تنعموا بها فلم يذكره ولم يعبدوه بها ويقال لهم { أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ } {الأحقاف} ٢٠ وقال تعالى { تَمَّ لِنَسَائِلِ يَوْمِئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ } {التكاثر} ٨ أى عن شكره والكافر لم يشكر على النعيم الذي انعم الله عليه به فيعاقبه على ذلك والله انما اباحها للمؤمنين وامرهم معها بالشكر

قال تعالى { لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ } البقرة ٢٨٦ فما يعمل أحد الا عليه أو له فان كان مما أمر به كان له والا كان عليه ولو أنه ينقص قدره والنفس طبعها الحركة لا تسكن قط لكن قد عفا الله عما حدث به المؤمنون أنفسهم ما لم يتكلموا به أو يعملوا به فاذا عملوا به دخل في الأمر والنهي فاذا كان الله قد كره الى المؤمنين جميع المعاصي وهو قد حيب اليهم الايمان الذي يقتضى جميع الطاعات اذا لم يعارضه ضد باتفاق الناس فان المرجئة لا تنازع في أن الايمان الذي في القلب يدعو الى فعل الطاعة ويقتضى ذلك والطاعة من ثمراته ونتائجه لكنها تنازع هل يستلزم الطاعة فانه وان كان يدعو الى الطاعة فله معارض من النفس والشيطان فاذا كان قد كره الى المؤمنين المعارض كان المقتضى للطاعة سالما عن هذا المعارض وأيضا فاذا كرهوا جميع السيئات لم يبق الا حسنات أو مباحات والمباحات لم تبح الا لأهل الايمان الذين يستعينون بها على الطاعات والا فالله لم يبح قط لأحد شيئا أن يستعين به على كفر ولا فسوق ولا عصيان ولهذا لعن النبي عاصر الخمر ومعتصرها كما لعن شاربها والعاصر يعصر عنبا يصير عصيرا يمكن أن ينتفع به في المباح لكن لما علم أن قصد العاصر أن يجعلها خمرا لم يكن له أن يعينه بما جنسه مباح على معصية الله بل لعنه النبي على ذلك لأن الله لم يبح اعانة العاصي على معصيته ولا أباح له ما يستعين به في المعصية فلا تكون مباحات لهم الا اذا استعانوا بها على الطاعات فيلزم من انتفاء السيئات أنهم لا يفعلون الا الحسنات ولهذا كان من ترك المعاصي كلها فلا بد أن يشتغل بطاعة الله وفي الحديث الصحيح كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها فالؤمن لا بد أن يحب الحسنات ولا بد أن يبغض السيئات ولا بد أن يسره فعل الحسنة ويسوءه فعل السيئة ومتى قدر أن في بعض الأمور ليس كذلك كان ناقص الايمان والمؤمن قد تصدر منه السيئة فيتوب منها أو يأتي بحسنات تمحوها أو يبتلى ببلاء يكفرها عنه ولكن لا بد أن يكون كارها لها فان الله أخبر أنه حيب الى المؤمنين الايمان وكره اليهم الكفر والفسوق والعصيان فمن لم يكره الثلاثة لم يكن منهم ولكن محمد بن نصر يقول الفاسق يكرهها تدبينا فيقال ان أريد بذلك أنه يعتقد أن دينه حرمها وهو يحب دينه وهذه من جملته فهو يكرهها وان كان يحب دينه مجملا وليس في قلبه كراهة لها كان قد عدم من الايمان بقدر ذلك كما في الحديث الصحيح من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان وفي الحديث الآخر الذي في الصحيح أيضا صحيح مسلم فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الايمان مثقال حبة من خردل فعلم أن القلب اذا لم يكن فيه كراهة ما يكرهه الله لم يكن فيه من الايمان الذي يستحق به الثواب وقوله من الايمان أى من هذا الايمان وهو الايمان المطلق أى ليس وراء هذه الثلاث ما هو من الايمان ولا قدر حبة خردل والمعنى هذا آخر حدود الايمان ما بقى بعد هذا من الايمان شيء ليس مراده أنه من لم يفعل ذلك لم يبق معه من الايمان شيء بل لفظ الحديث انما يدل على المعنى الأول وكذلك لفظ المعصية وفسوق الكفر فاذا أطلقت المعصية لله ورسوله دخل فيها الكفر والفسوق كقوله { وَتِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الَّتِي كُنَّا نُزِّلُ بِهَا عَلَيْكَ لَعَلَّ لَكَ تَحْفَافٌ } {البقرة} ١٢٩ وقال تعالى { لَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ هَدَيْنَا لَنَا سَبِيلَ آلِ كَارِثٍ إِذْ حَدَّثُوا أَنَّ رَسُولَهُ لِيَكْفِرُوا بِهِ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ } {الأنعام} ١٠٥ فإطلاق معصيتهم للرسول بأنهم عصوا هودا معصية تكذيب جنس الرسل فكانت المعصية لجنس الرسل كمعصية من قال { فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ } {الملك} ٩ ومعصية من كذب وتولى قال تعالى { لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى } {١٥} { الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى } {١٦} { اللَّيْلِ } ١٥-١٦ أى كذب بالخبر وتولى عن طاعة الأمر وانما على الخلق أن يصدقوا الرسل فيما أخبروا ويطيعوهم فيما أمروا وكذلك قال في فرعون { فَكَذَّبَ وَعَصَى } {النازعات} ٢١ وقال عن جنس الكافر { فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى } {٣١} { وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى } {٣٢} {القيامة} ٣١-٣٢ فالتكذيب للخبر والتولى عن الأمر وانما الايمان تصديق الرسل فيما أخبروا وطاعتهم فيما أمروا ومنه قوله { إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا } {١٥}

فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً { ١٦ } { المزمّل ١٦ } ولفظ التولى بمعنى التولى عن الطاعة مذكور في مواضع من القرآن كقوله { سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلٍ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا } { الفتح ١٦ } وذمه في غير موضع من القرآن من تولى دليل على وجوب طاعة الله ورسوله وان الأمر المطلق يقتضى وجوب الطاعة ودم المتولى عن الطاعة كما علق الذم بمطلق المعصية فى مثل قوله { فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ { ١٦ } { المزمّل ١٦ } وقد قيل ان التأييد لم يذكر فى القرآن الا فى وعيد الكفار ولهذا قال { وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا } { النساء ٩٣ } وقال فيمن يجوز فى المواريث { وَمَنْ يَعُصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ } { النساء ١٤ } فهنا قيد المعصية بتعدى حدوده فلم يذكرها مطلقه وقال تعالى { وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى } { طه ١٢١ } فهى معصية خاصة وقال تعالى { وَعَصَيْتُمْ مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ } { آل عمران ١٥٢ } فأخبر عن معصية واقعة معينة وهى معصية الرماة للنبي حيث أمرهم بلزوم ثغرهم وان رأوا المسلمين قد انتصروا فعصى من عصى منهم هذا الأمر وجعل أميرهم يأمرهم لما رأوا الكفار منهزمين وأقبل من أقبل منهم على المغانم وكذلك قوله { وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ } { الحجرات ٧ } جعل ذلك ثلاث مراتب وقد قال { وَلَا يَعْصِيكَ فِي مَعْرُوفٍ } { الممتحنة ١٢ } فقيد المعصية ولهذا فسرت بالنيابة قاله ابن عباس وروى ذلك مرفوعا وكذلك قال زيد بن أسلم لا يدعن ويلا ولا يخذشن^١

الله سبحانه هو الذى خلق العبد وجعله مسلما طائعا

فالإنسان وكل مخلوق فقير الى الله بالذات وفقره من لوازم ذاته يمتنع أن يكون إلا فقيرا إلى خالقه وليس أحد غنيا بنفسه إلا الله وحده فهو الصمد الغنى عما سواه وكلما سواه فقير اليه فالعبد فقير الى الله من جهة ربوبيته ومن جهة الهيته كما قد بسط هذا فى مواضع والإنسان يذنب دائما فهو فقير مذنب وربّه تعالى يرحمه ويغفر له وهو الغفور الرحيم فلولا رحمته وإحسانه لما وجد خير أصلا لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ولولا مغفرته لما وقى العبد شر ذنوبه وهو محتاج دائما الى حصول النعمة ودفع الضر والنشر ولا تحصل النعمة إلا برحمته ولا يندفع الشر إلا بمغفرته فإنه لا سبب للشر إلا ذنوب العباد كما قال تعالى { مَا أَصَابَكُم مِّن حَسَنَةٍ فَمِن لَّدُنَّ وَمَا أَصَابَكُم مِّن سَيِّئَةٍ فَمَا بِذَنبِكُمْ فَمَا لَآتِيَكُمُ الْبَرَكَاتُ إِلَّا بِغَضَبٍ مِّنَّا وَإِن نَّصِفَكُم لَأَصْلَبْنَاكُمْ وَإِن لَّا فَتَنَّاكُمْ وَلِالْآخِرَةِ وَأَلْبَسْنَاكُمْ لَهُ خِزْيَانًا وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ } { الأعراف ١٦٨ } فالنعم والرحمة والخير كله من الله فضلا وجودا من غير أن يكون لأحد من جهة نفسه عليه حق وإن كان تعالى عليه حق لعباده فذلك الحق هو أحقه على نفسه وليس ذلك من جهة المخلوق بل من جهة الله كما قد بسط هذا فى مواضع والمصائب بسبب ذنوب العباد وكسبهم كما قال { وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ } { الشورى ٣٠ } والنعم وإن كانت بسبب طاعات يفعلها العبد فيثيبه عليها فهو سبحانه المنعم بالعبد وبطاعته وثوابه عليها فإنه سبحانه هو الذى خلق العبد وجعله مسلما طائعا كما قال الخليل { الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ } { الشعراء ٧٨ } وقال { وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ } { البقرة ١٢٨ } وقال { رَبِّ اجْعَلْنِي مَقِيمَ الصَّلَاةِ } { إبراهيم ٤٠ } وقال { وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ } { السجدة ٢٤ } فسأل ربه أن يجعله مسلما وأن يجعله مقيم الصلاة وقال { وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ } { الحجرات ٧ } الآية قال فى آخرها { فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً } { الحجرات ٨ } وفى سنن أبى داود صحيح ابن حبان إهدنا سبيل السلام ونجنا من الظلمات الى النور واجعلنا شاكرين لنعمتك مثنين بها عليك قابليها وأتممها علينا وفى الفاتحة { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } { الفاتحة ٦ } وفى الدعاء الذى رواه الطبرانى عن ابن عباس قال مما دعا به رسول الله عشية عرفة اللهم إنك تسمع كلامى وترى مكانى وتعلم سرى وعلانيتى ولا يخفى عليك شىء من أمرى أنا البائس الفقير المستغيث المستجير الوجل المشفق المقر بذنبيه أسألك مسألة المسكين وأبتهل اليك إبتهال المذنب الذليل وأدعوك دعاء الخائف

^١ مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٥٠-٥٢

الضرير من خضعت لك رقبتك وذل لك جسده ورغم لك أنفه اللهم لا تجعلني بدعائك رب شقيا وكن بي رؤوفا رحيم يا خير المسئولين ويا خير المعطين^١

أعظم عون لولي الأمر ثلاثة أمور

قال تعالى { وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ } {٧} فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } {٨} الحجرات ٧-٨. وأعظم عون لولي الأمر خاصة ولغيره عامة ثلاثة أمور أحدها الإخلاص لله والتوكل عليه بالدعاء وغيره وأصل ذلك المحافظة على الصلوات بالقلب والبدن الثاني الإحسان إلى الخلق بالنفع والمال الذي هو الزكاة الثالث الصبر على أذى الخلق وغيره من النوائب وفي السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم إن أثقل ما يوضع في الميزان الخلق الحسن وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لأم سلمة يا أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة وفي الصبر احتمال الأذى وكظم الغيظ والعفو عن الناس ومخالفة الهوى وترك الأشر والبطر وقال الحسن البصري رحمة الله عليه إذا كان يوم القيامة نادى مناد من بطنان العرش ألا ليقيم من وجب أجره على الله فلا يقوم إلا من عفا وأصلح فليس حسن النية بالرعية والإحسان إليهم أن يفعل ما يهونه ويترك ما يكرهونه وقال تعالى للصحابة واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم وإنما الإحسان إليهم فعل ما ينفعهم في الدين والدنيا ولو كرهه من كرهه لكن ينبغي له أن يرفق بهم فيما يكرهونه ففي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما كان الرفق في شيء إلا زانه ولا كان العنف في شيء إلا شانه وقال صلى الله عليه وسلم إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول والله لأريدين أن أخرج لهم المرة من الحق فأخاف أن ينفروا عنها فأصبر حتى تجيء الحلوة من الدنيا فأخرجها معها فإذا نفروا لهذه سكنوا لهذه وهكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أتاه طالب حاجة لم يرد إلا بها أو بميسور من القول^٢

فرق بين التزيين المتصل بالقلب وتزيين الشيء المنفصل عنه

قال تعالى { وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ } {٧} فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } {٨} الحجرات ٧-٨. فهو سبحانه يزين لكل عامل عمله فيراه حسنا وإن كان ذلك العمل سيئا فإنه لولا حسنا لم يفعله إذ لو رآه سيئا لم يردده ولم يختره إذ الإنسان مجبول على محبة الحسن وبغض السيئ فالحسن الجميل محبوب مراد والسيئ القبيح مكروه مبغض والأعيان والأفعال المبغضة من كل وجه لا تقصد بحال كما ان المحبوبة من كل وجه لا تترك بحال ولكن قد يكون الشيء محبوبا من وجه مكروها من وجه ويقبح من وجه ويحسن من وجه ولهذا كان الزاني لا يزني حين يزني وهو مؤمن والسارق لا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن كامل الإيمان فإنه لو كان اعتقاده بقبح ذلك الفعل اعتقادا تاما لم يفعله بحال ولهذا كان كل عاص لله تعالى جاهلا كما قال ذلك أصحاب محمد ص فإنه لو كان عالما حق العلم بما فعله لم يفعل القبيح ولم يترك الواجب بل قد زين لكل أمة عملهم لكن العاصي إذا كان معه أصل الإيمان فإنه لا يزين له عمله من كل وجه بل يستحسنه من وجه ويبغضه من وجه ولكن حين فعله يغلب تزيين الفعل ولذلك قال زين للناس حب الشهوات سورة آل عمران ١٤ الآية فإن هنا شيئين حب الشهوات وأنه زين ذلك الفحش وحسن فرأوا تلك المحبة حسنة

^١ مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٤٣

^٢ السياسة الشرعية ج: ١ ص: ١١٣-١١٤

فلذلك استقرت هذه المحبة عندهم وتمتعوا بهذه المحبات فإذا رأوا ذلك الحب قبيحا لما يتبعه من الضرر لم يستقر ذلك في قلوبهم فإن رؤية ذلك الحب حسنا يدعو إليه قبيحا يفر عنه وكذلك ذكر في الإيمان أنه حبيبه إلى المؤمنين وزينه في قلوبهم حتى رأوه حسنا فإن الشيء إذا حبب وزين لم يترك بحال وهنا أخبر سبحانه أنه هو الذي حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وفي الشهوات قال زين للناس حب الشهوات سورة آل عمران ١٤ ولم يقل المزين بل ذكر العموم وقال تعالى أَمَّنْ زَيْنٌ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَأَهُ حَسَنًا سورة فاطر ٨ وكما حذف المزين هناك قال زين للناس حب الشهوات سورة آل عمران ١٤ فجعل المزين نفس الحب لها لم يجعل المزين هو المحبوب كما أخبر أنه زين لكل أمة عملها فإن المزين نفس الحب لها لم يجعل المزين هو المحبوب بل هو حب الشهوات فإن المزين إذا كان نفس الحب والعمل لم ينصرف القلب عن ذلك بخلاف ما لو كان المزين هو المحبوب فقد زين الشيء المحبوب ولكن الإنسان لا يحبه لما يقوم بقلبه من العلم بحاله والبغض ففرق بين التزيين المتصل بالقلب وتزيين الشيء المنفصل عنه فيه رد على القدرية الذين يجعلون التزيين المنفصل وكذلك قوله زين له سوء عمله فرأه حسنا سورة فاطر ٨ وهو سبحانه امتن في الإيمان بشيئين بأنه حبيبه إلينا وزينه في قلوبنا فالنعم تتم بهما بالعلم والمحبة^١

ما أوجب الله فيه العلم واليقين وجب فيه ما أوجبه الله

قال تعالى { **وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ** } {٧} **فَضَلَّ مَنِ اتَّبَعَ وَرَحِمَهُ اللَّهُ وَعَلِيمٌ حَكِيمٌ** } {٨} **الْحَجَرَاتِ ٧-٨** فما أوجب الله فيه العلم واليقين وجب فيه ما أوجبه الله من ذلك كقوله { **اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** } المائدة ٩٨ وقول { **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ** } محمد ١٩ ولذلك يجب الإيمان بما أوجب الله الإيمان به^٢

إن الله سبحانه هو المان بالعمل

أن النفوس الجاهلية تتخيل أن الإنسان بعبادته وعلمه يصير له على الله حق من جنس ما يصير للمخلوق على المخلوق كالذين يخدمون ملوكهم وملاكهم فيجلبون لهم منفعة ويدفعون عنهم مضرة ويبقى أحدهم يتقاضى العوض والمجازاة على ذلك ويقول له عند جفاء أو إعراض يراه منه ألم أفعل كذا يمن عليه بما يفعله معه وإن لم يقله بلسانه كان ذلك في نفسه وتخييل مثل هذا في حق الله تعالى من جهل الإنسان وظلمه ولهذا بين سبحانه أن عمل الإنسان يعود نفعه عليه وأن الله غني عن الخلق كما قال تعالى { **وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتِطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ** } آل عمران ٩٧ وقد بين سبحانه إنه المان بالعمل فقال تعالى { **وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ** } **الْحَجَرَاتِ ٧** وفي الحديث الصحيح الإلهي يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا ولا أبالى فاستغفروني أغفر لكم يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد

^١ الاستقامة ج: ١ ص: ٣٦٧-٣٦٩

^٢ الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٤٥٦

ذلك في ملكي شيئاً يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان منهم مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر^١

لطائف لغوية

١- قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِيبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ } الحجرات ٦ الجهل الذي هو عدم العلم^٢

٢- قال تعالى { وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ } {٧} فَضلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } {٨} الحجرات ٧-٨ حصل الانتقال من الخطاب إلى الغيبة من باب خطاب التلوين والالتفات^٣

٣- قال تعالى { وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ } {٧} فَضلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } {٨} الحجرات ٧-٨ (ناقص ن م) وجها ولا ينشرون شعرا ولا يشققن ثوبا وقد قال بعضهم هو جميع ما يأمرهم

به الرسول من شرائع الاسلام وأدلته كما قاله أبو سليمان الدمشقي ولفظ الآية عام أنهن لا يعصينه في معروف ومعصيته لا تكون الا في معروف فانه لا يأمر بمنكر لكن هذا كما قيل فيه دلالة على أن طاعة أولى الأمر انما تلزم في المعروف كما ثبت في الصحيح عن النبي أنه قال انما الطاعة في المعروف ونظير هذا قوله { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ } {الأنفال ٢٤} وهو لا يدعو الا الى ذلك والتقيد هنا لا مفهوم له فانه لا يقع دعاء لغير ذلك ولا أمر بغيره معروف وهذا كقوله تعالى { وَلَا تُكْرِهُوا فَتِياتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا } {النور ٣٣} فانهن اذا لم يردن تحصنا امتنع الاكراه ولكن في هذا بيان الوصف المناسب للحكم ومنه قوله تعالى { وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ } {المؤمنون ١١٧} وقوله { وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ } {البقرة ٦١} فالتقيد في جميع هذا للبيان والايضاح لا لإخراج في وصف آخر ولهذا يقول من يقول من النحاة الصفات في المعارف للتوضيح لا للتخصيص وفي النكرات للتخصيص يعنى في المعارف التي لا تحتاج الى تخصيص كقوله { سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى } {١} {الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى } {٢} {الاعلى ١-٢} وقوله { الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ } {الأعراف ١٥٧} وقوله { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } {٢} {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } {٣} {الفاحة ٢-٣} والصفات في النكرات اذا تميزت تكون للتوضيح أيضا ومع هذا فقد عطف المعصية على الكفر والفسوق في قوله { وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ } {الحجرات ٧} ومعلوم أن الفاسق عاص أيضا^٤

٤- قال تعالى { وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ } {٧} فَضلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } {٨} الحجرات ٧-٨ المضاف الى الله سبحانه في الكتاب والسنة كان منه اضافة المخلوقات كقوله { نَاقَةَ اللَّهِ } {هود ٦٤} وقوله { أَنْ طَهَّرْنَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ } {البقرة ١٢٥} وقوله { رَسُولَ اللَّهِ } {الحجرات ٧} و { عِبَادَ اللَّهِ }

^١ مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٢١٥

^٢ اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٧٨

^٣ اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٢٢

^٤ مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٦١

{الصافات ٤٠ وقوله {ذُو الْعَرْشِ} غافر ١٥ وقوله {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} البقرة ٢٥٥
فهذا القسم لا خلاف بين المسلمين في انه مخلوق^١

٥- قال تعالى {وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ
فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ} {٧} فَضَلَّأَ مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ} {٨} الحجرات ٧-٨ عليم منزه عن الجهل حكيم منزه عن السفه^٢

^١مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ١٤٤

^٢الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧

الحجرات ٩-١٠

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ {٩} إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ {١٠}

الشريعة مبناها على دفع الفسادين بالتزام أدناهما

نهى النبي ص عن القتال في الفتنة وكان ذلك من أصول السنة وهذا مذهب أهل السنة والحديث وأئمة أهل المدينة من فقهاءهم وغيرهم ومن الفقهاء من ذهب إلى أن ذلك يكون مع وجود العلم التام من أحدهما والبغى من الآخر فيجب القتال مع العادل حينئذ ومن أصول هذا الموضع أن مجرد وجود البغى من إمام أو طائفة لا يوجب قتالهم بل لا يبيحه بل من الأصول التي دلت عليها النصوص أن الإمام الجائر الظالم يؤمر الناس بالصبر على جوره وظلمه وبغيه ولا يقاتلونه كما أمر النبي ص بذلك في غير حديث فلم يأذن في دفع البغى مطلقا بالقتال بل إذا كانت فيه فتنة نهى عن دفع البغى به وأمر بالصبر وأما قوله سبحانه **فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى** **سورة الحجرات ٩** فهو سبحانه قد بين مراده ولكن من الناس من يضع الآية على غير موضعها فإنه سبحانه قال **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين** **سورة الحجرات ٩** فهو لم يأذن ابتداء في قتال بين المؤمنين بل إذا اقتتلوا فأصلحوا بينهما والاقنتال هو فتنة وقد تكون إحداهما أقرب إلى الحق فأمر سبحانه في ذلك بالإصلاح وكذلك فعل النبي ص لما اقتتل بنو عمرو بن عوف فخرج ليصلح بينهم وقال لبلال إن حضرت الصلاة فقدم أبا بكر ثم قال سبحانه **فقاتلوا التي تبغى حتى تفيء إلى أمر الله** **سورة الحجرات ٩** فهو بعد اقتتالهم إذا أصلح بينهم بالقسط فلم تقبل إحداهما القسط بل بغت فإنها تقاتل لأن قتالها هنا يدفع به القتال الذي هو أعظم منه فإنها إذا لم تقاتل حتى تفيء إلى أمر الله بل تركت حتى تقتتل هي والأخرى كان الفساد في ذلك أعظم والشريعة مبناها على دفع الفسادين بالتزام أدناهما وفي مثل هذا يقاتلون حتى لا يكون فتنة ويكون الدين كله لله لأنه إذا أمروا بالصلاح والكف عن الفتنة فبغت إحداهما قوتلت حتى لا تكون فتنة والمأمور بالقتال هو غير المبغى عليه أمر بأن يقاتل الباغية حتى ترجع إلى الدين فقاتلها من باب الجهاد وإعانة المظلوم المبغى عليه أما إذا وقع بغى ابتداء بغير قتال مثل أخذ مال أو مثل رئاسة بظلم فلم يأذن الله في اقتتال طائفتين من المؤمنين على مجرد ذلك لأن الفساد في الاقتتال في مجرد رئاسة أو أخذ مال فيه نوع ظلم فهذا نهى النبي ص عن قتال الأئمة إذا كان فيهم ظلم لأن قتالهم فيه فساد أعظم من فساد ظلمهم وعلى هذا فما ورد في صحيح البخاري من حديث أم سلمة أن النبي ص قال ذلك ليس هو مخالفا لما تواتر عنه من أنه أمر بالإمساك عن القتال في الفتنة وأنه جعل القاعد فيها خيرا من القائم والقائم خيرا من الماشى والماشى خيرا من الساعى وقال يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن وأمر فيها بأن يلحق الإنسان بإبله وبقره وغنمه لأن وصفه تلك الطائفة بالبغى هو كما وصف به من وصف من الولاة بالأثرة والظلم كقوله ستلقون بعدي أثره فاصبروا حتى تلقوني على الحوض وقوله ص ستكون بعدي أثره وأمور تنكرونها قالوا فما تأمرنا يا رسول الله قال أدوا إليهم حقهم وسلوا الله حاكم وأمثال ذلك من الأحايث الصحاح فأمر مع ذكره لظلمهم بالصبر وإعطاء حقوقهم وطلب المظلوم حقه من الله ولم يأذن للمظلوم المبغى عليه بقتال الباغي في مثل هذه الصور التي يكون القتال فيها فتنة كما أذن في دفع الصائل بالقتال حيث قال من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون دينه فهو شهيد فإن قتال اللصوص ليس قتال فتنة إذ الناس كلهم أعوان على ذلك فليس فيه ضرر عام على غير الظالم بخلاف قتال ولاة الأمور فإن فيه فتنة وشرا عاما أعظم من ظلمهم فالمشروع فيه الصبر وإذا وصف النبي ص طائفة بأنها باغية سواء كان ذلك بتأويل أو بغير تأويل لم يكن مجرد ذلك موجبا لقتالها ولا مبيحا لذلك إذ كان قتال فتنة فتدبر هذا فإنه موضع عظيم يظهر فيه الجمع بين النصوص ولأنه الموضوع الذي اختلف فيه اجتهاد علماء المؤمنين قديما

وحديثاً حيث رأى قوم قتال هؤلاء مع من هو أولى بالحق منهم ورأى آخرون ترك القتال إذا كان القتال فيه من الشر أعظم من ترك القتال كما كان الواقع فإن أولئك كانوا لا يبدأون البغاة بقتال حتى يجعلوهم صائليين عليهم وإنما يكون ذنبهم ترك واجب مثل الامتناع من طاعة معين والدخول في الجماعة فهذه الفرقة إذا كانت باغية وفي قتالهم من الشر كما وقع أعظم من مجرد الاقتصار على ذلك كان القتال فتنة وكان تركه هو المشروع وإن كان المقاتل أولى بالحق وهو مجتهد

إذا أمكن دفع البغي بلا قتال لم يجز القتال

إن الله لم يأمر بقتال كل باغ بل ولا أمر بقتال البغاة ابتداء ولكن قال **{وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَهُمَا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } ٩** { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } ١٠ { الحجرات ٩-١٠ } فلم يأمر بقتال البغاة ابتداء بل أمر إذا اقتلت طائفتان من المؤمنين أن يصلح بينهما وهذا يتناول ما إذا كانتا باغيتين أو أحدهما باغية ثم قال **{ فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ } { الحجرات ٩** وقوله **{ فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي } { الحجرات ٩** قد يقال المراد به البغي بعد الإصلاح ولكن هذا خلاف ظاهر القرآن فإن قوله **{ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى } { الحجرات ٩** يتناول الطائفتين المقتلتين سواء أصلح بينهما أو لم يصلح كما أن الأمر بالإصلاح يتناول المقتلتين مطلقاً فليس في القرآن أمر بقتال الباغي ابتداء لكن أمر إذا اقتلت طائفتان أن يصلح بينهما وأنه إن بغت إحدهما على الأخرى بعد القتال أن تقاتل حتى تفيء وهذا يكون إذا لم تجب إلى الإصلاح بينهما وإلا فإذا أجابت إلى الإصلاح بينهما لم تقاتل فلو قوتلت ثم فاءت إلى الإصلاح لم تقاتل لقوله تعالى **{ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَهُمَا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } { الحجرات ٩** فأمر بعد القتال إلى أن تفيء أن يصلح بينهما بالعدل وأن يقسط وقاتل الفتن لا يقع فيه هذا وذلك قد يكون لأن الله لم يأمر بالقتال ابتداء ولكن أمر إذا اقتتلوا وبغت إحدهما على الأخرى بقتال الفئة الباغية وقد تكون الآية أمراً بالإصلاح وقاتل الباغية جميعاً لم يأمر بأحدهما وقد تكون الطائفة باغية ابتداء لكن لما بغت أمر بقتالها وحينئذ لم يكن المقاتل لها قادراً لعدم الأعوان أو لغير ذلك وقد يكون عاجزاً ابتداء عن قتال الفئة الباغية أو عاجزاً عن قتال تفيء فيه إلى أمر الله فليس كل من كان قادراً على القتال كان قادراً على قتال تفيء فيه إلى أمر الله وإذا كان عاجزاً عن قتالها حتى تفيء إلى أمر الله لم يكن مأموراً بقتالها لا أمر بإيجاب ولا أمر استحباب ولكن قد يظن أنه قادراً على ذلك فتبين له في آخر الأمر أنه لم يكن قادراً فهذا من الاجتهاد الذي يثاب صاحبه على حسن القصد وفعل ما أمر وإن أخطأ فيكون له فيه أجر ليس من الاجتهاد الذي يكون له في أجران فإن هذا إنما يكون إذا وافق حكم الله في الباطن كما قال النبي صلى الله عليه وسلم إذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر وإذا اجتهد فأصاب فله أجران ومن الاجتهاد أن يكون ولي الأمر أو نائبه مخييراً بين أمرين فأكثر تخييراً تحرراً للأصلح لا تخييراً شهوة كما يخير الإمام في الأسرى بين القتل والاسترقاق والمن والفداء عند أكثر العلماء فإن قوله تعالى **{ فَاِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً } { محمد ٤** ليس بمنسوخ وكذلك تخييراً من نزل العدو على حكمه كما نزل بنو قريظة على حكم النبي صلى الله عليه وسلم فسأله حلفاؤهم من الأوس أن يمن عليهم كما من على بني النضير حلفاء الخزرج فقال النبي صلى الله عليه وسلم ألا ترضون أن أحكم فيهم سعد بن معاذ سيد الأوس فرضيت الأوس بذلك فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم خلف سعد بن معاذ فجاء وهو راكب وكان تمرضاً من أثر جرح به في المسجد وبنو قريظة شرقي المدينة بينهم نصف نهار أو نحو ذلك فلما أقبل سعد رضي الله عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم قوموا إلى سيدكم فقاموا وأقاربه في الطريق يسألونه أن يمن عليهم ويذكرونه بمعاونتهم ونصرهم له في الجاهلية فلما دنا قال لقد ان لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يحكم فيهم فحكم بأن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم وتغنم أموالهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم لقد حكمت

فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات والحديث ثابت في الصحيحين وفي الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن بريدة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إذا حاصرت أهل حصن فسأوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله فإنك لا تدري ما حكم الله فيهم ولكن أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك فذل هذان الحديثان الصحيحان على أن الله حكما معينا فيما يكون ولي الأمر مخيرا فيه تخبير مصلحة وإن كان لو حكم بغير ذلك نفذ حكمه في الظاهر فما كان من باب القتال فهو أولى أن يكون أحد الأمرين أحب إلى الله ورسوله إما فعله وإما تركه ويتبين ذلك بالمصلحة والمفسدة فما كان وجوده خيرا من عدمه لما حصل فيه من المصلحة الراجحة في الدين فهذا مما يأمر الله به أمر إيجاب أو استحباب وما كان عدمه خيرا من وجوده فليس بواجب ولا مستحب وإن كان فاعله مجتهدا مأجورا على اجتهاده والقتال إنما يكون لطائفة ممتنعة فلو بغت ثم أجابت إلى الصلح بالعدل لم تكن ممتنعة فلم يجز قتالها ولو كانت باغية وقد أمر بقتال الباغية إلى أن تفيء إلى أمر الله أي ترجع ثم قال **{فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ}** {الحجرات ٩} فأمر بالإصلاح بعد قتال الفئة الباغية كما أمر بالإصلاح إذا اقتتلنا ابتداء وقد قالت عائشة رضي الله عنها لما وقعت الفتنة ترك الناس العمل بهذه الآية وهو كما قالت فإنهما لما اقتتلنا لم يصلح بينهما ولو قدر أنه قوتلت الباغية فلم تقاتل حتى تفيء إلى أمر الله ثم أصلح بينهما بالعدل والله تعالى أمر بالقتال إلى الفيء ثم الإصلاح لم يأمر بقتال مجرد بل قال **{فَقَاتِلُوا اللَّيَّ تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ}** {الحجرات ٩} وما حصل قتال حتى تفيء إلى أمر الله فإن كان ذلك مقدورا فما وقع وإن كان معجوزا عنه لم يكن مأمورا به وعجز المسلمين يوم أحد عن القتال الذي يقتضي انتصارهم كان بترك طاعة الرسول وذنوبهم وكذلك التولى يوم حنين كان من الذنوب يبين ذلك أنه لو قدر أن طائفة بغت على طائفة وأمكن دفع البغي بلا قتال لم يجز القتال فلو اندفع البغي بوعظ أو فتيا أو أمر بمعروف لم يجز القتال ولو اندفع البغي بقتل واحد مقدور عليه أو إقامة حد أو تعزيز مثل قطع سارق وقتل محارب وحد قاذف لم يجز القتال وكثيرا ما تنور الفتنة إذا ظلم بعض طائفة لطائفة أخرى فإذا أمكن استيفاء حق المظلوم بلا قتال لم يجز القتال وليس في الآية أن كل من امتنع من مبايعه إمام عادل يجب قتاله بمجرد ذلك وإن سمي باغيا لترك طاعة الإمام فليس كل من ترك طاعة الإمام يقاتل والصدوق قاتل مانعي الزكاة لكونهم امتنعوا عن أدائها بالكلية فقتلوا بالكتاب والسنة والإلا فلو أقروا بأدائها وقالوا لا نؤديها إليك لم يجز قتالهم عند أكثر العلماء وأولئك لم يكونوا كذلك ولهذا كان القول الثالث في هذا الحديث حديث عمار إن قاتل عمار طائفة باغية ليس لهم أن يقاتلوا عليها ولا يمتنعوا عن مبايعته وطاعته وإن لم يكن على مأمورا بقتالهم ولا كان فرضا عليه قتالهم لمجرد امتناعهم عن طاعته مع كونهم ملتزمين شرائع الإسلام وإن كان كل من المقتتلين مناولين مسلمين مؤمنين وكلهم يستغفر لهم ويترحم عليهم عملا بقوله تعالى **{وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ}** {الحشر ١٠}

لم يجز الإتيان بأعظم الفسادين لدفع أدناهما

فإن الحاكم إذا ولاه ذو الشوكة لا يمكن عزله إلا بفتنة ومتى كان السعي في عزله مفسدة أعظم من مفسدة بقائه لم يجز الإتيان بأعظم الفسادين لدفع أدناهما وكذلك الإمام الأعظم ولهذا كان المشهور من مذهب أهل السنة أنهم لا يرون الخروج على الأئمة وقتالهم بالسيف وإن كان فيهم ظلم كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة المستفيضة عن النبي صلى الله عليه وسلم لأن الفساد في القتال والفتنة أعظم من الفساد الحاصل بظلمهم بدون قتال ولا فتنة فلا يدفع أعظم الفسادين بالتزام أدناهما ولعله لا يكاد يعرف طائفة خرجت على ذي سلطان إلا وكان في خروجها من الفساد ما هو أعظم من الفساد الذي أزالته والله تعالى لم يأمر بقتال كل ظالم وكل باغ كيما كان ولا أمر بقتال الباغيين ابتداء بل قال **{وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا اللَّيَّ تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}** {الحجرات ٩}

^١ منهاج السنة النبوية ج: ٤ ص: ٤٢٠-٤٢٦

فلم يأمر بقتال الباغية ابتداء فكيف يأمر بقتال ولاة الأمر ابتداء وفي صحيح مسلم عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سيكون أمراء فتعرفون وتنكرون فمن عرف برىء ومن أنكر سلم ولكن رضي وتابع قالوا أفلا نقاتلهم قال لا ماضوا فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتالهم مع إخباره أنهم يأتون أمورا منكرا فدل على أنه لا يجوز الإنكار عليهم بالسيف كما يراه من يقاتل ولاة الأمر من الخوارج والزيدية والمعتزلة وطائفة من الفقهاء وغيرهم وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إنكم سترون بعدي أثره وأمورا تنكرونها قالوا فما تأمرنا يا رسول الله قال تؤدون الحق الذي عليكم وتسالون الله الذي لكم فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الامراء يظلمون ويفعلون أمورا منكرا ومع هذا فأمرنا أن نؤتيهم الحق الذي لهم ونسال الله الحق الذي لنا ولم يأذن في أخذ الحق بالقتال ولم يرخص في ترك الحق الذي لهم وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من رأى من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر عليه فإنه من فارق الجماعة شبرا فمات إلا مات ميتة جاهلية وفي لفظ فإنه من خرج من السلطان شبرا فمات ميتة جاهلية واللفظ للبخاري وقد تقدم قوله صلى الله عليه وسلم لما ذكر أنهم لا يهتدون بهديه ولا يستنون بسنته قال حذيفة كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك قال تسمع وتطيع للأمر وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع فهذا أمر بالطاعة مع ظلم الأمير وتقدم قوله صلى الله عليه وسلم من ولي عليه وال فرأه يأتي شيئا من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله ولا ينزع يدا عن طاعة وهذا نهى عن الخروج عن السلطان وإن عصى وتقدم حديث عبادة بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا وأن لا ننازع الأمر أهله قال إلا إن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان وفي رواية وأن نقول أو نقوم بالحق حيث ما كنا لا نخاف في الله لومة لائم فهذا أمر بالطاعة مع استئثار ولي الأمر وذلك ظلم منه ونهى عن منازعة الأمر أهله وذلك نهى عن الخروج عليه لأن أهله هم أولو الأمر الذين أمر بطاعتهم وهم الذين لهم سلطان يأمرهم به وليس المراد من يستحق أن يولى ولا سلطان له ولا المتولى العادل لأنه قد ذكر أنهم يستأثرون فدل على أنه نهى عن منازعة ولي الأمر وإن كان مستأثرا وهذا باب واسع الوجه الرابع أنا إذا قدرنا أنه يشترط العدل في كل متول فلا يطاع إلا من كان ذا عدل لا من كان ظالما فمعلوم أن اشترط العدل في الولاية ليس بأعظم من اشتراطه في الشهود فإن الشاهد قد يخبر بما لا يعلم فإن لم يكن ذا عدل لم يعرف صدقه فيما أخبر به وأما ولي الأمر فهو يأمر بأمر يعلم حكمه من غيره فيعلم هل هو طاعة لله أو معصية ولهذا قال تعالى {إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا} الحجرات ٦ فأمر بالتبين إذا جاء الفاسق نبأ ومعلوم أن الظلم لا يمنع من فعل الطاعة ولا من الأمر بها وهذا مما يوافق عليه الإمامية فإنهم لا يقولون بتخليد أهل الكبائر في النار فالفسق عندهم لا يحبط الحسنات كلها بخلاف من خالف في ذلك من الزيدية والمعتزلة والخوارج الذين يقولون إن الفسق يحبط الحسنات كلها ولو حبطت حسناته كلها لحبط إيمانه ولو حبط إيمانه لكان كافرا مرتدا فوجب قتله ونصوص الكتاب والسنة والإجماع تدل على أن الزاني والسارق والقاتل لا يقتل بل يقيم عليه الحد فدل على أنه ليس بمرتد وكذلك قوله تعالى {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ} الحجرات ٩ يدل على وجود الإيمان والأخوة مع الاقتتال والبغي وقد ثبت في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من كانت عنده لأخيه مظلمة من عرض أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون درهم ولا دينار إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فطرحت عليه ثم ألقى في النار أخرجاه في الصحيحين فثبت أن الظالم يكون له حسنات فيستوفي المظلوم منها حقه وكذلك ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما تعدون المفلس فيكم قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا دينار قال المفلس من يأتي يوم القيامة وله حسنات أمثال الجبال وقد شتم هذا وأخذ مال هذا وسفك دم هذا وقذف هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإذا فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار رواه مسلم وقد قال تعالى { إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ السَّيِّئَاتِ } هود ٤١ فدل ذلك على أنه في حال إساءته يفعل حسنات تمحو إساءته وإلا لو كانت السيئات قد زالت قبل ذلك بتوبة ونحوها لم تكن الحسنات قد أذهبتها وليس هذا موضع بسط ذلك والمقصود هنا أن الله جعل الفسق مانعا من قبل النبا والفسق ليس مانعا من فعل كل حسنة وإذا كان كذلك وقد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أنه لا يستشهد إلا نوو العدل ثم يكفي في ذلك الظاهر فإذا اشترط العدل في الولاية فلأن يكفي في ذلك الظاهر أولى فعمل أنه لا يشترط في الولاية من العلم والعدالة أكثر مما يشترط في الشهادة يبين ذلك أن الإمامية وجميع الناس يجوزون أن يكون نواب الإمام غير معصومين وأن لا يكون الإمام عالما بعصمتهم بدليل أن النبي

صلى الله عليه وسلم قد ولى الوليد بن عقبة بن أبي معيط ثم أخبره بمحاربة الذين أرسله إليهم فأنزل الله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ } {الحجرات ٦} وعلي رضي الله عنه كان كثير من نوابه يخونه وفيهم من هرب عنه وله مع نوابه سير معلومة فعلم أنه ليس في كون الإمام معصوما ما يمنع اعتبار الظاهر ووجود مثل هذه المفاصد وأن اشتراط العصمة في الأئمة شرط ليس بمقدور ولا مأمور ولم يحصل به منفعة لا في الدين ولا في الدنيا مثل كثير من النساك الذين يشترطون في الشيخ أن يعلم أمورا لا يكاد يعلمها أحد من البشر فيصفون الشيخ بصفات من جنس صفات المعصوم عند الإمامية ثم منتهى هؤلاء اتباع شيخ جاهل أو ظالم واتباع هؤلاء لمتول ظالم أو جاهل مثل الذي جاع وقال لا يأكل من طعام البلد حتى يحصل له مثل طعام أهل الجنة فخرج إلى البرية فصار لا يحصل له إلا علف البهائم فبينما هو يدعو إلى مثل طعام الجنة انتهى أمره إلى علف الدواب كالكلأ النابت في المباحات وهكذا من غلا في الزهد والورع حتى خرج عن حد العدل الشرعي ينتهي أمره إلى الرغبة الفاسدة وانتهاك المحارم كما قد رؤي ذلك وجرب

ليس كل ما كان بغيا يخرج عموم الناس عن الايمان

وقد شهد القرآن بأن اقتتال المؤمنين لا يخرجهم عن الايمان بقوله تعالى { وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } {٩} {١٠} {الحجرات ٩-١٠} فسامهم مؤمنين وجعلهم إخوة مع وجود الاقتتال والبغي^٢

فقد جعلهم مع وجود الاقتتال والبغي مؤمنين إخوة بل مع أمره بقتال الفئة الباغية جعلهم مؤمنين وليس كل ما كان بغيا و ظلما أو عدوانا يخرج عموم الناس عن الايمان ولا يوجب لعنتهم فكيف يخرج ذلك من كان من خير القرون وكل من كان باغيا أو ظالما أو معتديا أو مرتكبا ما هو ذنب فهو قسمان متأول وغير متأول فالتأول المجتهد كأهل العلم والدين الذين اجتهدوا واعتقد بعضهم حل أمور واعتقد الآخر تحريمها كما استحل بعضهم بعض أنواع الأشرطة وبعضهم بعض المعاملات الربوية وبعضهم بعض عقود التحليل والمتعة وأمثال ذلك فقد جرى ذلك وأمثاله من خيار السلف فهؤلاء المتأولون المجتهدون غابتهم أنهم مخطئون وقد قال الله تعالى { رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا } {البقرة ٢٨٦} وقد ثبت في الصحيح أن الله استجاب هذا الدعاء وقد أخبر سبحانه عن داود وسليمان عليهما السلام أنهما حكما في الحرث وخص أحدهما بالعلم والحكم مع ثنائه على كل منهما بالعلم والحكم والعلماء ورثة الأنبياء فإذا فهم أحدهم من المسئلة مالم يفهمه الآخر لم يكن بذلك ملوما ولا مانعا لما عرف من علمه ودينه وإن كان ذلك مع العلم بالحكم يكون إثما وظلما والاصرار عليه فسقا بل متى علم تحريمه ضرورة كان تحليله كفرا فالبغي هو من هذا الباب أما إذا كان الباغى مجتهدا ومتأولا ولم يتبين له أنه باغ بل اعتقد أنه على الحق وإن كان مخطئا في اعتقاده لم تكن تسميته باغيا موجبة لإثمه فضلا عن أن توجب فسقه والذين يقولون بقتال البغاة المتأولين يقولون مع الأمر بقتالهم قتالنا لهم لدفع ضرر بغيهم لا عقوبة لهم بل للمنع من العدوان ويقولون إنهم باقون على العدالة لا يفسقون ويقولون هم كغير المكلف كما يمنع الصبي والمجنون والناسي والمغمى عليه والنائم من العدوان أن لا يصدر منهم بل تمنع البهائم من العدوان ويجب على من قتل مؤمنا خطأ الدية بنص القرآن مع أنه لا إثم عليه في ذلك وهكذا من رفع الى الامام من أهل الحدود و تاب بعد القدرة عليه فاقام عليه الحد والتائب من الذنب كمن لا ذنب له والباغى المتأول يجلد عند مالك والشافعى و

^١ منهاج السنة النبوية ج: ٣ ص: ٣٩١-٤٠٠

^٢ مجموع الفتاوى ج: ٣٥ ص: ٧١

أحمد و نظائره متعددة ثم بتقدير أن يكون البغى بغير تأويل يكون ذنبا والذنوب تزول عقوبتها بأسباب متعددة بالحسنات الماحية و المصائب المكفرة و غير ذلك^١

القتال بين المؤمنين لا يخرجهم من الايمان

والقتال بين المؤمنين لا يخرجهم من الايمان كما قال تعالى {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَاصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } {٩} {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ } {١٠} {الحجرات ٩- ١٠} فبين سبحانه وتعالى انهم مع الاقتتال وبغى بعضهم على بعض مؤمنون اخوة وأمر بالاصلاح بينهم فان بغت احدهما بعد ذلك قوتلت الباغية ولم يأمر بالاقتتال ابتداءً وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم ان الطائفة المارقة يقتلها ادنى الطائفتين الى الحق فكان علي بن ابي طالب ومن معه هم الذين قاتلوهم فدل كلام النبي على انهم ادنى الى الحق من معاوية ومن معه مع ايمان الطائفتين^٢

الفتن والاققتال التي تقع من أهل البر من أعظم المحرمات

هذه الفتن وأمثالها من أعظم المحرمات وأكبر المنكرات قال الله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } {١٠٢} {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } {١٠٣} {وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } {١٠٤} {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } {١٠٥} {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ } {١٠٦} ال عمران ١٠٢-١٠٦ وهؤلاء الذين تفرقوا وإختلفوا حتى صار عنهم من الكفر ما صار وقد قال النبي لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضهم رقاب بعض فهذا من الكفر وإن كان المسلم لا يكفر بالذنوب قال تعالى {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَاصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } {٩} {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } {١٠} {الحجرات ٩- ١٠} فهذا حكم الله بين المقتتلين من المؤمنين أخير أنهم إخوة وأمر أولا بالاصلاح بينهم إذا اقتتلوا { فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى } {الحجرات ٩} ولم يقبلوا الإصلاح { فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَاصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ } {الحجرات ٩} فأمر بالاصلاح بينهم بالعدل بعد أن { تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ } {الحجرات ٩} أى ترجع إلى أمر الله فمن رجع إلى أمر الله وجب أن يعدل بينه وبين خصمه ويقسط بينهما فقبل أن نقاتل الطائفة الباغية وبعد إقتتالهما أمرنا بالاصلاح بينهما مطلقا لأنه لم تقهر إحدى الطائفتين بقتال وإذا كان كذلك فالواجب أن يسعى بين هاتين الطائفتين بالصلح الذي أمر الله به ورسوله ويقال لهذه ما تنقم من هذه ولهذه ما تنقم من هذه فإن ثبت على إحدى الطائفتين أنها إعتدت على الأخرى بإتلاف شيء من الأنفس والأموال كان عليها ضمان ما أتلفتها وإن كان هؤلاء أتلفوا لهؤلاء وهؤلاء أتلفوا لهؤلاء تقاصوا بينهم كما قال الله تعالى { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى } {البقرة ١٧٨} وقد ذكرت طائفة من السلف أنها أنزلت في مثل ذلك في طائفتين إقتتلتا فأمرهم الله بالمقاصة قال { فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ } {البقرة ١٧٨} والعفو الفضل فإذا فضل لواحدة من الطائفتين شيء على الأخرى { فَاتَّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ }

^١ مجموع الفتاوى ج: ٣٥ ص: ٧٥-٧٦

^٢ مجموع الفتاوى ج: ٢٥ ص: ٣٠٥

{البقرة ١٧٨} والذى عليه الحق يؤديه بإحسان وإن تعذر أن تضمن واحدة للأخرى فيجوز أن يتحمل الرجل حمالة يؤديها لصالح ذات البين وله أن يأخذها بعد ذلك من زكاة المسلمين ويسأل الناس في إعانته على هذه الحالة وإن كان غنيا قال النبي صلى الله عليه وسلم لقبیصة بن مخارق الهلالي يا قبيصة ان المسئلة لا تحل الا لثلاثة رجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فيسأل حتى يجد سدادا من عيش ثم يمكسك ورجل أصابته فاقة فانه يقوم ثلاثة من ذوى الحجى من قومه فيقولون قد أصاب فلانا فاقة فيسأل حتى يجد قواما من عيش وسدادا من عيش ثم يمكسك ورجل يحمل حمالة فيسأل حتى يجد حمالته ثم يمكسك والواجب على كل مسلم قادر ان يسعى فى الإصلاح بينهم ويأمرهم بما أمر الله به مهما أمكن ومن كان من الطائفتين يظن انه مظلوم مبعى عليه فاذا صبر وعفى اعزه الله ونصره كما ثبت فى الصحيح عن النبي انه قال ما زاد الله عبدا بعفو الا عزا وما تواضع احد لله الا رفعه الله ولا نقصت صدقة من مال وقال تعالى {وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ} {الشورى ٤٠} وقال تعالى {إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} {٤٢} {وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} {٤٣} {الشورى ٤٢- ٤٣} فالباغى الظالم ينتقم الله منه فى الدنيا والآخرة فان البغى مصرعه قال ابن مسعود ولو بغى جبل على جبل لجعل الله الباغى منهما دكا ومن حكمة الشعر قضى الله ان البغى يصرع اهله وان الباغى تدور الدوائر ويشهد لهذا قوله تعالى { إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ } {يونس ٢٣} الآية وفى الحديث ما من ذنب أحرى أن يعجل لصاحبه العقوبة فى الدنيا من البغى وما حسنة أحرى أن يعجل لصاحبها الثواب من صلة الرحم فمن كان من احدى الطائفتين باغيا ظالما فليتق الله وليتب ومن كان مظلوما مبعيا عليه وصبر كان له البشرى من الله قال تعالى {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ} {البقرة ١٥٥} قال عمرو بن اوس هم الذين لا يظلمون اذا ظلموا وقد قال تعالى للمؤمنين فى حق عدوهم { وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا } {آل عمران ١٢٠} وقال يوسف عليه السلام لما فعل به اخوته ما فعلوا فصبر واتقى حتى نصره الله ودخلوا عليه وهو فى عزه {قَالُوا أَلَيْكَ الْكَبْرُ لِأَنَّكَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} {يوسف ٩٠} فمن إتقى الله من هؤلاء وغيرهم بصدق وعدل ولم يتعد حدود الله وصبر على اذى الآخر وظلمه لم يضره كيد الآخر بل ينصره الله عليه وهذه الفتن سببها الذنوب والخطايا فعلى كل من الطائفتين ان يستغفر الله ويتوب إليه فإن ذلك يرفع العذاب وينزل الرحمة قال الله تعالى {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} {الأنفال ٣٣} وفى الحديث عن النبي من اكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب قال الله تعالى {الر كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} {١} {أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ} {٢} {وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ} {٣} {هود ٣-١} قال صلى الله عليه وسلم إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول فى النار قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال أنه أراد قتل صاحبه وقال لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض وقال إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا إلا ليليل الشاهد منكم الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع^١

الظلم لا يقطع الموالاة الإيمانية

والمؤمن عليه أن يعادى فى الله ويوالى فى الله فان كان هناك مؤمن فعليه أن يواليه وان ظلمه فان الظلم لا يقطع الموالاة الإيمانية قال تعالى { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاتٍ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } {٩} {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} {١٠} {الحجرات ٩- ١٠} فجعلهم أخوة موجود القتال والبغى والأمر بالإصلاح بينهم فليتدبر المؤمن الفرق بين هذين النوعين فما أكثر ما يلتبس أحدهما بالآخر وليعلم أن المؤمن تجب موالاته وان ظلمك واعتدى عليك والكافر تجب معاداته وان أعطاك وأحسن اليك فان الله سبحانه بعث الرسل وأنزل الكتب ليكون الدين

^١مجموع الفتاوى ج: ٣٥ ص: ٨٠-٨٥

كله الله فيكون الحب لأوليائه والبغض لأعدائه والاكرام لأوليائه والاهانة لأعدائه والثواب لأوليائه والعقاب لأعدائه وإذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر وفجور وطاعة ومعصية وسنة وبدعة استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير واستحق من المعادات والعقاب بحسب ما فيه من الشر فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الأكرام والأهانة فيجتمع له من هذا وهذا كاللص الفقير تقطع يده لسرقته ويعطى من بيت المال ما يكفيه لحاجته هذا هو الأصل الذي اتفق عليه أهل السنة والجماعة وخالفهم الخوارج والمعتزلة ومن وافقهم عليه فلم يجعلوا الناس لا مستحقا للثواب فقط ولا مستحقا للعقاب فقط وأهل السنة يقولون ان الله يعذب بالنار من أهل الكبائر من يعذبه ثم يخرجهم منها بشفاعة من يأذن له في الشفاعة بفضل رحمته كما استفاضت بذلك السنة عن النبي والله سبحانه وتعالى أعلم وصل اللهم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين¹

ضل من ظن أن من قاتل عليا كافر

كان شيطان الخوارج مقموعا لما كان المسلمون مجتمعين في عهد الخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان فلما افرقت الأمة في خلافة علي رضي الله عنه وجد شيطان الخوارج موضع الخروج فخرجوا وكفروا عليا ومعاولية ومن والاهما فقاتلهم أولى الطائفتين بالحق علي بن أبي طالب كما ثبت في الصحيح عن النبي أنه قال تمرق مارقة علي حين فرقة من الناس تقتلهم أولى الطائفتين بالحق ولهذا لما ناظرهم من ناظرهم كابن عباس وعمر بن عبد العزيز وغيرهما بينوا لهم بطلان قولهم بالكتاب والميزان كما بين لهم ابن عباس حيث أنكروا علي بن أبي طالب قتاله لأهل الجمل ونهيه عن اتباع مديرهم والاجهاز على جريحهم وغنيمة أموالهم وذراريهم وكانت حجة الخوارج أنه ليس في كتاب الله الا مؤمن أو كافر فإن كانوا مؤمنين لم يحل قتالهم وإن كانوا كفارا أبيحت دماؤهم وأموالهم وذراريهم فأجابهم ابن عباس بأن القرآن يدل على أن عائشة أم المؤمنين وبين أن أمهات المؤمنين حرام فمن أنكر أمومتها فقد خالف كتاب الله ومن استحل فرج أمه فقد خالف كتاب الله وموضع غلظهم ظنهم ان من كان مؤمنا لم يبح قتاله بحال وهذا مما ضل به من ضل من الشيعة حيث ظنوا أن من قاتل عليا كافر فإن هذا خلاف القرآن قال تعالى { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغْت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } { ٩ } { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ } { ١٠ } { الحجرات ٩ - ١٠ } فأخبر سبحانه أنهم مؤمنون مقتتلون وأمر إن بغت احدهما على الأخرى ان تقاتل التي تبغى فانه لم يكن امر بقتال أحدهما ابتداء ثم أمر إذا فاءت إحداهما بالاصلاح بينهما بالعدل وقال { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ } { الحجرات ١٠ } فدل القرآن على إيمانهم واخوتهم مع وجود الأقتتال والبيغي وأنه يأمر بقتال الباغية حيث أمر الله به وكذلك عمر بن عبدالعزيز لما ناظرهم وأقروا بوجوب الرجوع الى ما نقله الصحابة عن الرسول من فرائض الصلاة بين لهم عمر أنه كذلك يجب الرجوع الى ما نقلوه عنه من فريضة الرجم ونصاب الزكاة وان الفرق بينهما فرق بين المتماثلين فرجعوا الى ذلك وكذلك ابن عباس ناظرهم لما أنكروا تحكيم الرجال بأن الله قال في الزوجين إذا خيف شقاق بينهما أن يبعث حكما من أهله وحكما من أهلها وقال { إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا } النساء ٣٥ وأمر ايضا أن يحكم في الصيد يجزاء { مَثَلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ } المائدة ٩٥ فمن أنكر التحكيم مطلقا فقد خالف كتاب الله تعالى وذكر ابن عباس ان التحكيم في أمر أميرين لأجل دماء الأمة أولى من التحكيم في أمر الزوجين والتحكيم لأجل دم الصيد وهذا استدلال من ابن عباس بالاعتبار وقياس الأولى وهو من الميزان فاستدل عليهم بالكتاب والميزان قال الله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } النساء ٥٩ أمر سبحانه بطاعته وطاعة رسوله وأولي الأمر منا وأمر إن تنازعنا في شيء أن نرده الى الله والرسول فدل هذا على ان كل ما تنازع المؤمنون فيه من شيء فعليهم ان يردوه الى الله والرسول والمعلق بالشرط يعدم عند عدم الشرط فدل ذلك على أنهم

¹مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٢٠٨-٢٠٩

إذا لم يتناز عوا لم يكن هذا الأمر ثابتا وكذلك إنما يكون لأنهم إذا لم يتناز عوا كانوا على هدى وطاعة لله ورسوله فلا يحتاجوا حينئذ ان يأمرهم بما هم فاعلون من طاعة الله والرسول ودل ذلك على أنهم إذا لم يتناز عوا بل اجتمعوا فانهم لا يجتمعون على ضلالة ولو كانوا قد يجتمعون على ضلالة لكانوا حينئذ أولى بوجوب الرد الى الله والرسول منهم اذا تناز عوا فقد يكون احد الفريقين مطيعا لله والرسول فإذا كانوا مأمورين في هذا الحال بالرد الى الله والرسول ليرجع الى ذلك فريق منهم خرج عن ذلك فلأن يؤمروا بذلك إذا قدر خروجهم كلهم عنه بطريق الأولى والأحرى أيضا فقد قال لهم {وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا} آل عمران ١٠٣ فلما نهاهم عن التفرق مطلقا دل ذلك على أنهم لا يجتمعون على باطل إذ لو اجتمعوا على باطل لوجب اتباع الحق المتضمن لتفرقهم وبين أنه ألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخوانا كما قال {هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصَرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ} {٦٢} وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ {٦٣} الانفال ٦٢-٦٣ فإذا كانت قلوبهم متألفة غير مختلفة على أمر من الأمور كان ذلك من تمام نعمة الله عليهم ومما من به عليهم فلم يكن ذلك اجتماعا على باطل لأن الله تعالى أعلم بجميع الأمور

من كان فيه ايمان وفيه فجور اعطى من الموالاة بحسب ايمانه

قال تعالى {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَ تَفِيءَ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} {٩} إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} {١٠} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءِ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} {١١} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ} {١٢} يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} {١٣} الحجرات ٩-١٣ في الحديث الصحيح لما سئل عن الغيبة فقال هي ذكرك أخاك بما يكره قيل يا رسول الله أرأيت ان كان في أخى ما أقول قال ان كان فيه ما تقول فقد اغتبتته وان لم يكن فيه ما تقول فقد بهته والمقصود هنا ان النبى فرق بين الاغتياب وبين البهتان وأخبر أن المخبر بما يكره أخوه المؤمن عنه اذا كان صادقا فهو المغتاب وفي قوله ذكرك أخاك بما يكره موافقة لقوله تعالى {وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ} الحجرات ١٢ فجعل جهة التحريم كونه أبا اخوة الايمان ولذلك تغلظت الغيبة بحسب حال المؤمن فكلما كان أعظم ايمانا كان أغتيابه أشد ومن جنس الغيبة الهمز واللمز فان كلاهما فيه عيب الناس والظعن عليهم كما فى الغيبة لكن الهمز هو الطعن بشدة وعنف بخلاف اللمز فانه قد يخلو من الشدة والعنف كما قال تعالى {وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ} التوبة ٥٨ أى يعيبك ويطعن عليك وقال تعالى {وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ} الحجرات ١١ اى لا يلمز بعضكم بعضا وقال {هَمَّازٌ مَّشَاءٌ بِنَمِيمٍ} القلم ١١ وقال {وَيْلٌ لَّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ} الهمزة ١ إذا تبين هذا فنقول ذكر الناس بما يكرهون هو فى الأصل على وجهين أحدهما ذكر النوع والثانى ذكر الشخص المعين الحى أو الميت أما الأول فكل صنف ذمه الله ورسوله يجب ذمه وليس ذلك من الغيبة كما ان كل صنف مدحه الله ورسوله يجب مدحه وما لعنه الله ورسوله لعن كما أن من صلى الله عليه وملائكته يصلى عليه فالله تعالى ذم الكافر والفاجر والفاسق والظالم والغاوى والضال والحاسد والبخيل والساحر وأكل الربا وموكله والسارق والزانى والمختال والفجور والمنتكبر الجبار وأمثال هؤلاء كما حمد المؤمن النقى والصادق والبار والعادل والمهتدى والراشد والكريم والمتصدق والرحيم وأمثال هؤلاء ولعن رسول الله أكل الربا وموكله وشاهديه وكتابه والمحلل والمحلل له ولعن من عمل عمل قوم لوط ولعن من احدث حدثا او آوى محدثا

ولعن الخمر وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة اليه وبائعها ومشتريها وساقياها وشاربها وآكل ثمنها ولعن اليهود والنصارى حيث حرمت عليهم الشحوم فجملوا فباعوها وأكلوا أثمانها ولعن الله الذين يكتمون ما أنزل الله من بينات من بعد ما بينه للناس وذكر لعنة الظالمين والله هو وملائكته يصلون على النبي ويصلون على الذين آمنوا والصابر المسترجع عليه صلاة من ربه ورحمة والله وملائكته يصلون على معلم الناس الخير ويستغفر له كل شئ حتى الحيتان والطير وأمر الله نبيه أن يستغفر لذنبه وللمؤمنين والمؤمنات فإذا كان المقصود الأمر بالخير والترغيب فيه والنهي عن الشر والتحذير منه فلا بد من ذكر ذلك ولهذا كان النبي إذا بلغه أن احدا فعل ما ينهى عنه يقول ما بال رجال يشترطون شروطا ليست في كتاب الله من اشترط شروطا ليس في كتاب الله فهو باطل وان كان مائة شرط ما بال رجال ينتزهون عن أشياء أترخص فيها والله انى لأتقاكم الله واعلمكم بحدوده ما بال رجال يقول احدهم أما أنا فأصوم ولا افطر ويقول الآخر أما أنا فأقوم ولا أنام ويقول الآخر لا أتزوج النساء ويقول الآخر لا أكل اللحم لكنى أصوم وأفطر واقوم وأنام وأتزوج النساء وأكل اللحم فمن رغب عن سنتى فليس منى وليس لأحد ان يعلق الحمد والذم والحب والبغض والموالات والمعاداة والصلاة واللعن بغير الأسماء التى علق الله بها ذلك مثل اسماء القبائل والمدائن والمذاهب والطرائق المضافة الى الأئمة والمشايخ ونحو ذلك مما يراد به التعريف كما قال تعالى **{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ { الحجرات ١٣ }** وقال تعالى **{ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ { ٦٢ } الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ { ٦٣ }** يونس ٦٢-٦٣ وقال **{ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا { مريم ٦٣ }** وقد قال صلى ان آل ابى فلان ليسوا لى بأولياء انما وليى الله وصالح المؤمنين قال الا ان أوليائى المتقون حيث كانوا من كانوا وقال ان الله أذهب عنكم عيبية الجاهلية وفخرها بالاباء الناس رجالن مؤمن تقى وفاجر شقى الناس من آدم وآدم من تراب وقال انه لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأبيض على اسود ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى فذكر الازمان والعدل باسماء الايثار والولاء والبلد والانتساب الى عالم أو شيخ إنما يقصد بها التعريف به لىتميز عن غيره فأما الحمد والذم والحب والبغض والموالات والمعاداة فانما تكون بالأشياء التى انزل الله بها سلطانه وسلطانه كتابه فمن كان مؤمنا وجبت موالاته من اى صنف كان ومن كان كافرا وجبت معاداته من اى صنف كان قال تعالى **{ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ { ٥٥ } وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْعَالِبُونَ { المائدة ٥٥ }** وقال تعالى **{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ { المائدة ٥١ }** وقال تعالى **{ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ { التوبة ٧١ }** وقال تعالى **{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ { الممتحنة ١ }** وقال تعالى **{ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا { الكهف ٥٠ }** وقال تعالى **{ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ { المجادلة ٢٢ }** ومن كان فيه ايمان وفيه فجور أعطى من الموالات بحسب ايمانه من البغض بحسب فجوره لا يخرج من الايمان بالكلية بمجرد الذنوب والمعاصى كما يقوله الخوارج والمعتزلة ولا يجعل الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون بمنزلة الفساق فى الايمان والدين والحب والبغض والموالات والمعاداة قال الله تعالى **{ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرَىٰ فَقَاتَلَا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءت فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ { الحجرات ٩ }** إلى قوله **{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ { الحجرات ١٠ }** فجعلهم إخوة مع وجود الاقتتال والبعى وقال تعالى **{ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ { ص ٢٨ }** وقد قال تعالى **{ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَهَّدَ عَدَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ { النور ٢ }** فهذا الكلام فى الأنواع وأما الشخص المعين فيذكر ما فيه من الشر فى مواضع منها المظلوم له ان يذكر ظالمه بما فيه إما على وجه دفع ظلمه واستيفاء حقه كما قالت هند يا رسول الله ان ابا سفيان رجل شحيح وانه ليس يعطينى من النفقة ما يكفينى وولدى فقال لها النبي خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف كما قال لى الواجد يحل عرضه وعقوبته وقال وكيع عرضه شكايته وعقوبته حبسه وقال تعالى **{ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ { النساء ١٤٨ }** وقد روى انها نزلت فى رجل نزل بقوم فلم يقروه فاذا كان هذا فيمن ظلم بترك قراه الذى تنازع الناس فى وجوبه وان كان الصحيح انه واجب فكيف بمن ظلم بمنع حقه الذى اتفق المسلمون على استحقاقه اياه او يذكر ظالمه على وجه القصاص من غير عدوان ولا دخول فى كذب ولا ظلم الغير وترك ذلك أفضل ومنها أن يكون على وجه النصيحة للمسلمين فى دينهم ودنياهم

كما في الحديث عن فاطمة بنت قيس لما استشارت النبي صلى الله عليه وسلم من تتكح وقالت انه خطبني معاوية وابو جهم فقال أما معاوية فصعلوك لا مال له وأما ابو جهم فرجل ضراب للنساء وروى لا يضع عصاه عن عاتقه فبين لها أن هذا فقير قد يعجز عن حقك وهذا يؤذيك بالضرب وكان هذا نصحا لها وان تضمن ذكر عيب الخاطب وفي معنى هذا نصح الرجل فيمن يعامله ومن يوكله ويوصى اليه ومن يستشده بل ومن يتحاكم اليه وامثال ذلك واذا كان هذا في مصلحة خاصة فكيف بالنصح فيما يتعلق به حقوق عموم المسلمين من الأمراء والحكام والشهود والعمال أهل الديوان وغيرهم فلا ريب أن النصح في ذلك أعظم كما قال النبي الدين النصيحة الدين النصيحة قالوا لمن يا رسول الله قال الله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم وقد قالوا لعمر بن الخطاب في أهل الشورى أمر فلانا وفلانا فجعل يذكر في حق كل واحد من الستة وهم أفضل الأمة أمرا جعله مانعا له من تعيينه واذا كان النصح واجبا في المصالح الدينية الخاصة والعامة مثل نقلة الحديث الذين يغلطون أو يكذبون كما قال يحي بن سعيد سألت مالكا والثوري والليث بن سعد أظنه والأوزاعي عن الرجل يتهم في الحديث أو لا يحفظ فقالوا بين أمره وقال بعضهم لاحمد ابن حنبل انه يثقل على أن أقول فلان كذا وفلان كذا فقال اذا سكت أنت وسكت أنا فمتى يعرف الجاهل الصحيح من السقيم ومثل أئمة البدع من أهل المقالات المخالفة للكتاب والسنة او العبادات المخالفة للكتاب والسنة فان بيان حالهم وتحذير الأمة منهم واجب باتفاق المسلمين حتى قيل لاحمد بن حنبل الرجل يصوم ويصلى ويعتكف أحب اليك أو يتكلم في أهل البدع فقال اذا قام وصلى واعتكف فانما هو لنفسه واذا تكلم في أهل البدع فانما هو للمسلمين هذا أفضل فبين أن نفع هذا عام للمسلمين في دينهم من جنس الجهاد في سبيل الله اذ تطهير سبيل الله ودينه ومنهاجه وشرعته ودفع بغى هؤلاء وعدوانهم على ذلك واجب على الكفاية باتفاق المسلمين ولولا من يقيمه الله لدفع ضرر هؤلاء لفسد الدين وكان فسادا أعظم من فساد استيلاء العدو من أهل الحرب فان هؤلاء اذا استولوا لم يفسدوا القلوب وما فيها من الدين الا تبعا وأما أولئك فهم يفسدون القلوب ابتداء وقد قال النبي إن الله لا ينظر الى صوركم وأموالكم وانما ينظر الى قلوبكم وأعمالكم وذلك ان الله يقول في كتابه {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ} الحديد ٢٥ فأخبر انه أنزل الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وانه أنزل الحديد كما ذكره فقوم الدين بالكتاب الهادي والسيف الناصر { وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا } الفرقان ٣١ والكتاب هو الأصل ولهذا أول ما بعث الله رسوله أنزل عليه الكتاب ومكث بمكة لم يأمره بالسيف حتى هاجر وصار له أعوان على الجهاد وأعداء الدين نوعان الكفار والمنافقون وقد أمر الله نبيه بجهاد الطائفتين في قوله { جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ } التوبة ٧٣ و التحريم ٩ في آيتين من القرآن فاذا كان أقوام منافقون يبتدعون بدعا تخالف الكتاب ويلبسونها على الناس ولم تبين للناس فسد أمر الكتاب وبدل الدين كما فسد دين أهل الكتاب قبلنا بما وقع فيه من التبديل الذي لم ينكر على أهله واذا كان أقوام ليسوا منافقين لكنهم سماعون للمنافقين قد التبس عليهم أمرهم حتى ظنوا قولهم حقا وهو مخالف للكتاب وصاروا دعاة الى بدع المنافقين كما قال تعالى {لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَافَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ} التوبة ٤٧ فلا بد أيضا من بيان حال هؤلاء بل الفتنة بحال هؤلاء أعظم فان فيهم ايماننا يوجب موالاتهم وقد دخلوا في بدع من بدع المنافقين التي تفسد الدين فلا بد من التحذير من تلك البدع وان اقتضى ذلك ذكرهم وتعيينهم بل ولو لم يكن قد تلقوا تلك البدعة عن منافق لكن قالوها طائنين أنها هدى وانها خير وانها دين ولم تكن كذلك لوجب بيان حالها ولهذا وجب بيان حال من يغلط في الحديث والرواية ومن يغلط في الرأي والفتيا ومن يغلط في الزهد والعبادة وان كان المخطئ المجتهد مغفورا له خطؤه وهو مأجور على اجتهاده فيبيان القول والعمل الذي دل عليه الكتاب والسنة واجب وان كان في ذلك مخالفة لقوله وعمله ومن علم منه الاجتهاد السائغ فلا يجوز ان يذكر على وجه الذم والتاثيم له فان الله غفر له خطأه بل يجب لما فيه من الايمان والتقوى موالاته ومحبتة والقيام بما أوجب الله من حقوقه من ثناء ودعاء وغير ذلك وان علم منه النفاق كما عرف نفاق جماعة على عهد رسول الله مثل عبد الله بن أبي ذؤيبه وكما علم المسلمون نفاق سائر الرافضة عبد الله بن سبأ وأمثاله مثل عبد القدوس بن الحجاج ومحمد بن سعيد المصلوب فهذا يذكر بالنفاق وان اعلن بالبدعة ولم يعلم هل كان منافقا أو مؤمنا مخطئا ذكر بما يعلم منه فلا يحل للرجل ان يقفو ما ليس له به علم ولا يحل له ان يتكلم في هذا الباب الا قاصدا بذلك وجه الله تعالى وان تكون كلمة الله هي العليا وان يكون الدين كله لله فمن تكلم في ذلك بغير علم او بما يعلم خلافه كان أثما وكذلك القاضى والشاهد والمفتى كما قال النبي صلى الله عليه وسلم القضاة ثلاثة قاضيان في النار وقاض في الجنة رجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة قضى للناس على جهل فهو في النار ورجل علم الحق فقضى بخلاف ذلك فهو في

النار وقد قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ نَعَرْتُمْ فَأِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } النساء ١٣٥ و اللى هو الكذب و الاعراض كتمان الحق ومثله ما فى الصحيحين عن النبى انه قال البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فان صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما وان كذبا وكتما محقت بركة بيعهما ثم القائل فى ذلك بعلم لا بد له من حسن النية فلو تكلم بحق لقصد العلو فى الارض او الفساد كان بمنزلة الذى يقاتل حمية ورياء ان تكلم لأجل الله تعالى مخلصا له الدين كان من المجاهدين فى سبيل الله من ورثة النبياء خلفاء الرسل وليس هذا الباب مخالفا لقوله الغيبة ذكرك اخاك بما يكره فان الأخ هو المؤمن والأخ المؤمن إن كان صادقا فى ايمانه لم يكره ما قلته من هذا الحق الذى يحبه الله ورسوله وان كان فيه شهادة عليه وعلى ذويه بل عليه أن يقوم بالقسط ويكون شاهدا لله ولو على نفسه او والديه او اقربيه ومتى كره هذا الحق كان ناقصا فى ايمانه ينقص من اخوته بقدر ما نقص من ايمانه فلم يعتبر كراهته من الجهة التى نقص منها ايمانه اذ كراهته لما لا يحبه الله ورسوله توجب تقديم محبة الله ورسوله كما قال تعالى { وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ } التوبة ٦٢ ثم قد يقال هذا لم يدخل فى حديث الغيبة لفظا ومعنى وقد يقال دخل فى ذلك الذين خص منه كما يخص العموم اللفظى والعموم المعنوى وسواء زال الحكم لزوال سببه او لوجود ما نعه فالحكم واحد والنزاع فى ذلك يؤول الى اللفظ اذ العلة قد يعنى بها التامة وقد يعنى بها المقتضية والله اعلم واحكم وصلى على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم وقال رحمه الله تعالى فمن الناس من يغتاب موافقة لجلسائه وأصحابه وعشائره مع علمه أن المغتاب برئ مما يقولون أو فيه بعض ما يقولون لكن يرى أنه لو أنكر عليهم قطع المجلس واستنقله أهل المجلس ونفروا عنه فيرى موافقتهم من حسن المعاشرة وطيب المصاحبة وقد يغضبون فيغضب لغضبهم فيخوض معهم ومنهم من يخرج الغيبة فى قوالب شتى تارة فى قالب ديانة وصلاح فيقول ليس لى عادة أن أذكر أحدا الا بخير ولا أحب الغيبة ولا الكذب وإنما أخبركم بأحواله يقول والله إنه مسكين أو رجل جيد ولكن فيه كيت وكيت وربما يقول دعونا منه الله يغفر لنا وله وإنما قصده استنقاظه وهضما لجنابه ويخرجون الغيبة فى قوالب صلاح وديانة يخادعون الله بذلك كما يخادعون مخلوقا وقد رأينا منهم ألوانا كثيرة من هذا وأشباهه ومنهم من يرفع غيره رياء فيرفع نفسه فيقول لو دعوت البارحة فى صلاتي لفلان لما بلغنى عنه كيت وكيت ليرفع نفسه ويضعه عند من يعتقد او يقول فلان بليد الذهن قليل الفهم وقصده مدح نفسه واثبات معرفته وانه أفضل منه ومنهم من يحمله الحسد على الغيبة فيجمع بين أمرين قبيحين الغيبة والحسد واذا اثنى على شخص ازال ذلك عنه بما استطاع من تنقصه فى قالب دين وصلاح أو فى قالب حسد وفجور وقدح ليسقط ذلك عنه ومنهم من يخرج الغيبة فى قالب تمسخر ولعب ليضحك غيره باستهزائه ومحاكاته واستصغار المستهزأ به ومنهم من يخرج الغيبة فى قالب التعجب فيقول تعجبت من فلان كيف لا يفعل كيت وكيت ومن فلان وقع منه كيت وكيت وكيف فعل كيت وكيت فيخرج اسمه فى معرض تعجبه ومنهم من يخرج الاغتمام فيقول مسكين فلان غمنى ما جرى له وما تم له فيظن من يسمعه أنه يغتم له ويتأسف وقلبه منطو على التشفى به ولو قدر لزيد على ما به وربما يذكره عند اعدائه ليشفقوا به وهذا وغيره من أعظم أمراض القلوب والمخادعات لله ولخلفه ومنهم من يظهر الغيبة فى قالب غضب وإنكار منكر فيظهر فى هذا الباب اشياء من زخارف القول وقصده غير ما أظهر والله المستعان^١

لم يأمر بقتال الباغية ابتداء

فالنبى صلى الله عليه وسلم أمر بقتال الخوارج قبل أن يقاتلوا و أما أهل البغي فإن الله تعالى قال فيهم { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَقِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَ ت فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } الحجرات ٩ فلم يأمر بقتال الباغية ابتداء فالإقتتال ابتداء ليس مأمورا به و لكن إذا اقتتلوا أمر بالاصلاح بينهم ثم إن بغت الواحدة قوتلت و لهذا قال من قال من الفقهاء إن البغاة لايبندئون بقتالهم حتى يقاتلوا و أما الخوارج فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم

^١ مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٢٢٥

فيهم أينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجرا عند الله لمن قتلهم يوم القيامة و قال لنن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد وكذلك مانعوا الزكاة فإن الصديق و الصحابة ابتدؤا قتالهم قال الصديق والله لو منعتوني عناقا كانوا يؤدونها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه و هم يقاتلون إذا امتنعوا من أداء الواجبات و إن أقروا بالوجوب ثم تنازع الفقهاء في كفر من منعها و قاتل الامام عليها مع إقراره بالوجوب على قولين هما روايتان عن أحمد كالروايتين عنه في تكفير الخوارج و أما أهل البغي المجرى فلا يكفرون باتفاق أئمة الدين فإن القرآن قد نص على ايمانهم واخوتهم مع وجود الاقتتال و البغي و الله أعلم^١

وجوب السعي بالاصلاح

الواجب على من استجار به مستجير إن كان مظلوما ينصره ولا يثبت أنه مظلوم بمجرد دعواه فطالما اشتكى الرجل وهو ظالم بل يكشف خبره من خصمه وغيره فان كان ظالما رده عن الظلم بالرفق إن أمكن إما من صلح او حكم بالقسط والإبالفة وإن كان كل منهم ظالما مظلوما كأهل الأهواء من قيس و يمن ونحوهم وأكثر المتداعين من اهل الأمصار والبلاد أو كانا جميعا غير ظالمين لشبهة أو تأويل أو غلط وقع فيما بينهما سعى بينهما بالاصلاح او الحكم كما قال الله تعالى {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } ٩ { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } ١٠ { الحجرات ٩ - ١٠ } وقال تعالى {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نُّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا } النساء ١١٤ وقد روى ابو داود في السنن عن النبي أنه قيل له أمن العصبية ان ينصر الرجل قومه في الحق قال لا قال ولكن من العصبية ان ينصر الرجل قومه في الباطل وقال خيركم الدافع عن قومه مالم يأتهم وقال مثل الذي ينصر قومه بالباطل كعبير تردى في بئر فهو يجر بذنبه وقال من سمعتموه يتعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا وكل ما خرج عن دعوة الإسلام والقرآن من نسب أو بلد أو جنس أو مذهب أو طريقة فهو من عزاء الجاهلية بل لما اختصم رجلان من المهاجرين والأنصار فقال المهاجري ياللمهاجرين وقال الانصاري ياللانصار قال النبي أبدوى الجاهلية وأنا بين أظهركم وغضب لذلك غضبا شديدا^٢

الواجب الحكم بين الناس بالعدل

فاذا اختصم رجلان بقول أو فعل وجب ان يقام في امرهما بالقسط قال الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ { النساء ١٣٥ } وقال {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ } المائدة ٨ وقال {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ } الحجرات ٩ الآية وقد روى ان اقتتالهما كان بالجريد والنعال وقد قال تعالى {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نُّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ } النساء ١١٤ الآية وقال {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا } النساء ٥٨ وقال {وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ } الشورى ٤٠ وقال {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ } النحل ١٢٦ الآية فإن كان الشخصان قد اختصما نظر أمرهما فان تبين ظلم أحدهما كان المظلوم بالخيار بين الاستيفاء والعفو والعفو أفضل فان كان

^١ مجموع الفتاوى ج: ٣٥ ص: ٥٧

^٢ مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٣٢٧ - ٣٢٩ و دقائق التفسير ج: ٢ ص: ٤٤ و السياسة الشرعية ج: ١ ص: ٨١

ظلمه بضرب أو لطم فله أن يضربه أو يلطمه كما فعل به عند جماهير السلف وكثير من الأئمة وبذلك جاءت السنة وقد قيل انه يؤدب ولا قصاص في ذلك وان كان قد سبه فله أن يسبه مثل ما سبه إذا لم يكن فيه عدوان على حق محض لله أو على غير الظالم فاذا لعنه أو سماه باسم كلب ونحوه فله أن يقول له مثل ذلك فاذا لعن اباه لم يكن له أن يلعن اباه لأنه لم يظلمه وان افترى عليه كذبا لم يكن له ان يفتري عليه كذبا لأن الكذب حرام لحق الله كما قال كثير^١ قال الله تعالى { وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا } الإسراء ٣٣ قيل في التفسير لا يقتل غير قاتله وروى عن أبي شريح الخزاعي رضى الله عنه قال قال رسول الله من أصيب بدم او خبل الخبل الجراح فهو بالخيار بين إحدى ثلاث فان أراد الرابعة فخذوا على يديه ان يقتل او يعفو او يأخذ الدية فمن فعل شيئا من ذلك فعاد فان له جهنم خالدا فيها أبدا رواه أهل السنن قال الترمذى حديث حسن صحيح فمن قتل بعد العفو او أخذ الدية فهو أعظم جرما ممن قتل ابتداء حتى قال بعض العلماء انه يجب قتله حدا ولا يكون أمره لأولياء المقتول قال الله تعالى { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بِعَدْوٍ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ } البقرة ١٧٨ قال العلماء إن أولياء المقتول تغلى قلوبهم بالغيظ حتى يؤثروا ان يقتلوا القاتل وأولياءه ربما لم يرضوا بقتل القاتل بل يقتلون كثيرا من أصحاب القاتل كسيد القبيلة ومقدم الطائفة فيكون القاتل قد اعتدى في الابتداء وتعدى هؤلاء في الاستيفاء كما كان يفعله أهل الجاهلية الخارجون عن الشريعة في هذه الأوقات من الأعراب والحاضرة وغيرهم وقد يستعظمون قتل القاتل لكونه عظيما أشرف من المقتول فيفضى ذلك إلى أن أولياء المقتول يقتلون من قدروا عليه من أولياء القاتل ربما حالف هؤلاء قوما واستعانوا بهم وهؤلاء قوما فيفضى الى الفتنة والعداوات العظيمة وسبب ذلك خروجهم عن سنن العدل الذى هو القصاص في القتل فكتب الله علينا القصاص وهو المساواة والمعادلة في القتل وأخبر ان فيه حياة فانه يحقن دم غير القاتل من أولياء الرجلين وأيضا فاذا علم من يريد القتل أنه يقتل كف عن القتل وقد روى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه وعمر بن شبيب عن أبيه عن جده رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال المؤمنون تتكافأ دماؤهم وهم يد على من سواهم ويسعى بذمتهم أدناهم ألا لا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد في عهده رواه أحمد وأبو داود وغيرهما من أهل السنن ففضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان المسلمين تتكافأ دماؤهم أى تتساوى وتتعدل فلا يفضل عربى على عجمى ولا قرشى او هاشمى على غيره من المسلمين ولا حر اصلى على مولى عتيق ولا عالم او أمير على أمى او مأمور وهذا متفق عليه بين المسلمين بخلاف ما كان عليه أهل الجاهلية وحكام اليهود فانه كان يقرب مدينة النبي صلى الله عليه وسلم صنفان من اليهود قريظة والنضير وكانت النضير تفضل على قريظة فى الدماء فتحاكموا الى النبي فى ذلك وفى حد الزنا فانهم كانوا قد غيروه من الرجم إلى التحميم وقالوا إن حكم بينكم بذلك كان لكم حجة والا فأنتم قد تركتم حكم التوراة فأنزل الله تعالى { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ } المائدة ٤١ إلى قوله { فَإِنْ جَاؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } المائدة ٤٢ إلى قوله { فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَخَشَوْا اللَّهَ وَلَا تَسْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ } { ٤٤ } { ٤٥ } { المائدة ٤٤ - ٤٥ } فبين سبحانه وتعالى أنه سوى بين نفوسهم ولم يفضل منهم نفسا على أخرى كما كانوا يفعلونه إلى قوله { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَا } المائدة ٤٨ الى قوله { أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ } المائدة ٥٠ فحكم الله سبحانه فى دماء المسلمين أنها كلها سواء خلاف ما عليه أهل الجاهلية وأكثر سبب الأهواء الواقعة بين الناس فى البوادي والحواضر إنما هو البغى وترك العدل فان إحدى الطائفتين قد يصيب بعضها بعضا من لأخرى دما او مالا او تعلق عليهم بالباطل ولا تنصفها ولا تقتصر الأخرى على استيفاء الحق فالواجب فى كتاب الله الحكم بين الناس فى الدماء

^١مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٥٤٦

مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٥٤٦

والأموال وغيرها بالقسط الذي أمر الله به ومحو ما كان عليه كثير من الناس من حكم الجاهلية وإذا أصلح مصلح بينهما فليصلح بالعدل كما قال الله تعالى { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } {٩} { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ } {١٠} { الحجرات ٩ - ١٠ } وينبغي أن يطلب العفو من أولياء المقتول فإنه أفضل لهم كما قال تعالى { وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ } { المائدة ٤٥ } قال أنس رضى الله عنه ما رفع إلى رسول الله أمر فيه القصاص إلا أمر فيه بالعفو رواه أبو داود وغيره وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله وهذا الذي ذكرناه من التكافؤ هو في المسلم الحر مع المسلم الحر فأما الذمي فجمهور العلماء على أنه ليس بكفء للمسلم كما أن المستأمن الذي يقدم من بلاد الكفار رسولا أو تاجرا ونحو ذلك ليس بكفء له وفاقا ومنهم من يقول بل هو كفء له وكذلك النزاع في قتل الحر بالعبد^١

إذا انقطع عن الناس نور النبوة وقعوا في ظلمة الفتن

قال تعالى { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } {٩} { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } {١٠} { الحجرات ٩ - ١٠ } فاذا انقطع عن الناس نور النبوة وقعوا في ظلمة الفتن وحدثت البدع و الفجور و وقع الشر بينهم كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال سألت ربي ثلاثا فأعطاني اثنتين و منعني الثالثة سألته ان لا يهلك أمتي بسنة عامة فأعطانيها و سألته ان لا يسلط عليهم عدوا من غيرهم فبجتاحهم فأعطانيها و سألته ان لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها و البأس مشتق من البؤس قال الله تعالى { قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ } { الأنعام ٦٥ } و في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه لما نزل قوله تعالى { قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ } { الأنعام ٦٥ } قال أعوذ بوجهك { أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ } { الأنعام ٦٥ } قال أعوذ بوجهك { أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ } { الأنعام ٦٥ } قال هاتان اهون فدل على أنه لا بد أن يلبسهم شيعا و يذيق بعضهم بأس بعض مع براءة الرسول في هذه الحال وهم فيها في جاهلية و لهذا قال الزهري و قعت الفتنة و أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم متوافرون فأجمعوا على أن كل دم أو مال أو فرج أصيب بتأويل القرآن فهو هدر انزلوهم منزلة الجاهلية و قد روى مالك بإسناده الثابت عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول ترك الناس العمل بهذه الآية تعنى قوله تعالى { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا } { الحجرات ٩ } فإن المسلمين لما اقتتلوا كان الواجب الإصلاح بينهم كما أمر الله تعالى فلما لم يعمل بذلك صارت فتنة و جاهلية^٢

لا يجوز تكفير المسلم بذنب فعله ولا بخطأ فيه

ولا يجوز تكفير المسلم بذنب فعله ولا بخطأ فيه كالمسائل التي تنازع فيها أهل القبلة فإن الله تعالى قال { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } { البقرة ٢٨٥ } وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى أجاب هذا الدعاء

^١ مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٣٧٤ - ٣٧٨ و السياسة الشرعية ج: ١ ص: ١٢٥

^٢ مجموع الفتاوى ج: ١٧ ص: ٣١٠ - ٣١١

وغفر للمؤمنين خطأهم والخوارج المارقون الذين أمر النبي بقتالهم قاتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أحد الخلفاء الراشدين واتفق على قتالهم أئمة الدين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ولم يكفرهم علي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص وغيرهما من الصحابة بل جعلوهم مسلمين مع قتالهم ولم يقاتلهم علي حتى سفكوا الدم الحرام وأغاروا على أموال المسلمين فقاتلهم لدفع ظلمهم وبغيهم لا لأنهم كفار ولهذا لم يب حريمهم ولم يغنم أموالهم وإذا كان هؤلاء الذين ثبت ضلالهم بالنص والإجماع لم يكفروا مع أمر الله ورسوله بقتالهم فكيف بالطوائف المختلفين الذين أشنبه عليهم الحق في مسائل غلط فيها من هو أعلم منهم فلا يحل لأحد من هذه الطوائف أن تكفر الأخرى ولا تستحل دمه وماله وإن كانت بدعة محققة فكيف إذا كانت المكفرة لها مبتدعة أيضا وقد تكون بدعة هؤلاء أغلط وقد تكون بدعة هؤلاء أغلط والغالب أنهم جميعا جهال بحقائق ما يختلفون فيه والأصل أن دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم محرمة من بعضهم على بعض لا تحل إلا بإذن الله ورسوله قال النبي صلى الله عليه وسلم لما خطبهم في حجة الوداع إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا وقال صلى الله عليه وسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه وقال من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فهو المسلم له ذمة الله ورسوله وقال إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال أنه أراد قتل صاحبه وقال لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض وقال إذا قال المسلم لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما وهذه الأحاديث كلها في الصحاح وإذا كان المسلم متأولا في القتال أو التكفير لم يكفر بذلك كما قال عمر بن الخطاب لحاطب بن أبي بلتعة يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق فقال النبي صلى الله عليه وسلم أنه قد شهد بدرا وما يدريك أن الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم وهذا في الصحيحين وفيها أيضا من حديث الإفك أن أسيد بن الحضير قال لسعد بن عباد أنك منافق تجادل عن المنافقين واختصم الفريقان فأصلح النبي صلى الله عليه وسلم بينهم فهؤلاء البديريون فيهم من قال لآخر منهم إنك منافق ولم يكفر النبي لا هذا ولا هذا بل شهد للجميع بالجنة وكذلك ثبت في الصحيحين عن أسامة بن زيد أنه قتل رجلا بعد ما قال لا إله إلا الله وعظم النبي ذلك لما أخبروه وقال يا أسامة أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله وكرر ذلك عليه حتى قال أسامة تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ ومع هذا لم يوجب عليه قودا ولا دية ولا كفارة لأنه كان متأولا ظن جواز قتل ذلك القاتل لظنه أنه قالها تعودا فهكذا السلف قاتل بعضهم بعضها من أهل الجمل وصفين ونحوهم وكلهم مسلمون مؤمنون كما قال تعالى **{ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } الحجرات ٩** فقد بين الله تعالى أنهم مع اقتتالهم وبغي بعضهم على بعض إخوة مؤمنون وأمر بالإصلاح بينهم بالعدل ولهذا كان السلف مع الاقتتال يوالي بعضهم بعضا مولاة الدين لا يعادون كمعاداة الكفار فيقبل بعضهم شهادة بعض ويأخذ بعضهم العلم عن بعض ويتوارثون ويتناكحون ويتعاملون بمعاملة المسلمين بعضهم مع بعض مع ما كان بينهم من القتال والتلاعن وغير ذلك وقد ثبت في الصحيح أن النبي سأل ربه أن لا يهلك أمته بسنة عامة فأعطاه ذلك وسأله أن لا يسلط عليهم عدوا من غيرهم فأعطاه ذلك وسأله أن لا يجعل بأسهم بينهم فلم يعط ذلك وأخبر أن الله لا يسلط عليهم عدوا من غيرهم يغلبهم كلهم حتى يكون بعضهم يقتل بعضا وبعضهم يسبي بعضا وثبت في الصحيحين لما نزل قوله تعالى **{ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ } الأنعام ٦٥** قال أعوذ بوجهك **{ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ } الأنعام ٦٥** قال أعوذ بوجهك **{ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ } الأنعام ٦٥** قال هاتان أهون هذا مع أن الله أمر بالجماعة الائتلاف ونهى عن البدعة والاختلاف وقال **{ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَّسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ } الأنعام ١٥٩** وقال النبي عليكم بالجماعة فإن يد الله على الجماعة وقال الشيطان مع الواحد وهو من الإثنين أبعد وقال الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم والذئب إنما يأخذ القاصية والنائية من الغنم فالواجب على المسلم إذا صار في مدينة من مدائن المسلمين أن يصلي معهم الجمعة والجماعة ويوالي المؤمنين ولا يعاديهم وإن رأى بعضهم ضالا أو غاويا وأمكن أن يهديه ويرشده فعل ذلك وإلا فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها وإذا كان قادرا على أن يولي في إمامة المسلمين الأفضل ولاه وإن قدر أن يمنع من يظهر البدع والفجور منعه^١

الفاسق مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته

ومن أصول أهل السنة والجماعة أن الدين والإيمان قول وعمل قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح وأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية وهم مع ذلك لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر كما يفعله الخوارج بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي كما قال سبحانه **{ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ }** **{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ }** **{ الحجرات ٩-١٠ }** ولا يسلبون الفاسق الملى الإسلام بالكلية ولا يخلدونه في النار كما تقوله المعتزلة بل الفاسق يدخل في اسم الإيمان المطلق كما في قوله **{ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ }** النساء ٩٢ وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق كما في قوله تعالى **{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ }** الأنفال ٢ وقوله صلى الله عليه وسلم لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن ونقول هو مؤمن ناقص الإيمان أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته فلا يعطى الاسم المطلق ولا يسلب مطلق الاسم بكبيرته^١

الناس في الفاسق من أهل الملة مثل الزاني والسارق والشارب ونحوهم ثلاثة أقسام طرفين ووسط أحد الطرفين أنه ليس بمؤمن بوجه من الوجوه ولا يدخل في عموم الأحكام المتعلقة بإسم الإيمان ثم من هؤلاء من يقول هو كافر كاليهودي والنصراني وهو قول الخوارج ومنهم من يقول ننزله منزلة بين المنزلتين وهي منزلة الفاسق وليس هو بمؤمن ولا كافر وهم المعتزلة وهؤلاء يقولون أن أهل الكبائر يخلدون في النار وان أحدا منهم لا يخرج منها وهذا من مقالات أهل البدع التي دل الكتاب والسنة واجماع الصحابة والتابعين لهم بإحسان على خلافها قال الله تعالى **{ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا }** **{ الحجرات ٩ }** إلى قوله **{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ }** **{ الحجرات ١٠ }** فسامهم مؤمنين وجعلهم أخوة مع الاقتتال وبغي بعضهم على بعض وقال الله تعالى **{ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ }** النساء ٩٢ ولو اعتق مذنبا جزأ عتقه باجماع العلماء ولهذا يقول علماء السلف في المقدمات الاعتقادية لا تكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ولا نخرجه من الإسلام بعمل وقد ثبت الزنا والسرقة وشرب الخمر على أناس في عهد النبي ولم يحكم فيهم حكم من كفر ولا قطع الموالاة بينهم وبين المسلمين بل جلد هذا وقطع هذا وهو في ذلك يستغفر لهم ويقول لا تكونوا أعوان الشيطان على أخيكم وأحكام الإسلام كلها مرتبة على هذا الأصل^٢

فبعض الناس يكون معه شعبة من شعب الكفر ومعه إيمان أيضا وعلى هذا ورد عن النبي في تسمية كثير من الذنوب كفرا مع أن صاحبها قد يكون معه أكثر من مثقال ذرة من إيمان فلا يخلد في النار كقوله سباب المسلم فسوق وقتاله كفر وقوله لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضهم رقاب بعض وهذا مستفيض عن النبي في الصحيح من غير وجه فانه أمر في حجة الوداع أن ينادى به في الناس فقد سمي من يضرب بعضهم رقاب بعض بلا حق كفارا وسمى هذا الفعل كفرا ومع هذا فقد قال تعالى **{ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا }** **{ الحجرات ٩ }** إلى قوله **{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ }** **{ الحجرات ١٠ }** فبين أن هؤلاء لم يخرجوا من الإيمان بالكلية ولكن فيهم ما هو كفر وهي هذه الخصلة كما قال بعض الصحابة كفر دون كفر وكذلك قوله من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما فقد سماه أخاه حين القول وقد أخبر أن أحدهما باء بها فلو خرج أحدهما عن الإسلام بالكلية لم يكن أخاه بل فيه كفر^٣

^١العقيدة الواسطية ج: ١ ص: ٣٩ و مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ١٥١-١٥٢

^٢مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٦٧٠-٦٧١

^٣مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٣٥٥

ذو الكبيرة لا يكفر مع الايمان

قال تعالى { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } {٩} { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } {١٠} { الحجرات ٩-١٠ } انه قد تقرر من مذهب أهل السنة والجماعة ما دل عليه الكتاب والسنة أنهم لا يكفرون احدا من أهل القبلة بذنب ولا يخرجونه من الاسلام بعمل إذا كان فعلا منهيا عنه مثل الزنا والسرقة وشرب الخمر ما لم يتضمن ترك الايمان واما إن تضمن ترك ما أمر الله بالايمن به مثل الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الوت فانه يكفر به وكذلك يكفر بعدم اعتقاد وجوب الواجبات الظاهرة المتواترة وعدم تحريم المحرمات الظاهرة المتواترة فان قلت فالذنوب تنقسم الى ترك مأمور به وفعل منهي عنه قلت لكن المأمور به إذا تركه العبد فاما ان يكون مؤمنا بوجوبه أو لا يكون فان كان مؤمنا بوجوبه تاركا لادائه فلم يترك الواجب كله بل ادى بعضه وهو الايمان به وترك بعضه وهو العمل به وكذلك المحرم إذا فعله فاما أن يكون مؤمنا بتحريمه أو لا يكون فان كان مؤمنا بتحريمه فاعلا له فقد جمع بين اداء واجب وفعل محرم فصار له حسنة وسيئة والكلام إنما هو فيما لا يعذر بترك الايمان بوجوبه وتحريمه من الامور المتواترة واما من لم يعتقد ذلك فيما فعله أو تركه بتأويل أو جهل يعذر به فالكلام في تركه هذا الاعتقاد كالكلام فيما فعله أو تركه بتأويل أو جهل يعذر به واما كون ترك الايمان بهذه الشرائع كفرا وفعل المحرم المجرد ليس كفرا فهذا مقرر في موضعه وقد دل على ذلك كتاب الله في قوله { فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَأِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ } {التوبة ١١} اذ الاقرار بها مراد بالاتفاق وفي ترك الفعل نزاع وكذلك قوله { وَبَلَّغْ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ } آل عمران ٩٧ فان عدم الايمان بوجوبه وتركه كفر والايمن بوجوبه وفعله يجب أن يكون مرادا من هذا النص كما قال من قال من السلف هو من لا يرى حجه برا ولا تركه اثما وأما الترك المجرد ففيه نزاع وأيضا حديث ابي بردة بن نيار لما بعثه النبي الى من تزوج امرأة ابيه فامرة ان يضرب عنقه ويخمس ماله فإن تخميس المال دل على أنه كان كافرا لا فاسقا وكفراه بأنه لم يحرم ما حرم الله ورسوله وكذلك الصحابة مثل عمر وعلي وغيرهما لما شرب الخمر قدامة ابن عبد الله وكان بدريا وتأول انها تباح للمؤمنين المصلحين وانه منهم بقوله { لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } المائدة ٩٣ الآية فاتفق الصحابة على أنه إن أصر قتل وان تاب جلد فتاب فجلد واما الذنوب ففي القرآن قطع السارق وجلد الزاني ولم يحكم بكفرهم وكذلك فيه اقتتال الطائفتين مع بغي احدهما على الأخرى والشهادة لهما بالايمن والاخوة وكذلك فيه قاتل النفس الذي يجب عليه القصاص جعله أبا وقد قال الله فيه { فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ } {البقرة ١٧٨} فسامه اخا وهو قاتل وقد ثبت في الصحيحين حديث ابي ذر لما قال له النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وان زنا وان سرق وان شرب الخمر على رغم انف ابي ذر وثبت في الصحاح حديث ابي سعيد وغيره في الشفاعة في أهل الكبائر وقوله اخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال برة من ايمن مثقال حبة من ايمن مثقال ذرة من ايمن فهذه النصوص كما دلت على أن ذا الكبيرة لا يكفر مع الايمان وانه يخرج من النار بالشفاعة خلافا للمبتدعة من الخوارج في الاولى ولهم وللمعتزلة في الثانية نزاع فقد دلت على أن الايمان الذي خرجوا به من النار هو حسنة مأمور بها وأنه لا يقاومها شيء من الذنوب^١

مذهب من كفر أهل القبلة بالذنوب باطل

لما قتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان وسار على بن ابي طالب إلى العراق وحصل بين الأمة من الفتنة والفرقة يوم الجمل ثم يوم صفين ما هو مشهور خرجت الخوارج المارقون على الطائفتين جميعا وكان النبي قد أخبر

^١ مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٩١-٩٣

بهم وذكر حكمهم قال الإمام احمد صح الحديث في الخوارج من عشرة أوجه وهذه العشرة أخرجها مسلم في صحيحه موافقة لاحمد وروى البخاري منها عدة أوجه وروى أحاديثهم أهل السنن والمسانيد من وجوه آخر ومن أصح حديثهم حديث علي بن ابي طالب وابي سعيد الخدري ففي الصحيحين عن علي بن ابي طالب أنه قال إذا حدثتكم عن رسول الله حديثاً فوالله لأن أخرج من السماء إلى الأرض أحب إلي من أن أكذب عليه وإن حدثتكم فيما بيني وبينكم فإن الحرب خدعة واني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول سيخرج قوم في آخر الزمان أحداث الاسنان سفهاء الاحلام يقولون من خير قول البرية لا يجاوز إيمانهم حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم اجرا عند الله لمن قتلهم يوم القيامة وفي الصحيحين عن ابي سعيد قال بعث علي بن ابي طالب إلى النبي من اليمن بذهبية في ادم مقروض لم تحصل من ترابها فقال فقسما بين أربعة نفر فقال رجل من اصحابه كنا أحق بهذا من هؤلاء قال فبلغ ذلك النبي فقال الا تأمنوني وانا امين من في السماء يأتيني خبر السماء صباحا ومساء قال فقام رجل غائر العينين مشرف الوجنتين ناشز الجبهة كثر اللحية مخلوق الرأس مشمر الازار فقال يا رسول الله اتق الله فقال ويلك أولست أحق أهل الأرض أن يتقي الله قال ثم ولى الرجل فقال خالد بن الوليد يا رسول الله الا اضرب عنقه فقال لا لعله أن يكون يصلي قال خالد وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه فقال رسول الله اني لم أؤمر أن انقب عن قلوب الناس ولا اشق بطونهم قال ثم نظر إليه وهو مقف فقال انه يخرج من ضئضىء هذا قوم يتلون كتاب الله رطبا لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية قال أظنه قال لئن ادركتهم لأقتلنهم قتل عاد اللفظ لمسلم ولمسلم في بعض الطرق عن ابي سعيد أن النبي ذكر قوما يكونون في أمته يخرجون في فرقة من الناس سيماهم التحليق ثم قال شر الخلق أو من شر الخلق يقتلهم ادنى الطائفتين إلى الحق قال ابو سعيد أنتم قتلتموهم يا اهل العراق وفي لفظ له تقتلهم اقرب الطائفتين إلى الحق وهذا الحديث مع ما ثبت في الصحيح عن ابي بكر أن النبي قال للحسن بن علي ان ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين طائفتين عظيمتين من المؤمنين فبين أن كلا الطائفتين كانت مؤمنة وأن اصطلاح الطائفتين كما فعله الحسن كان أحب إلى الله سبحانه ورسوله من اقتتالهما وأن إقتتالهما وإن لم يكن مأمورا به فعلى بن ابي طالب وأصحابه أقرب إلى الحق من معاوية وأصحابه وأن قتال الخوارج مما أمر به صلى الله عليه وسلم ولذلك اتفق على قتالهم الصحابة والأئمة وهؤلاء الخوارج لهم اسماء يقال لهم الحرورية لأنهم خرجوا بمكان يقال له حروراء ويقال لهم أهل النهروان لأن عليا قاتلهم هناك ومن أصنافهم الاباضية أتباع عبدالله بن اباض و الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق و النجدات أصحاب نجدة الحروري وهم أول من كفر أهل القبلة بالذنوب بل بما يروونه هم من الذنوب واستحلوا دماء أهل القبلة بذلك فكانوا كما نعتهم النبي يقتلون اهل الاسلام ويدعون اهل الاوثان وكفروا علي بن ابي طالب وعثمان بن عفان ومن والاهما وقتلوا علي بن ابي طالب مستحلين لقتله قتله عبدالرحمن بن ملجم المرادي منهم وكان هو وغيره من الخوارج مجتهدين في العبادة لكن كانوا جهالا فارقوا السنة والجماعة فقال هؤلاء ما الناس إلا مؤمن أو كافر والمؤمن من فعل جميع الواجبات وترك جميع المحرمات فمن لم يكن كذلك فهو كافر مخلد في النار ثم جعلوا كل من خالف قولهم كذلك فقالوا أن عثمان وعليا ونحوهما حكموا بغير ما أنزل الله وظلموا فصاروا كفارا ومذهب هؤلاء باطل بدلائل كثيرة من الكتاب والسنة فإن الله سبحانه أمر بقطع يد السارق دون قتله ولو كان كافرا مرتدا لوجب قتله لأن النبي قال من بدل دينه فاقتلوه وقال لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث كفر بعد اسلام وزنا بعد احصان أو قتل نفس يقتل بها وأمر سبحانه أن يجلد الزاني والزانية مائة جلدة ولو كانا كافرين لأمر بقتلها وأمر سبحانه بأن يجلد قاذف المحصنة ثمانين جلدة ولو كان كافرا لأمر بقتله وكان النبي صلى الله عليه وسلم يجلد شارب الخمر ولم يقتله بل قد ثبت عنه في صحيح البخاري وغيره أن رجلا كان يشرب الخمر وكان اسمه عبدالله حمارا وكان يضحك النبي وكان كلما أتى به إليه جلده فأتى به إليه مرة فلعنه رجل فقال النبي لا تلعه فإنه يحب الله ورسوله فنهى عن لعنه بعينه وشهد له بحب الله ورسوله مع أنه قد لعن شارب الخمر عموما وهذا من أجود ما يحتج به على أن الأمر بقتل الشارب في الثالثة و الرابعة منسوخ لأن هذا أتى به ثلاث مرات وقد أعيا الأئمة الكبار جواب هذا الحديث ولكن نسخ الوجوب لا يمنع الجواز فيجوز أن يقال يجوز قتله إذا رأى الإمام المصلحة في ذلك فان ما بين الأربعين إلى الثمانين ليس حدا مقدرا في أصح قولي العلماء كما هو مذهب الشافعي وأحمد في إحدى الروايتين بل الزيادة على الأربعين إلى الثمانين ترجع إلى إجتهد الإمام فيفعلها عند المصلحة كغيرها من أنواع التعزير وكذلك صفة الضرب فانه يجوز جلد الشارب بالجريد والنعال وأطراف الثياب بخلاف الزاني والقاذف فيجوز أن يقال قتله في الرابعة من هذا الباب و أيضا فإن الله سبحانه قال

{ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَعَثَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءت فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } { ٩ } إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } { ١٠ } الحجرات ٩ - ١٠ فقد وصفهم بالإيمان والأخوة وأمرنا بالاصلاح بينهم فلما شاع في الأمة أمر الخوارج تكلمت الصحابة فيهم ورووا عن النبي صلى الله عليه وسلم الأحاديث فيهم وبينوا ما في القرآن من الرد عليهم وظهرت بدعتهم في العامة فجاءت بعدهم المعتزلة الذين اعتزلوا الجماعة بعد موت الحسن البصري وهم عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء الغزال وأتباعهما فقالوا أهل الكباير مخلدون في النار كما قالت الخوارج ولا نسميهم لا مؤمنين ولا كفارا بل فساق ننزلهم منزلة بين منزلتين وأنكروا شفاعة النبي لأهل الكباير من أمته وأن يخرج من النار بعد أن يدخلها قالوا ما الناس إلا رجلان سعيد لا يعذب أو شقى لا ينعم والشقى نوعان كافر وفاسق ولم يوافقوا الخوارج على تسميتهم كفارا وهؤلاء يرد عليهم بمثل ما ردوا به على الخوارج فيقال لهم كما أنهم قسموا الناس إلى مؤمن لا ذنب له وكافر لا حسنة له قسمتم الناس إلى مؤمن لا ذنب له وإلى كافر وفاسق لا حسنة له فلو كانت حسنات هذا كلها محبطة وهو مخلد في النار لإستحق المعادة المحضه بالقتل والاسترقاق كما يستحقها المرتد فان هذا قد أظهر دينه بخلاف المنافق وقد قال تعالى في كتابه { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } النساء ٤٨ فجعل ما دون ذلك الشرك معلقا بمشيتته ولا يجوز أن يحمل هذا على التائب فإن التائب لا فرق في حقه بين الشرك وغيره كما قال سبحانه في الآية الأخرى { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا } الزمر ٥٣ فهنا عمم وأطلق لأن المراد به التائب وهناك خص وعلق وقال تعالى { ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ } { ٣٢ } جَنَاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِيَبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ } { ٣٣ } وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ } { ٣٤ } الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ } { ٣٥ } فاطر ٣٢-٣٥ فقد قسم سبحانه الأمة التي أورها الكتاب واصطفاها ثلاثة أصناف ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات وهؤلاء الثلاثة ينطبقون على الطبقات الثلاث المذكورة في حديث جبريل الاسلام و الايمان و الاحسان كما سنذكره ان شاء الله ومعلوم أن الظالم لنفسه ان أريد به من اجتنب الكباير والتائب من جميع الذنوب فذلك مقتصد أو سابق فانه ليس أحد من بنى آدم يخلو عن ذنب لكن من تاب كان مقتصدا أو سابقا كذلك من اجتنب الكباير كفرت عنه السيئات كما قال تعالى { إِن تَجْتَنِبُوا كِبَايِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ } النساء ٣١ فلا بد أن يكون هناك ظالم لنفسه موعود بالجنة ولو بعد عذاب يطهر من الخطايا فان النبي ذكر أن ما يصيب المؤمن في الدنيا من المصائب مما يجزى به ويكفر عنه خطاياه كما في الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا هم ولا حزن ولا غم ولا أذى حتى الشوكة يشاكها الا كفر الله بها من خطاياها وفي المسند وغيره أنه لما نزلت هذه الآية { مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ } النساء ١٢٣ قال أبو بكر يا رسول الله جاءت فاطمة الظهر وأينا لم يعمل سوءا فقال يا أبا بكر ألسنت تتصب ألسنت تحزن ألسنت تصيبك اللأواء فذلك مما تجزون به و أيضا فقد تواترت الأحاديث عن النبي في أنه يخرج أقوام من النار بعد ما دخلوها وأن النبي يشفع في أقوام دخلوا النار وهذه الأحاديث حجة على الطائفتين الوعيدية الذين يقولون من دخلها من أهل التوحيد لم يخرج منها وعلى المرجئة الواقعة الذين يقولون لا ندري هل يدخل من أهل التوحيد النار أحد أم لا كما يقول ذلك طوائف من الشيعة والأشعرية كالقاضي أبي بكر وغيره وأما ما يذكر عن غلاة المرجئة أنهم قالوا لن يدخل النار من أهل التوحيد أحد فلا نعرف قائلا مشهورا من المنسويين الى العلم يذكر عنه هذا القول و أيضا فان النبي قد شهد لشارب الخمر المجلود مرات بأنه يحب الله ورسوله ونهى عن لعنته ومعلوم أن من أحب الله ورسوله أحبه الله ورسوله بقدر ذلك وأيضا فان الذين قدفوا عائشة أم المؤمنين كان فيهم مسطح بن اثاثة وكان من أهل بدر وقد أنزل الله فيه لما حلف أبو بكر أن لا يصله { وَلَا يَأْتِلِ أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَّا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } النور ٢٢ وان قيل ان مسطحا وأمثاله تابوا لكن الله لم يشترط في الأمر بالعفو عنهم والصفح والاحسان اليهم التوبة وكذلك حاطب بن أبي بلتعة كاتب المشركين باخبار النبي فلما أراد عمر قتله قال النبي أنه قد شهد بدرا وما يدريك ان الله قد أطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم وكذلك ثبت عنه في الصحيح أنه قال لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة وهذه النصوص تقتضى أن السيئات مغفورة بتلك الحسنات ولم يشترط مع ذلك توبة والا فلا اختصاص لأولئك بهذا

والحديث يقتضى المغفرة بذلك العمل واذا قيل ان هذا لأن أحدا من أولئك لم يكن له الا صغائر لم يكن ذلك من خصائصه أيضا وان هذا يستلزم تجويز الكبيرة من هؤلاء المغفور لهم و أيضا قد دلت نصوص الكتاب والسنة على أن عقوبة الذنوب تزول عن العبد بنحو عشرة أسباب أحدها التوبة وهذا متفق عليه بين المسلمين

" أن ترك القتال فى الفتنة خير "

وقد ثبت عنه فى الصحيح أنه قال عن الحسن ان ابنى هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين وفى الصحيحين عن عمار أنه قال تقتله الفئة الباغية وقد قال تعالى فى القران { وَإِنَّ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاتٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } { الحجرات ٩ } فثبت بالكتاب والسنة واجماع السلف على أنهم مؤمنون مسلمون وأن على بن أبى طالب والذين معه كانوا أولى بالحق من الطائفة المقاتلة له والله أعلم ^٢

كان على واصحابه أولى بالحق وأقرب الى الحق من معاوية واصحابه كما فى الصحيحين عن أبى سعيد عن النبى قال تمرق مارقة على حين فرقة من المسلمين فتقتلهم أولى الطائفتين بالحق وروى فى الصحيح أيضا أدنى الطائفتين الى الحق وكان سب على ولعنه من البغى الذى استحققت به الطائفة أن يقال لها الطائفة الباغية كما رواه البخارى فى صحيحه عن خالد الحذاء عن عكرمة قال قال لى ابن عباس ولاينه على انطلقا الى أبى سعيد واسمعا من حديثه فانطلقنا فإذا هو فى حائط يصلحه فأخذ رداءه فاحتبى به ثم أنشأ يحدثنا حتى اذا أتى على ذكر بناء المسجد فقال كنا نحمل لبنة لبنة وعمار لبنتين لبنتين فرأه النبى فجعل يفض التراب عنه ويقول ويح عمار تقتله الفئة الباغية يدعوهم الى الجنة ويدعونه الى النار قال يقول عمار أعوذ بالله من الفتن ورواه مسلم عن أبى سعيد أيضا قال أخبرنى من هو خير منى أبو قتادة أن رسول الله قال لعمار حين جعل يحفر الخندق جعل يمسح رأسه ويقول يؤس ابن سمية تقتله فئة باغية ورواه مسلم أيضا عن أم سلمة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال تقتل عمارا الفئة الباغية وهذا أيضا يدل على صحة أمانة على ووجوب طاعته وأن الداعى إلى طاعته داع إلى الجنة والداعى إلى مقاتلته داع إلى النار وإن كان متأولا وهو دليل على أنه لم يكن يجوز قتال على وعلى هذا فمقاتله مخطيء وإن كان متأولا أو باغ بلا تأويل وهو أصح القولين لأصحابنا وهو الحكم يتخطئه من قاتل عليا وهو مذهب الأئمة الفقهاء الذين فرعوا على ذلك قتال البغاة المتأولين وكذلك انكر يحيى بن معين على الشافعى استدلاله بسيرة على فى قتال البغاة المتأولين قال يجعل طلحة والزبير بغاة رد عليه الامام احمد فقال ويحك وأى شيء يسعه ان يضع فى هذا المقام يعنى ان لم يقتد بسيرة على فى ذلك لم يكن معه سنة من الخلفاء الراشدين فى قتال البغاة والقول الثانى أن كلا منهما مصيب وهذا بناء على قول من يقول كل مجتهد مصيب وهو قول طوائف من أهل الكلام من المعتزلة والاشعرية وفيها قول ثالث ان المصيب واحد لا بعينه ذكر الأقوال الثلاثة ابن حامد والقاضى وغيرهما وهذا القول يشبه قول المتوقفين بين فى خلافة على من أهل البصرة وأهل الحديث وأهل الكلام كالكرامية الذين يقولون كلاهما كان إماما ويجوزون عقد الخلافة لثنتين لكن المنصوص عن أحمد تبديع من توقف فى خلافة على وقال هو أضل من حمار أهله وأمر بهجرانه ونهى عن مناكحته ولم يتردد احمد ولا أحد من أئمة السنة فى انه ليس غير على أولى بالحق منه ولا شكوا فى ذلك فتصويب أحدهما لا بعينه تجويز لأن يكون غير على أولى منه بالحق وهذا لا يقوله إلا مبتدع ضال فيه نوع من النصب وإن كان متأولا لكن قد يسكت بعضهم عن تخطئة احد كما يمسون عن ذمه والطعن عليه امساكا عما شجر بينهم وهذا يشبه قول من يصوب الطائفتين ولم يسترب أئمة السنة وعلماء الحديث أن عليا أولى بالحق وأقرب اليه كما دل

^١ مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٤٧٩-٤٨٧

^٢ مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ٤٣٣

عليه النص وإن استرابوا في وصف الطائفة الأخرى بظلم أو بغى ومن وصفها بالظلم والبغى لما جاء من حديث عمار جعل المجتهد في ذلك من أهل التأويل يبقى أن يقال فإله تعالى قد أمر بقتال الطائفة الباغية فيكون قتالها كان واجبا مع على والذين قعدوا عن القتال هم جملة أعيان الصحابة كسعد وزيد وابن عمر وأسامة ومحمد بن مسلمة وأبي بكر وهم يروون النصوص عن النبي في القعود عن القتال في الفتنة وقوله القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الساعي والساعي فيها خير من الموضع وقوله يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن وأمره لصاحب السيف عند الفتنة أن يتخذ سيفاً من خشب وبحديث أبي بكره للأحنف بن قيس لما أراد أن يذهب ليقاتل مع علي وهو قوله إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار الحديث والإحتجاج على ذلك بقوله لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض وهذا مذهب أهل الحديث وعامة أئمة السنة حتى قال لا يختلف أصحابنا أن قعود على عن القتال كان أفضل له لو قعد وهذا ظاهر من حاله في تلومه في القتال وتبرمه به ومراجعة الحسن ابنه له في ذلك وقوله له ألم أنك يا أبت وقوله لله در مقام قامه سعد بن مالك وعبدالله بن عمر إن كان برا إن أجره لعظيم وإن كان إثماً إن خطأه ليسير وهذا يعارض وجوب طاعته وبهذا احتجوا على الإمام أحمد في ترك التبريع بخلافته فإنه لما أظهر ذلك قال له بعضهم إذا قلت كان إماماً واجب الطاعة ففي ذلك طعن على طلحة والزبير حيث لم يطيعاه بل قاتلاه فقال لهم أحمد أنى لست من حربهم في شيء يعني أن ما تنازع فيه على وإخوانه لا أدخل بينهم فيه لما بينهم من الإجتهد والتأويل الذي هم أعلم به مني وليس ذلك من مسائل العلم التي تعني حتى أعرف حقيقة حال كل واحد منهم وأنا مأمور بالاستغفار لهم وأن يكون قلبي لهم سليماً ومأمور بمحبتهم وموالاتهم ولهم من السوابق والفضائل ما لا يهدر ولكن إعتقاد خلافته وإمامته ثابت بالنص وما ثبت بالنص وجب اتباعه وإن كان بعض الأكابر تركه كما أن إمامة عثمان وخلافته ثابتة إلى حين انقراض أيامه وإن كان في تخلف بعضهم عن طاعته أو نصرته وفي مخالفة بعضهم له من التأويل ما فيه إذ كان أهون ما جرى في خلافة علي وهذا الموضع هو الذي تنازع فيه اجتهاد السلف والخلف فمن قوم يقولون بوجوب القتال مع علي كما فعله من قاتل معه وكما يقول كثير من أهل الكلام والرأى الذين صنفوا في قتال أهل البغى حيث أوجبوا القتال معه لوجوب طاعته ووجوب قتال البغاة ومبدأ ترتيب ذلك من فقهاء الكوفة وأتبعهم آخرون ومن قوم يقولون بل المشروع ترك القتال في الفتنة كما جاءت به النصوص الكثيرة المشهورة كما فعله من فعله من القاعدين عن القتال لأخبار النبي أن ترك القتال في الفتنة خير و أن الفرار من الفتن باتخاذ غنم في رؤوس الجبال خير من القتال فيها وكنهيه لمن نهاء عن القتال فيها وأمره باتخاذ سيف من خشب ولكون علي لم يذم القاعدين عن القتال معه بل ربما غبطهم في آخر الأمر ولأجل هذه النصوص لا يختلف أصحابنا أن ترك علي القتال كان أفضل لأن النصوص صرحت بأن القاعد فيها خير من القائم والبعد عنها خير من الوقوع فيها قالوا ورجحان العمل يظهر برجحان عاقبته ومن المعلوم أنهم إذا لم يبدأوه بقتال فلو لم يقاتلهم لم يقع أكثر مما وقع من خروجهم عن طاعته لكن بالقتال زاد البلاء وسفكت الدماء وتنافرت القلوب وخرجت عليه الخوارج وحكم الحكمان حتى سمي منازعه بأمر المؤمنين فظهر من المفاسد ما لم يكن قبل القتال ولم يحصل به مصلحة راجحة وهذا دليل على أن تركه كان أفضل من فعله فان فضائل الأعمال إنما هي بنتائجها وعواقبها والقرآن إنما فيه قتال الطائفة الباغية بعد الإقتتال فإنه قال تعالى **{ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاقْتُلُوا فَأُصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي } الحجرات ٩** الآية فلم يأمر بالقتال ابتداء مع واحدة من الطائفتين لكن أمر بالإصلاح و بقتال الباغية و إن قيل الباغية يعم الابتداء والبغى بعد الإقتتال قيل فليس في الآية أمر لأحدهما بأن تقاتل الأخرى وإنما هو أمر لسائر المؤمنين بقتال الباغية والكلام هنا إنما هو في أن فعل القتال من على لم يكن مأموراً به بل كان تركه أفضل وأما إذا قاتل لكون القتال جائزاً وإن كان تركه أفضل أو لكونه مجتهداً فيه وليس بجائز في الباطن فهنا الكلام في وجوب القتال مع الطائفة الباغية أو الإمساك عن القتال في الفتنة وهو موضع تعارض الأدلة واجتهاد العلماء والمجاهدين من المؤمنين بعد الجزم بأنه وشيعته أولى الطائفتين بالحق فيمكن وجهان أحدهما أن الأمر بقتال الطائفة الباغية مشروط بالقدرة والإمكان إن ليس قتالهم بأولى من قتال المشركين والكفار ومعلوم أن ذلك مشروط بالقدرة والإمكان فقد تكون المصلحة المشروعة أحياناً هي التآلف بالمال والمسالمة والمعاهدة كما فعله النبي غير مرة والإمام إذا اعتقد وجود القدرة ولم تكن حاصلة كان الترك في نفس الأمر أصح ومن رأى أن هذا القتال مفسدته أكثر من مصلحته علم أنه قتال فتنة فلا تجب طاعة الإمام فيه إذ طاعته إنما تجب في ما لم يعلم المأمور أنه معصية بالنص فمن علم أن هذا هو قتال الفتنة الذي تركه خير من فعله لم يجب عليه أن يعدل عن نص معين خاص إلى نص عام مطلق في طاعة أولى الأمر ولا سيما وقد أمر الله تعالى

عند التنازع بالرد إلى الله والرسول ويشهد لذلك أن الرسول أخبر بظلم الأمراء بعده وبغيهم ونهى عن قتالهم لأن ذلك غير مقدور إذ مفسدته أعظم من مصلحته كما نهى المسلمون في أول الإسلام عن القتال كما ذكره بقوله { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ } النساء ٧٧ وكما كان النبي وأصحابه مأمورين بالصبر على أذى المشركين والمنافقين والعفو والصفح عنهم حتى يأتي الله بأمره الوجه الثاني أنها صارت باغية في أثناء الحال بما ظهر منها من نصب إمام وتسميته أمير المؤمنين ومن لعن إمام الحق ونحو ذلك فإن هذا بغى بخلاف الإقتتال قبل ذلك فإنه كان قتال فتنة وهو سبحانه قد ذكر اقتتال الطائفتين من المؤمنين ثم قال { فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى } الحجرات ٩ فلما أمر بالقتال إذا بغت إحدى الطائفتين المقتلتين دل على أن الطائفتين المقتلتين قد تكون إحدهما باغية في حال دون حال فما ورد من النصوص بترك القتال في الفتنة يكون قبل البغى وما ورد من الوصف بالبغى يكون بعد ذلك وحينئذ يكون القتال مع علي واجبا لما حصل البغى وعلى هذا يتأول ما روى ابن عمر إذا حمل على القتال في ذلك وحينئذ فبعد التحكيم والتشيع وظهور البغى لم يقاتلهم على ولم تطعه الشيعة في القتال ومن حينئذ دمت الشيعة بتركهم النصر مع وجوبه وفي ذلك الوقت سموا شيعة وحينئذ صاروا مذمومين بمعصية الإمام الواجب الطاعة وهو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ولما تركوا ما يجب من نصره صاروا أهل باطل وظلم إذ ذاك يكون تارة لترك الحق تارة لتعدى الحق فصار حينئذ شيعة عثمان الذين مع معاوية أرجح منهم ولهذا إنتصروا عليهم ولهذا قال النبي لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على من خالفهم وبذلك استدل معاوية وقام مالك بن يخامر فروى عن معاذ ابن جبل أنهم بالشام وعلى هو من الخلفاء الراشدين ومعاوية أول الملوك فالمسألة هي من هذا الجنس وهو قتال الملوك المسططين مع أهل عدل واتباع لسيرة الخلفاء الراشدين فإن كثيرا الناس يبادر الى الامر بذلك لا اعتقاده أن في ذلك إقامة العدل ويغفل عن كون ذلك غير ممكن بل تربو مفسدته على مصلحته ولهذا كان مذهب أهل الحديث ترك الخروج بالقتال على الملوك البغاة والصبر على ظلمهم الى أن يستريح بر أو يستراح من فاجر وقد يكون هذا من أسرار القرآن في كونه لم يأمر بالقتال ابتداء وإنما أمر بقتال الطائفة الباغية بعد إقتتال الطائفتين وأمر بالإصلاح بينهما فإنه اذا اقتتلت طائفتان من أهل الأهواء كقيس ويمن اذ الآية نزلت في نحو ذلك فإنه يجب الإصلاح بينهما والإوجب على السلطان والمسلمين أن يقاتلوا الباغية لأنهم قادرون على ذلك فيجب عليهم أداء هذا الواجب وهذا يبين رجحان القول ابتداء ففي الحال الأول لم تكن القدرة تامة على القتال ولا البغى حاصلًا ظاهرًا وفي الحال الثاني حصل البغى وقوى العجز وهو أولى الطائفتين بالحق وأقربهما اليه مطلقًا والأخرى موصوفة بالبغى كما جاء ذلك في الحديث الصحيح من حديث أبي سعيد كما تقدم وقد كان معاوية والمغيرة وغيرهما يحتجون لرجحان الطائفة الشامية بما هو في الصحيحين عن النبي أنه قال لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة فقام مالك بن يخامر فقال سمعت معاذ بن جبل يقول وهم بالشام فقال معاوية وهذا مالك بن يخامر يذكر أنه سمع معاذًا يقول وهم بالشام وهذا الذي في الصحيحين من حديث معاوية فيهما أيضا نحوه من حديث المغيرة ابن شعبه عن النبي قال لا تزال من أمتي أمة ظاهرة على الحق يأتي أمر الله وهم على ذلك وهذا يحتجون به في رجحان أهل الشام بوجهين أحدهما أنهم الذين ظهروا وانتصروا وصار الأمر اليهم بعد الإقتتال والفتنة وقد قال النبي لا يضرهم من خالفهم وهذا يقتضى أن الطائفة القائمة بالحق من هذه الأمة هي الظاهرة المنصورة فلما انتصر هؤلاء كانوا أهل الحق والثاني أن النصوص عينت أنهم بالشام كقول معاذ وكما روى مسلم في صحيحة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا يزال أهل الغرب ظاهرين قال الإمام أحمد وأهل الغرب هم أهل الشام وذلك أن النبي كان مقيما بالمدينة فما يغرب عنها فهو غربه وما يشرق عنها فهو شرقه وكان يسمى أهل نجد وما يشرق عنها أهل المشرق كما قال ابن عمر قدم رجلان من أهل المشرق فخطبا فقال النبي ان من البيان لسحرا وقد استفاضت السنن عن النبي في الشر أصله من المشرق كقوله الفتنة من ها هنا الفتنة من ها هنا ويشير الى المشرق وقوله رأس الكفر نحو المشرق ونحو ذلك فأخبر أن الطائفة المنصورة القائمة على الحق من أمته بالمغرب وهو الشام وما يغرب عنها والفتنة ورأس الكفر بالمشرق وكان أهل المدينة يسمون أهل الشام أهل المغرب ويقولون عن الأوزاعي أنه إمام أهل المغرب ويقولون عن سفيان الثوري ونحوه إنه مشرقى إمام أهل المشرق وهذا لأن منتهى الشام عند الفرات هو على مسامتة مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم طول كل منهما وبعد ذلك حران والرقعة ونحوهما على مسامتة مكة ولهذا كانت قبلتهم أعدل القبلة بمعنى أنهم يستقبلون الركن الشامي ويستدبرون القطب الشامي من غير انحراف الى ذات اليمن كأهل العراق ولا الى ذات الشمال كأهل الشام قالوا فإذا دلت هذه النصوص على أن الطائفة القائمة بالحق من أمته التي لا يضرها خلاف المخالف ولا خذلان

الخاذل هي بالشام كان هذا معارضا لقوله تقتل عمارا الفئة الباغية ولقوله تقتلهم أولى الطائفتين بالحق وهذا من حجة من يجعل الجميع سواء والجميع مصيبين أو يمسك عن الترجيح وهذا أقرب وقد احتج به من هؤلاء على أولئك لكن هذا القول مرغوب عنه وهو من أقوال النواصب فهو مقابل بأقوال الشيعة والرافض هؤلاء أهل الأهواء وإنما نتكلم هنا مع أهل العلم والعدل ولا ريب أن هذه النصوص لا بد من الجمع بينها والتأليف فيقال أما قوله لا يزال أهل الغرب ظاهرين ونحو ذلك مما يدل على ظهور أهل الشام وانتصارهم فهكذا وقع وهذا هو الأمر فإنهم ما زالوا ظاهرين منتصرين وأما قوله عليه السلام لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله ومن هو ظاهر فلا يقتضى أن لا يكون فيهم من فيه بغى ومن غيره أولى بالحق منهم بل فيهم هذا وهذا وأما قوله تقتلهم أولى الطائفتين بالحق فهذا دليل على أن عليا ومن معه كان أولى بالحق إذ ذلك من الطائفة الأخرى وإذا كان الشخص أو الطائفة مرجوحا في بعض الأحوال لم يمنع أن يكون قائما بأمر الله وأن يكون ظاهرا بالقيام بأمر الله عن طاعة الله ورسوله وقد يكون الفعل طاعة وغيره أطوع منه وأما كون بعضهم باغيا في بعض الأوقات مع كون بغيه خطأ مغفورا أو ذنبا مغفورا فهذا أيضا لا يمنع ما شهدت به النصوص وذلك أن النبي أخبر عن جملة أهل الشام وعظمتهم ولا ريب أن جملتهم كانوا أرجح في عموم الأحوال وكذلك عمر بن الخطاب كان يفضلهم في مدة خلافته على أهل العراق حتى قدم الشام غير مرة وامتنع من الذهاب إلى العراق واستشار فأشار عليه أنه لا يذهب إليها وكذلك حين وفاته لما طعن أدخل عليه أهل المدينة أولا وهم كانوا إذ ذلك أفضل الأمة ثم أدخل عليه أهل الشام ثم أدخل عليه أهل العراق وكانوا آخر من دخل عليه هكذا في الصحيح وكذلك الصديق كانت عنايته بفتح الشام أكثر من عنايته بفتح العراق حتى قال لكفر من كفور الشام أحب إلى من فتح مدينة بالعراق والنصوص التي في كتاب الله وسنة رسوله وأصحابه في فضل الشام وأهل الغرب على نجد والعراق وسائر أهل المشرق أكثر من أن تذكر هنا بل عن النبي من النصوص الصحيحة في ذم المشرق وأخباره بأن الفتنة ورأس الكفر منه ما ليس هذا موضعه وإنما كان فضل المشرق عليهم بوجود أمير المؤمنين على وذلك كان أمرا عارضا ولهذا لما ذهب على ظهر منهم الفتن والنفاق والردة والبدع ما يعلم به أن أولئك كانوا أرجح وكذلك أيضا لا ريب أن في أعيانهم من العلماء والصالحين من هو أفضل من كثير من أهل الشام كما كان على وابن مسعود وعمار وحذيفة ونحوهم أفضل من أكثر من الشام من الصحابة لكن مقابلة الجملة وترجيحها لا يمنع اختصاص الطائفة الأخرى بأمر راجح والنبي ميز أهل الشام بالقيام بأمر الله دائما إلى آخر الدهر وبأن الطائفة المنصورة فيهم إلى آخر الدهر فهو إخبار عن أمر دائم مستمر فيهم مع الكثرة والقوة وهذا الوصف ليس لغير الشام من أرض الإسلام فإن الحجاز التي هي أصل الإيمان نقص في آخر الزمان منها العلم والإيمان والنصر والجهاد وكذلك اليمن والعراق والمشرق وأما الشام فلم يزل فيها العلم والإيمان ومن يقاتل عليه منصورا مؤيدا في كل وقت فهذا هذا والله أعلم وهذا يبين رجحان الطائفة الشامية من بعض الوجوه مع أن عليا كان أولى بالحق ممن فارقه ومع أن عمارا قتله الفئة الباغية كما جاءت به النصوص فعلينا أن نؤمن بكل ما جاء من عند الله ونقر بالحق كله ولا يكون لنا هوى ولا نتكلم بغير علم بل نسلك سبل العلم والعدل وذلك هو إتباع الكتاب والسنة فأما من تمسك ببعض الحق دون بعض فهذا منشأ الفرقة والإختلاف ولهذا لما اعتقدت طوائف من الفقهاء وجوب القتال مع علي جعلوا ذلك قاعدة فقهية فيما إذا خرجت طائفة على الإمام بتأويل سائغ وهي عنده راسلهم الامام فان ذكروا مظلمة أزالتها عنهم وإن ذكروا شبهة بينها فان رجعوا والا وجب قتالهم عليه وعلى المسلمين ثم إنهم ادخلوا في هذه القاعدة قتال الصديق لمانعي الزكاة و قتال على للخوارج المارقين وصاروا فيمن يتولى أمور المسلمين من الملوك والخلفاء وغيرهم يجعلون أهل العدل من اعتقدوه لذلك ثم يجعلون المقاتلين له بغاة لا يفرقون بين قتال الفتنة المنهى عنه والذي تركه خير من فعله كما يقع بين الملوك والخلفاء وغيرهم واتباعهم كاقنتال الأمين والمأمون وغيرهما وبين قتال الخوارج الحنورية المرتدة والمنافقين كالمزدكية ونحوهم وهذه تجده في الأصل من رأى بعض فقهاء أهل الكوفة واتباعهم ثم الشافعي وأصحابه ثم كثير من أصحاب احمد الذين صنفوا باب قتال أهل البغي نسجوا على منوال أولئك تجدهم هكذا فإن الخرقى نسج على منوال المزنى نسج على منوال مختصر محمد بن الحسن وان كان ذلك في بعض التبويب والترتيب والمصنفون في الأحكام يذكرون قتال البغاة والخوارج جميعا وليس عن النبي في قتال البغاة حديث الا حديث كوثر بن حكيم عن نافع وهو موضوع وأما كتب الحديث المصنفة مثل صحيح البخارى والسنن فليس فيها الا قتال أهل الردة والخوارج وهم أهل الأهواء وكذلك كتب السنة المنصوصة عن الإمام أحمد ونحوه وكذلك فيما أظن كتب مالك وأصحابه ليس فيها باب قتال البغاة وإنما ذكروا أهل الردة وأهل الأهواء وهذا هو الأصل الثابت بكتاب الله وسنة

رسوله وهو الفرق بين القتال لمن خرج عن الشريعة والسنة فهذا الذي أمر به النبي وأما القتال لمن لم يخرج إلا عن طاعة إمام معين فليس في النصوص أمر بذلك فارتكب الأولون ثلاثة محاذير الأول قتال من خرج عن طاعة ملك معين وإن كان قريبا منه ومثله في السنة والشريعة لوجود الإفتراق والإفتراق هو الفتنة

والثاني التسوية بين هؤلاء وبين المرتدين عن بعض شرائع الإسلام والثالث التسوية بين هؤلاء وبين قتال الخوارج المارقين من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ولهذا تجد تلك الطائفة يدخلون في كثير من أهواء الملوك وولاية الأمور ويأمرون بالقتال معهم لاعدائهم بناء على أنهم أهل العدل وأولئك البغاة وهم في ذلك بمنزلة المتعصبين لبعض أئمة العلم أو أئمة الكلام أو أئمة المشيخة على نظرائهم مدعين أن الحق معهم أو أنهم أرجح بهوى قد يكون فيه تأويل بتقصير لا بالإجتهد وهذا كثير في علماء الأمة وعبادها وأمرائها وأجنادها وهو من البأس الذي لم يرفع من بينها فنسأل الله العدل فإنه لا وحول ولا قوة إلا به ولهذا كان أعدل الطوائف أهل السنة أصحاب الحديث وتجد هؤلاء إذا أمروا بقتال من مرق من الإسلام أو ارتد عن بعض شرائعه يأمرون أن يسار فيه بسيرة على في قتال طلحة والزبير لا يسبى لهم ذرية ولا يغنم لهم مال ولا يجهز لهم على جريح ولا يقتل لهم أسير ويتركون ما أمر به النبي وسار به على في قتال الخوارج وما أمر الله به رسوله وسار به الصديق في قتال مانعي الزكاة فلا يجمعون بين ما فرق الله بينه من المرتدين والمارقين وبين المسلمين المسيئين ويفرقون بين ما جمع الله بينه من الملوك والأئمة المتقاتلين على الملك وإن كان بتأويل والله سبحانه وتعالى أعلم^١

القتال يوم الجمل وصفين فيه نزاع

والقتال يوم الجمل وصفين فيه نزاع هل هو من باب قتال البغاة المأمور به في القرآن أو هو قتال فتنة القاعد فيه خير من القائم فالقاعدون من الصحابة وجمهور أهل الحديث والسنة وأئمة الفقهاء بعدهم يقولون هو قتال فتنة ليس هو قتال البغاة المأمور به في القرآن فإن الله لم يأمر بقتال المؤمنين البغاة ابتداء لمجرد بغيتهم بل إنما أمر إذا اقتتل المؤمنون بالإصلاح بينهم وقوله { فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى } الحجرات ٩ ويعود الضمير فيه إلى الطائفتين المقتلتين من المؤمنين لا يعود إلى طائفة مؤمنة لم تقاتل بالتقدير فإن بغت إحدى الطائفتين المؤمنتين المقتلتين على الأخرى فقاتلوا الباغية حتى تفيء إلى أمر الله فمتمت كانت طائفة باغية ولم تقاتل لم يكن في الآية أمر بقتالها ثم إن كان قوله { فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى } الحجرات ٩ بعد الإصلاح فهو أوكد وإن كان بعد الاقتتال حصل المقصود وحينئذ فأصحاب معاوية إن كانوا قد بغوا قبل القتال لكونهم لم يبايعوا عليا فليس في الآية الأمر بقتال من بغى ولم يقاتل وإن كان بغيتهم بعد الاقتتال والإصلاح وجب قتالهم لكن هذا لم يوجد فإن أحدا لم يصلح بينهما ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها هذه الآية ترك الناس العمل بها يعنب إن ذلك وإن كان بغيتهم بعد الاقتتال وقبل الإصلاح فهنا إذا قيل بجواز القتال فهذا القدر إنما حصل في أثناء القتال وحينئذ فشل أصحاب علي ونكروا عن القتال لما رفعوا المصاحف ففي الحال التي أمر بقتالهم فيها لم يقاتلهم وفي الحال التي قاتلهم لم يكن قتالهم مأمورا به فإن كان أولئك بغاة معتدين فهؤلاء مفرطون مقصرون ولهذا ذلوا وعجزوا وتفرقوا وليس الإمام مأمورا بأن يقاتل بمثل هؤلاء وفي الجملة فالبحت في هذه الدقائق من وظيفة خواص أهل العلم بخلاف الكلام في تكفيرهم فإن هذا أمر يعلم فساده الخاصة والعامة بالدلائل الكثيرة^٢

سماهم مؤمنين إخوة مع وجود الاقتال والبغى

^١ مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ٤٣٧-٤٥٢

فلا ريب أنه اقتتل العسكران عسكر علي ومعاوية بصفين ولم يكن معاوية ممن يختار الحرب ابتداء بل كان من أشد الناس حرصا على أن لا يكون قتال وكان غيره أحرص على القتال منه وقتال صفين للناس فيه أقوال فمنهم من يقول كلاهما كان نجتها مصيبا كما يقول ذلك كثير من أهل الكلام والفقه والحديث ممن يقول كل مجتهد مصيب ويقول كانا مجتهدين وهذا قول كثير من الأشعرية والكرامية والفقهاء وغيرهم وهو قول طائفة من أصحاب أبي حنيفة والشافعي وأحمد وغيرهم وتقول الكرامية كلاهما إمام مصيب ويجوز نصب إمامين للحاجة ومنهم من يقول بل المصيب أحدهما لا بعينه وهذا قول طائفة منهم ومنهم من يقول على هو المصيب وحده ومعاوية مجتهد مخطيء كما يقول ذلك طوائف من أهل الكلام والفقهاء أهل المذاهب الأربعة وقد حكى هذه الأقوال الثلاثة أبو عبد الله بن حامد بن أصحاب أحمد وغيرهم ومنهم من يقول كان الصواب أن لا يكون قتال وكان ترك القتال خيرا للطائفتين فليس في الاقتال صواب ولكن على كان أقرب إلى الحق من معاوية والقتال فتنة ليس بواجب ولا مستحب وكان ترك القتال خيرا للطائفتين مع أن عليا كان أولى بالحق وهذا هو قول أحمد وأكثر أهل الحديث وأكثر أئمة الفقهاء وهو قول أكابر الصحابة والتابعين لهم بإحسان وهو قول عمران بن حصين رضي الله عنه وكان ينهى عن بيع السلاح في ذلك القتال ويقول هو بيع السلاح في الفتنة وهو قول أسامة بن زيد ومحمد بن مسلمة وابن عمر وسعد بن أبي وقاص وأكثر من بقي من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم ولهذا كان من مذاهب أهل السنة الإمساك عما شجر بين الصحابة فإنه قد ثبتت فضائلهم ووجبت موالاتهم ومحبتهم وما وقع منه ما يكون لهم فيه عذر يخفى على الإنسان ومنه ما تاب صاحبه منه ومنه ما يكن مغفورا فالخوض فيما شجر يوقع في نفوس كثير من الناس بغضا وذما ويكون هو في ذلك مخطئا بل عاصيا فيضر نفسه ومن خاض معه في ذلك كما جرى لأكثر من تكلم في ذلك فإنهم تكلموا بكلام لا يحبه الله ولا رسوله إما من ذم من لا يستحق الذم وإما من مدح أمور لا تستحق المدح ولهذا كان الإمساك طريقة أفاضل السلف وأما غير هؤلاء فمنهم من يقول كان معاوية فاسقا دون علي كما يقوله بعض المعتزلة ومنهم من يقول بل كان كافرا كما يقوله بعض الرافضة ومنهم من يقول كلاهما كافر علي ومعاوية كما يقوله الخوارج ومنهم من يقول فسق أحدهما لا بعينه كما يقوله بعض المعتزلة ومنهم من يقول بل معاوية على الحق وعلى كان ظالما كما تقوله المروانية والكتاب والسنة قد دل على أن الطائفتين مسلمون وأن ترك القتال كان خيرا من وجوده قال تعالى **{ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَبْغِي تَقِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } الحجرات ٩** فسامهم مؤمنين إخوة مع وجود الاقتال والبغي وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال تمرق مارقة على حين فرقة من المسلمين يقتلهم أولى الطائفتين بالحق وهؤلاء المارقة مرقوا على علي فدل على أن طائفته أقرب إلى الحق من طائفة معاوية وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن ابني هذا سيد وإن الله سيصلح به بين فئتين عظيمتين من المؤمنين فأصلح الله به بين أصحاب علي وأصحاب معاوية فمدح النبي صلى الله عليه وسلم الحسن بالإصلاح بينهما وسامهما مؤمنين وهذا يدل على أن الإصلاح بينهما هو المحمود ولو كان القتال واجبا أو مستحبا لم يكن تركه محمودا وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشي والماشي فيها خير من الساعي من يستشرف لها تستشرفه ومن وجد فيها ملجأ فليعد به أخرجاه في الصحيحين وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يوشك أن يكون خير مال المسلم غم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن وفي الصحيحين عن أسامة بن زيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إنني لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كمواقع القطر والذين رويوا أحاديث القعود في الفتنة والتحذير منها كسعد بن أبي وقاص ومحمد بن مسلمة وأسامة بن زيد لم يقاتلوا لا مع علي ولا مع معاوية وقال حذيفة رضي الله عنه ما أحد من الناس تدركه الفتنة إلا أنا أخافها عليه إلا محمد بن مسلمة فإنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له لا تضرك الفتنة وعن ثعلبة بن ضبيعة قال دخلنا على حذيفة فقال إنني لأعرف رجلا لا تضره الفتنة شيئا فخرجنا فإذا فسطاط مضروب فدخلنا فإذا فيه محمد بن مسلمة فسألناه عن ذلك فقال ما أريد أن يشتمل علي شيء من أمصارهم حتى تتجلى عما انجلت رواهما أبو داود فصل ومما ينبغي أن يعلم أن الأمة يقع فيها أمور بالتأويل في دماؤها وأموالها وأعراضها كالقتال واللعن والتكفير وقد ثبت في الصحيحين عن أسامة بن زيد رضي الله عنه أنه قال بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية فصبحنا الحركات من جهينة فأدركت رجلا فعلوته بالسيف فقال لا إله إلا الله فطعنته فقتلته فوق في نفسي من ذلك فذكرته للنبي صلى الله عليه وسلم فقال أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله قال قلت يا رسول الله إنما قالها خوفا من السلاح قال أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها خوفا من

السلاح إلا فما زال يكررها حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ وفي الصحيحين عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال قلت يا رسول الله أرأيت إن لقيت رجلا من الكفار فقاتلني فضرب إحدى يدي فقطعها ثم لاذ مني بشجرة فقال أسلمت لله أفأقتله بعد أن قالها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقتله فقلت يا رسول الله إنه قطعها ثم قال ذلك بعد أن قطعها أفأقتله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقتله فإنك إن قتلتها فإنه يمينك قبل أن تقتله وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قالها فقد ثبت أن هؤلاء قتلوا قوما مسلمين لا يحل قتلهم ومع هذا فلم يقتلهم النبي صلى الله عليه وسلم ولا ضمن المقتول بقود ولادية ولا كفارة لأن القاتل كان متأولا وهذا قول أكثر العلماء كالشافعي وأحمد وغيرهما ومن الناس من يقول بل كانوا أسلموا ولم يهاجروا فثبتت في حقهم العصمة المؤتممة دون المضمنة بمنزلة نساء أهل الحرب وصبيانهم كما يقوله أبو حنيفة وبعض المالكية ثم إن جماهير العلماء كمالك وأبي حنيفة وأحمد في ظاهر مذهبه والشافعي في أحد قوليه يقولون إن أهل العدل والبلغاة إذا اقتتلوا بالتأويل لم يضمن هؤلاء ما أتلوه لهؤلاء من النفوس والأموال حال القتال ولم يضمن هؤلاء ما أتلوه لهؤلاء كما قال الزهري وقعت الفتنة وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم متوافرون فأجمعوا أن كل دم أو مال أصيب بتأويل القرآن فإنه هدر أنزلوه من جاهلية يعني بذلك أن القاتل لم يكن يعتقد أنه فعل محرما وإن قيل إنه محم في نفس الأمر فقد ثبت بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم المتواترة واتفاق المسلمين أن الكافر الحربي إذا قتل مسلما أو أتلف ما له ثم أسلم لم يضمنه بقود ولا دية ولا كفارة مع أن قتله له كان من أعظم الكبائر لأنه كان متأولا وإن كان تأويله فاسدا وكذلك المرتدون المنتعون إذا قتلوا بعض المسلمين لم يضمنوا دمه إذا عادوا إلى الإسلام عند أكثر العلماء كما هو قول أبي حنيفة ومالك وأحمد وإن كان من متأخري أصحابه من يحكيه قولا كأبي بكر عبد العزيز حيث قد نص أحمد على أن المرتد يضمن ما أتلفه بعد الردة فهذا النص في المرتد المقدر عليه وذلك في المحارب الممتنع كما يفرق بين الكافر الذمي والمحارب أو يكون في المسألة روايتان وللشافعي قولان وهذا هو الصواب فإن المرتدين الذين قاتلهم الصديق وسائر الصحابة لم يضمنهم الصحابة بعد عودهم إلى الإسلام بما كانوا قتلوه من المسلمين وأتلوه من أموالهم لأنهم كانوا متأولين فالبلغاة المتأولون كذلك لم تضمنهم الصحابة رضي الله عنهم وإذا كان هذا في الدماء والأموال مع أن من أتلفها خطأ ضمنها بنص القرآن فكيف في الأعراض مثل لعن بعضهم بعضا وتكفير بعضهم بعضا^١

لفظ الأمر يراد به المصدر والمفعول

قال تعالى { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } ٩ { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } ١٠ { الحجرات ٩-١٠ } و لفظ الأمر يراد به المصدر و المفعول فالمفعول مخلوق كما قال { أتى أمر الله } النحل ١ و قال { وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا } الأحزاب ٣٨ فهنا المراد به المأمور به ليس المراد به أمره الذي هو كلامه و هذه الآية التي إحتج بها هؤلاء تضمنت الشرع و هو الأمر و القدر و قد ضل في هذا الموضوع فريقان الجهمية الذين يقولون كلام الله مخلوق و يحتجون بقوله { وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا } الأحزاب ٣٨ و يقولون ما كان مقدورا فهو مخلوق و هؤلاء الحلولية الضالون الذين يجعلون فعل العباد قديما بأنه أمر الله و قدره و أمره و قدره غير مخلوق و مثار الشبهة أن إسم القدر و الأمر و الشرع يراد به المصدر و يراد به المفعول ففي قوله { وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا } الأحزاب ٣٨ المراد به المأمور به المقدر و هذا مخلوق و أما في قوله { ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْنَا } الطلاق ٥ فأمره كلامه إذا لم ينزل إلينا الأفعال التي أمرنا بها و إنما أنزل القرآن و هذا كقوله { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا } النساء ٥٨ فهذا الأمر هو كلامه^٢

^١ منهاج السنة النبوية ج: ٤ ص: ٤٤٧

^٢ مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٤١٣

المضاف إلى الله نوعان

قال تعالى { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } ٩ { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } ١٠ { الحجرات ٩-١٠ }

والمضاف إلى الله نوعان فإن المضاف إما أن يكون صفة لا تقوم بنفسها كالعلم والقدرة والكلام والحياة وإما أن يكون عينا قائمة بنفسها فالأول إضافة صفة كقوله { فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ } { الحجرات ٩ } فالمضاف في الأول صفة لله قائمة به ليست مخلوقة له بئانه عنه والمضاف في الثاني مملوك لله مخلوق له بائن عنه لكنه مفضل مشرف لما خصه الله به من الصفات التي اقتضت إضافته إلى الله تبارك وتعالى كما خص ناقة صالح من بين النوق وكما خص بيته بمكة من البيوت وكما خص عباده الصالحين من بين الخلق^١

الصفات الاختيارية

فاعتقاد الفرقة الناجية المنصورة الى قيام الساعة أهل السنة والجماعة وهو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والايان بالقدر خيره وشره ومن الايمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكليف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلدون في أسماء الله وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا سمي له ولا كفو له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فانه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلا وأحسن حديثا من خلقه ثم رسله صادقون مصدوقون بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون ولهذا قال سبحانه وتعالى { سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ } ١٨٠ { وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ } ١٨١ { وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } ١٨٢ { الصافات ١٨٠- ١٨٢ } فسيح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسول وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وقد دخل في هذه الجملة ما وصف به نفسه في سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن وقوله سبحانه { وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } { الحجرات ٩ }^٢

والصفات الاختيارية هي الأمور التي يتصف بها الرب عز وجل فتقوم بذاته بمشيئته وقدرته مثلا كلامه وسمعه وبصره واراادته ومحبته ورضاه ورحمته وغضبه وسخطه ومثل خلقه واحسانه وعدله ومثل استوائه ومجيئه واتيانه ونزوله ونحو ذلك من الصفات التي نطق بها الكتاب العزيز والسنة والآيات التي تدل على الصفات الاختيارية كثيرة جدا وكذلك في المحبة والرضا وكذلك قوله { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ } { البقرة ٢٢٢ } { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ } { التوبة ٧ } { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } { الحجرات ٩ } { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ

^١ الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ١٥٧

^٢ مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ١٣٢

فِي سَبِيلِهِ صَفًّا {الصف} ٤ ونحو ذلك فانه يدل على ان المحبة بسبب هذه الاعمال وهي جزاء لها والجزاء انما يكون بعد العمل والمسبب

محبة الرب سبحانه لعبده

واما محبة الرب سبحانه لعبده فقال تعالى { وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا } النساء ١٢٥ وقال تعالى { يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ } المائدة ٥٤ وقال تعالى { وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } البقرة ١٩٥ { وَأَقْسَبُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِبِينَ } الحجرات ٩ { فَأْتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ } التوبة ٤ { فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ } التوبة ٧ { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَنِيَانٌ مَّرْصُوصٌ } الصف ٤ { بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ } آل عمران ٧٦ قال محبة وهذا فيه إثبات حبه لهم بعد أعمالهم وهذه الآيات وأشباهاها تقتضي أن الله يحب أصحاب هذه الأعمال واما الأعمال التي يحبها الله من الواجبات والمستحبات الظاهرة والباطنة فكثيرة معروفة وكذلك حبه لأهلها وهم المؤمنون أولياء الله المتقون وهذه المحبة حق كما نطق بها الكتاب والسنة والذي عليه سلف الأمة وأئمتها واهل السنة والحديث وجميع مشايخ الدين المتبعون وائمة التصوف ان الله سبحانه محبوب لذاته محبة حقيقة بل هي اكمل محبة فانها كما قال تعالى { وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ } البقرة ١٦٥ وكذلك هو سبحانه يحب عباده المؤمنين محبة حقيقية وانكرت الجهمية حقيقة المحبة من الطرفين زعما منهم ان المحبة لا تكون الا لمناسبة بين المحب والمحبوب وانه لامناسبة بين القديم والمحدث توجب المحبة وكان اول من ابتدع هذا في الاسم هو الجعد بن درهم في اوائل المائة الثانية فضحى به خالد بن عبد الله القسري امير العراق والمشرق بواسطة خطب الناس يوم الأضخى فقال ايها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فاني مضح بالجعد بن درهم انه زعم ان الله لم يتخذ ابراهيم خليلا ولم يكلم موسى تكليما ثم نزل فذبحه وكان قد اخذ هذا المذهب عنه الجهم بن صفوان فأظهره وناظر عليه واليه اضيف قول الجهمية فقتله سلم بن احوز امير خراسان بها ثم انتقل ذلك الى المعتزلة اتباع عمرو بن عبيد وظهر قولهم اثناء خلافة المأمون حتى امتحن ائمة الاسلام ودعوا الى الموافقة لهم على ذلك واصل قولهم هذا مأخوذ عن المشركين والصابئة من البراهمة والمتفلسفة ومبتدعة اهل الكتاب الذين يزعمون ان الرب ليس له صفة ثبوتية اصلا وهؤلاء هم اعداء ابراهيم الخليل عليه السلام وهم يعبدون الكواكب ويبنون الهياكل للعقول والنجوم وغيرها وهم ينكرون في الحقيقة ان يكون ابراهيم خليلا وموسى كليما لأن الخلة هي المحبة المستغرقة للمحب كما قيل قد تخللت مسلك الروح مني وبدا سمي الخليل خليلا ويشهد لهذا ما ثبت في الصحيح عن ابي سعيد عن النبي انه قال لو كنت متخذا من اهل الارض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله يعني نفسه وفي رواية اني أبرأ الى كل خليل من خلته ولو كنت متخذا من اهل الارض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا وفي رواية ان الله اتخذي خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا فبين انه لا يصلح له ان يتخذ من المخلوقين خليلا وانه لو امكن ذلك لكان احق الناس بها ابو بكر الصديق رضى الله عنه مع انه صلى الله عليه وسلم قد وصف نفسه بانه يحب اشخاصا كما قال لمعاذ والله اني لأحبك وكذلك قوله للانصار وكان زيد بن حارثة حب رسول الله عليه وسلم وكذلك ابنه اسامة حبه وامثال ذلك وقال له عمرو بن العاص أى الناس احب اليك قال عائشة قال فمن الرجال قال ابوها وقال لفاطمة ابنته رضى الله عنها ألا تحبين ما احب قالت بلى قال فأحبي عائشة^٢

" لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه "

^{١١} مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ٢٢٦

^{٢٢} مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٦٦-٦٨ و أمراض القلوب ج: ١ ص: ٦٨ التحفة العراقية ج: ١ ص: ٦٧

والنبوات ج: ١ ص: ٧٦

قال تعالى { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } ٩ { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } ١٠ { الحجرات ٩-١٠ } أن الله قد جعل المؤمنين اخوة بنص القرآن وقال النبي المسلم اخو المسلم لا يسلمه ولا يظلمه والذي نفسي بيده لا يؤمن احدكم حتى يحب لأخيه من الخير ما يحبه لنفسه فمن كان قائماً بواجب الايمان كان اخا لكل مؤمن ووجب على كل مؤمن ان يقوم بحقوقه وان لم يجر بينهما عقد خاص فان الله ورسوله قد عقدا الاخوة بينهما بقوله { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ } { الحجرات ١٠ } وقال النبي صلى الله عليه وسلم وددت انى قد رأيت اخوانى ومن لم يكن خارجا عن حقوق الايمان وجب ان يعامل بموجب ذلك فيحمد على حسناته ويوالى عليها وينهى عن سيئاته ويجانب عليها بحسب الامكان وقد قال النبي انصر اخاك ظلما او مظلوما قلت يا رسول الله انصره مظلوما فكيف انصره ظلما قال تمنعه من الظلم فذلك نصرك اياه والواجب على كل مسلم ان يكون حبه وبغضه وموالاته ومعاداته تابعا لأمر الله ورسوله فيحب ما أحبه الله ورسوله ويبغض ما ابغضه الله ورسوله ويوالى من يوالى الله ورسوله ويعادى من يعادى الله ورسوله ومن كان فيه ما يوالى عليه من حسنات وما يعادى عليه من سيئات عومل بموجب ذلك كفساق اهل الملة اذ هم مستحقون للثواب والعقاب والموااة والمعاداة والحب والبغض بحسب ما فيهم من البر والفجور فان { فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ } ٧ { وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ } ٨ { الزلزلة ٧-٨ }^١

أن النبي صلى الله عليه وسلم قد اثبت الاخوة كما في الصحيحين انه قال لزيد أنت اخونا ومولانا وقال له أبو بكر لما خطب ابنته الست أخي قال أنا أخوك و بنتك حلال لي وفي الصحيح انه قال في حق أبي بكر ولكن اخوة الإسلام وقال في الصحيح أيضا وددت أن قد رأيت إخواني قالوا اولسنا إخوانك يا رسول الله قال لا انتم أصحابي ولكن إخواني قوم يأتون من بعدي يؤمنون بي ولم يروني يقول انتم لكم من الاخوة ما هو أخص منها وهو الصحبة وأولئك لهم اخوة بلا صحبة وقد قال تعالى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ } { الحجرات ١٠ } وقال صلى الله عليه وسلم لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا أخرجاه في الصحيحين وقال المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه وقال والذي نفسي بيده لا يؤمن احدكم حتى يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه^٢

وفي الصحاح عن النبي أنه قال مثل المؤمنين في توادهم وتراحيمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر وفي الصحاح أيضا أنه قال المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وشبك بين اصابعه وأمثال هذه النصوص في الكتاب والسنة كثيرة وقد جعل الله فيها عبادة المؤمنين بعضهم أولياء بعض وجعلهم إخوة وجعلهم متناصرين متراحمين متعاطفين وأمرهم سبحانه بالائتلاف ونهاهم عن الافتراق والاختلاف فقال { وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا } آل عمران ١٠٣ وقال { إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسَيِّئًا مِمَّا فَعَلُوا } الأأنعام ١٥٩ الآية فكيف يجوز مع هذا لأمة محمد أن تفترق وتختلف حتى يوالي الرجل طائفة ويعادى طائفة أخرى بالظن والهوى بلا برهان من الله تعالى وقد برأ الله نبيه ممن كان هكذا^٣

وقال لا يبيع احدكم على بيع اخيه ولا يستام على سوم اخيه ولا يخطب على خطبة اخيه وقال والذي نفسي بيده لا يؤمن احدكم حتى يحب لأخيه من الخير ما يحبه لنفسه ونحو ذلك من الحقوق الايمانية التي تجب للمؤمن على المؤمن فهذه الحقوق واجبة بنفس الايمان والتزامها بمنزلة التزام الصلاة والزكاة والصيام والحج والمعاهدة عليها كالمعاهدة على ما اوجب الله ورسوله وهذه ثابتة لكل مؤمن على كل مؤمن وان لم يحصل بينهما عقد مؤاخاة وان كان المقصود منها اثبات حكم خاص كما كان بين المهاجرين والأنصار فهذه فيها للعلماء قولان

^١ مجموع الفتاوى ج: ٣٥ ص: ٩٥

^٢ منهاج السنة النبوية ج: ٧ ص: ٢٨٨

^٣ مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٤١٩-٤٢٠

بناء على أن ذلك منسوخ أم لا فمن قال أنه منسوخ كمالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه قال إن ذلك غير مشروع ومن قال أنه لم ينسخ كما قال أبو حنيفة وأحمد في الرواية الأخرى قال أنه مشروع^١

المؤمن من يوالى جميع أهل الايمان

فالحب لغير الله كحب النصارى للمسيح وحب اليهود لموسى وحب الرافضة لعلى وحب الغلاة لشييوخهم وأئمتهم مثل من يوالى شيخا أو اماما وينفر عن نظيره وهما متقاربان أو متساويان فى الرتبة فهذا من جنس أهل الكتاب الذين آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض وحال الرافضة الذين يوالون بعض الصحابة ويعادون بعضهم وحال أهل العصبية من المنتسبين إلى فقه وزهد الذين يوالون بعض الشيوخ والائمة دون البعض وانما المؤمن من يوالى جميع أهل الايمان قال الله تعالى **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} الحجرات ١٠** وقال النبي المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وشبك بين أصابعه وقال مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمل والسهر وقال عليه السلام لا تقاطعوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخوانا ومما يبين الحب لله والحب لغير الله ان أبا بكر كان يحب النبي مخلصا لله وأبو طالب عمه كان يحبه وينصره لهواه لا لله فتقبل الله عمل أبي بكر وانزل فيه **{ وَسَيَجْزِيهَا الْأُنثَى} {١٧} { الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى} {١٨} وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى} {١٩} إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى} {٢٠} { وَلَسَوْفَ يَرْضَى} {٢١} { الليل ١٧-٢١} واما ابو طالب فلم يتقبل عمله بل ادخله النار لأنه كان مشركا عاملا لغير الله وابو بكر لم يطلب اجره من الخلق لا من النبي ولا من غيره بل من آمن به وأحبه وكأله واعانه بنفسه وماله متقربا بذلك إلى الله وطالبا لاجر من الله ورسوله يبلغ عن الله امره ونهيه ووعده ووعيده قال تعالى **{ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} {الرعد ٤٠} والله هو الذى يخلق ويرزق ويعطى ويمنع ويخفض ويرفع ويعز والاسباب التى يفعلها العباد مما أمر الله به وأباحه فهذا يسلك وأما ما ينهى عنه نهيا خالصا أو كان من البدع التى لم يأذن الله بها فهذا لا يسلك^٢****

المؤمنون اخوة مع قيام الكبائر بهم

قال تعالى **{فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَتُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} {التوبة ١١}** فعلق الاخوة فى الدين على التوبة من الشرك و أقام الصلاة و إيتاء الزكاة و المعلق بالشرط يندم عند عدمه فمن لم يفعل ذلك فليس بأخ فى الدين و من ليس بأخ فى الدين فهو كافر لأن المؤمنين اخوة مع قيام الكبائر بهم بدليل قوله فى آية المقتتلين **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} الحجرات ١٠** مع أنه قد سمى قتال المؤمن كفرا و لما روى جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم بين الرجل و بين الكفر ترك الصلاة رواه الجماعة إلا البخاري و النسائي و فى رواية لمسلم بين الرجل و بين الشرك ترك الصلاة و فى رواية صحيحة لأحمد ليس بين العبد و الكفر إلا ترك الصلاة^٣

أعظم أصول الإسلام

^١مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ١٠١

^٢مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٥٢٥-٥٢٦ و مجموع الفتاوى ج: ١٨ ص: ٣٢١

^٣شرح العمدة ج: ٤ ص: ٧٣

قال تعالى { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } ٩ { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } ١٠ { الحجرات ٩-١٠ } وقال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ لِقُومٍ بِالْمُؤَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ } الممتحنة ١ الآية وقال تعالى { لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ } المجادلة ٢٢ وفي الصحيحين عن النبي أنه قال مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر وفي الصحيحين عنه أنه قال المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وشبك بين أصابعه وفي الصحيحين عنه أنه قال المسلم أخو المسلم لا يسلمه ولا يظلمه وفي الصحيحين أنه قال والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه من الخير ما يحبه لنفسه وقال والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ألا أخبركم بشي إذا فعلتوه تحاببتم أفشوا السلام بينكم وقد أمر الله تعالى المؤمنين بالإجتماع والائتلاف ونهاهم عن الإفتراق والاختلاف فقال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } ١٠٢ { وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا } ١٠٣ { آل عمران ١٠٢-١٠٣ } إلى قوله { لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } آل عمران ١٠٣ إلى قوله { يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ } آل عمران ١٠٦ قال ابن عباس رضى الله عنهما تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة ١

ففى صفات العبادات الظاهرة التى حصل فيها تنازع بين الأمة فى الرواية والرأى مثل الأذان والجهر بالسلمة والقنوت فى الفجر والتسليم فى الصلاة ورفع الأيدي فيها ووضع الأكف فوق الأكف ومثل التمتع والإفراد والقران فى الحج ونحو ذلك فإن التنازع فى هذه العبادات الظاهرة والشعائر أوجب أنواعا من الفساد الذى يكرهه الله ورسوله وعباده المؤمنون أحدها التفرق والاختلاف المخالف للإجتماع والائتلاف حتى يصير بعضهم يبغض بعضا ويعاديه ويحب بعضا ويواليه على غير ذات الله وحتى يفضى الأمر ببعضهم إلى الطعن واللعن والهمز واللمز وبيعهم إلى الإقتتال بالأيدى والسلاح وبيعهم إلى المهاجرة والمقاطعة حتى لا يصلى بعضهم خلف بعض وهذا كله من أعظم الأمور التى حرمها الله ورسوله والإجتماع والائتلاف من أعظم الأمور التى أوجبها الله ورسوله قال الله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } ١٠٢ { وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا } ١٠٣ { آل عمران ١٠٢-١٠٣ } إلى قوله { وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } ١٠٥ { يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ } ١٠٦ { آل عمران ١٠٥-١٠٦ } قال ابن عباس تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة وكثير من هؤلاء يصير من أهل البدعة بخروجه عن السنة التى شرعها رسول الله لأمته ومن أهل الفرقة بالفرقة المخالفة للجماعة التى أمر الله بها ورسوله قال تعالى { وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ } البقرة ٢١٣ وقال تعالى { فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ } الأنفال ١ وقال { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ } الحجرات ١٠ وقال { إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ } النساء ١١٤ وهذا الأصل العظيم وهو الإعتصام بحبل الله جميعا وأن لا يتفرق هو من أعظم أصول الإسلام ومما عظمت وصية الله تعالى به فى كتابه ومما عظم ذمه لمن تركه من أهل الكتاب وغيرهم ومما عظمت به وصية النبي فى مواطن عامة وخاصة مثل قوله عليكم بالجماعة فإن يد الله على الجماعة وقوله فإن الشيطان مع الواحد وهو من الإثنين أبعد وقوله من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر عليه فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه وقوله ألا أنبئكم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قالوا بلى يا رسول الله قال صلاح ذات البين فإن فساد ذات البين هى الحالفة لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين وقوله من جاءكم وامرهم على رجل واحد منكم يريد أن يفرق جماعتكم فإضربوا عنقه بالسيف كائنا من كان وقوله يصلون لكم فإن أصابوا فلكم ولهم وإن أخطأوا فلكم وعليهم وقوله ستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة

منها واحدة ناجية وإثنتان وسبعون في النار وقيل ومن الفرقة الناجية قال هي الجماعة يد الله على الجماعة و
باب الفساد الذي وقع في هذه الأمة بل وفي غيرها هو التفرق والاختلاف فإنه وقع بين امرائها وعلمائها من
ملوكها ومشايخها وغيرهم من ذلك ما الله به عليم وإن كان بعض ذلك مغفورا لصاحبه لإجتهاده الذي يغفر فيه
خطؤه أو لحسناته الماحية أو توبته أو لغير ذلك لكن يعلم أن رعايته من اعظم أصول الإسلام ولهذا كان إمتياز أهل
النجاة عن أهل العذاب من هذه الأمة بالسنة والجماعة ويذكرون في كثير من السنن والآثار في ذلك ما يطول ذكره
وكان الأصل الثالث بعد الكتاب والسنة الذي يجب تقديم العمل به هو الإجماع فإن الله لا يجمع هذه الأمة على
ضلالة^١

قلب الدين

قال تعالى { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي
حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } {٩} { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ
فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخْوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } {١٠} { الحجرات ٩-١٠ } وتوحيد الله وإخلاص الدين له في عبادته
وإستعانته في القرآن كثير جدا بل هو قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره كما قال النبي صلى الله عليه وسلم أمرت
أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقال إني لأعلم كلمة لا يقولها عند الموت
أحد إلا وجد روحه لها روحا وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة وهو قلب الدين
والإيمان وسائر الأعمال كالجوارح له وقول النبي إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرى ما نوى فمن كانت
هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى
ما هاجر اليه فبين بهذا أن النية عمل القلب وهي أصل العمل وإخلاص الدين لله وعبادة الله وحده ومتابعة الرسول
فيما جاء به هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وهو دين الإسلام العام الذي بعث الله به جميع
الرسل كما قال تعالى { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } {النحل ٣٦} وقال النبي
لمعاذ بن جبل يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا
به شيئا أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وقال لابن عباس إذا سألت فاسئل الله وإذا
استعنت فاستعن بالله وقال تعالى { فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا } {الزخرف ٦٣} فجعل العبادة والتقوى لله وجعل له أن
يطاع وكذلك في مواضع كثيرة جدا من القرآن اتقوا الله اتقوا الله { وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ }
{ الحجرات ١٠ }^٢

لطائف لغوية

١- قال تعالى { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي
حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } {٩} { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ
فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخْوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } {١٠} { الحجرات ٩-١٠ }
ولفظ البغي إذا أطلق فهو الظلم كما قال تعالى { فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي }
{ الحجرات ٩ }^٣

^١ مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ٣٥٩

^٢ مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٧٢

^٣ منهاج السنة النبوية ج: ٤ ص: ٤١٨

٢- قال تعالى { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } ٩ { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } ١٠ { الحجرات ٩-١٠ }

أن اسم تقوى الله يجمع فعل كل ما أمر الله به ايجابا واستحبابا وما نهى عنه تحريما وتنزيها وهذا يجمع حقوق الله وحقوق العباد^١

٣- قال تعالى { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } ٩ { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } ١٠ { الحجرات ٩-١٠ }

عامية الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقيد وكذلك اذا أفرد اسم طاعة الله دخل في طاعته كل ما أمر به وكانت طاعة الرسول داخلة في طاعته وكذا اسم التقوى اذا افرد دخل فيه فعل كل مأمور به وترك كل محظور قال طلق بن حبيب التقوى ان تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو رحمة الله وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله وهذا كما في قوله { إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ } ٥٤ { فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ } ٥٥ { القمر ٥٤-٥٥ } وقد يقرن بها اسم آخر كقوله { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا } ٢ { وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَّوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ } ٣ { الطلاق ٢-٣ } وقوله { إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ } يوسف ٩٠ وقوله { وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ } النساء ١^٢

٤- قال تعالى { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } ٩ { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } ١٠ { الحجرات ٩-١٠ }

أن جميع الأفعال مشتقة سواء كانت هي مشتقة من المصدر أو كان المصدر مشتقا منها أو كان كل واحد منهما مشتقا من الآخر بمعنى أن بينهما مناسبة في اللفظ والمعنى لا بمعنى أن أحدهما أصل والآخر فرع بمنزلة المعاني المتضافية كالأبوة والبنوة أو كالأخوة من الجانبين ونحو ذلك فعلى كل حال إذا أمر بفعل كان نفس مصدر الفعل أمرا مطلوباً للأمر مقصوداً له كما في قوله { وَاتَّقُوا اللَّهَ } الحجرات ١٠ وفي قوله { وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } البقرة ١٩٥ وفي قوله { آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } الحديد ٧ وفي قوله { اعْبُدُوا اللَّهَ رَبَّي وَرَبَّكُمْ } المائدة ٧٢ وفي قوله { فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا } يونس ٨٤ فإن نفس التقوى والإحسان والإيمان والعبادة والتوكل أمور مطلوبة مقصودة بل هي نفس المأمور به^٣

أن الأمر إذا تعلق باسم مفعول مشتق من معنى كان ذلك المعنى علة للحكم كما في قوله عز وجل { فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ } الحجرات ١٠ وقوله { فاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ } التوبة ٥ وقول النبي صلى الله عليه وسلم عودوا المريض وأطعموا الجائع وفكوا العاني وهذا كثير معلوم فإذا كان نفس الفعل المأمور به مشتقا من معنى أعم منه كان نفس الطلب والاقتضاء قد علق بذلك المعنى الأعم فيكون مطلوباً بطريق الأولى^٤

^١ الزهد والورع والعبادة ج: ١ ص: ٩٠

^٢ مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٤

^٣ اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٥١

^٤ اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٥١

الحجرات ١١-١٣

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } { ١١ } يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ } { ١٢ } يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } { ١٣ }

" سباب المسلم فسوق وقتاله كفر "

ففي الصحيحين عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال سباب المسلم فسوق وقتاله كفر وقد قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } { الحجرات ١١ } فقد نهى عن السخرية واللمز والتنابز بالألقاب واللمز العيب والطعن ومنه قوله تعالى { وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ } التوبة ٥٨ أي يعيبك ويطعن عليك وقوله { الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ } التوبة ٧٩ وقوله { وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ } { الحجرات ١١ } أي لا يلمز بعضكم بعضاً كقوله { لَوْلَا إِذ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَأَنفُسِهِمْ خَيْرًا } { النور ١٢ } وقوله { فَتَوَبُوا إِلَىٰ بَارئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ } { البقرة ٥٤ } وقد قال تعالى { وَيَلِّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٌ } { الهزلة ١ } والهمز العيب والطعن بشدة وعنف ومنه همز الأرض بعقبة ومنه الهزلة وهي نيرة من الصدر

حصر الظلم فيمن لم يتب

الصواب الذي عليه أئمة المسلمين أن كل من تاب تاب الله عليه كما قال الله تعالى { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } { الزمر ٥٣ } فقد ذكر في هذه الآية أنه يغفر للتائب الذنوب جميعاً ولهذا أطلق وعمم وقال في الآية الأخرى { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ } { النساء ٤٨ } فهذا في غير التائب ولهذا قيد وخصص والشرك الذي لا يغفره الله يغفره لمن تاب باتفاق المسلمين وما يقال إن في ذلك حقا لآدمي يجاب عنه ان الله أمر بتوبة السارق و الملقب ونحوهما الذنوب التي تعلق بها حقوق العباد كقول { وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } { ٣٨ } فَمَنْ تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ

الله غفورٌ رحيمٌ {٣٩} المائدة ٣٨-٣٩ وقال { وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } الحجرات ١١ ومن توبة مثل هذا أن يعرض المظلوم من الاحسان اليه بقدر اساءته اليه ^١

ومن لم يتب فهو الظالم لنفسه كما قال { بئسَ الاسمُ الفسوقُ بعدَ الإيمانِ ومنَ لم يتبْ فأولئك همُ الظالمونَ } الحجرات ١١ فحصر الظلم فيمن لم يتب فمن تاب فليس بظالم فلا يجعل متعديا لحدود الله بل وجود قوله كعدمه ومن لم يتب فهو محل اجتهاد ^٢

جماع الشر الجهل والظلم

قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْنَاهُ وَأَنْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ } الحجرات ١٢ قال النبي صلى الله عليه وسلم إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ^٣

فإن اتباع الظن جهل واتباع هوى النفس بغير هدى من الله ظلم وجماع الشر الجهل والظلم قال الله تعالى { وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا } الأحزاب ٧٢ ^٤

" الغيبة ذكرك أخاك بما يكره "

قال تعالى { وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا } الحجرات ١٢ وثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الغيبة ذكرك أخاك بما يكره قيل أ رأيت إن كان في أخي ما أقول قال إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتة وإن لم يكن فيه فقد بهته فمن رمى أحدا بما ليس فيه فقد بهته فكيف إذا كان ذلك في لصحابة ومن قال عن مجتهد إنه تعدد الظلم وتعد معصية الله ورسوله ومخالفة الكتاب والسنة ولم يكن كذلك فقد بهته وإذا كان فيه ذلك فقد اغتابه لكن يباح من ذلك ما أباحه الله ورسوله وهو ما يكون على وجه القصاص والعدل وما يحتاج إليه لمصلحة الدين ونصيحة المسلمين فالأول كقول المشتكى المطلوب فلان ضربني وأخذ مالي ومنعني حقي ونحو ذلك قال تعالى { لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظَلِمَ } النساء ٤٨ وقد نزلت فيمن ضاف قوما فلم يقروه لأن قرى الضيف واجب كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة فلما منعه حقه كان له ذكر ذلك وقد أذن له النبي صلى الله عليه وسلم أن يعاقبهم بمثل قراه في زرعه ومالههم وقال نصره واجب على كل مسلم لأنه قد ثبت عنه في الصحيح أنه قال أنصر أخاك ظالما أو مظلوما قلت يا رسول الله أنصره مظلوما فكيف أنصره ظالما قال تمنعه من الظلم فذلك نصرك إياه وأما الحاجة فمثل استفتاء هند بنت عتبة كما ثبت في الصحيح أنها قالت يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني وبنني ما يكفيني بالمعروف فقال النبي صلى الله عليه وسلم خذي ما يكفيك ولدك بالمعروف أخرجاه في الصحيحين من حديث عائشة فلم ينكر عليها قولها وهو من جنس قول المظلوم وأما النصيحة فمثل قوله صلى الله عليه وسلم لفاطمة بنت قيس لما استشارته فيمن خطبها فقالت خطبني أبو جهم ومعاوية فقال أما معاوية فصعلوك لا مال له وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه وفي لفظ يضرب النساء أنكحي أسامه فلما استشارته حتى تنزوج ذكر ما تحتاج إليه وكذلك من استشار رجلا فيمن يعامله والنصيحة مأمور بها ولو لم يشاوره فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الدين النصيحة الدين النصيحة ثلاثا قالوا لمن يا رسول الله قال الله وكتابه ولسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم وكذلك بيان أهل العلم لمن غلط في رواية عن النبي صلى الله عليه

^١ مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ٥٢٨- ٥٢٩

^٢ مجموع الفتاوى ج: ٢٩ ص: ٤٢٣

^٣ مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٣٣٨

^٤ مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٣٤٨

عليه وسلم أو تعمد الكذب عليه أو على من ينقبل عنه العلم وكذلك بيان من غلط في رأي رآه في أمر الدين من المسائل العلمية والعملية فهذا إذا تكلم فيه الإنسان بعلم وعدل وقصد النصيحة فإله تعالى يثيبه على ذلك لا سيما إذا كان المتكلم فيه داعيا إلى بدعة فهذا يجب بيان أمره للناس فإن دفع شره عنهم أعظم من دفع شر قاطع الطريق وجكم المتكلم باجتهاده في العلم والدين حكم أمثاله من المجتهدين ثم قد يكون مجتهدا مخطئا أو مصيبا وقد يكون كل من الرجلين المختلفين باللسان أو اليد مجتهدا يعتقد الصواب معه وقد يكونان جميعا مخطئين مغفورا لهما كما ذكرنا نظير ذلك مما كان يجري بين الصحابة ولهذا ينهى عما شجر بين هؤلاء سواء كانوا من الصحابة أو ممن بعدهم فإذا تشاجر مسلمان في قضية ومضت ولا تعلق للناس بها ولا يعرفون حقيقتها كان كلامهم فيها كلاما بلا علم ولا عدل يتضمن أذاهما بغير حق ولو عرفوا أنهما مذنبان أو مخطئان لكان ذكر ذلك

من غير مصلحة راجحة من باب الغيبة المذمومة لكن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أعظم حرمة وأجل قدرا وأنزه أعراضا وقد ثبت من فضائلهم خصوصا وعموما ما لم يثبت لغيرهم فهذا كان كلام الذي فيه ذمهم على ما شجر بينهم أعظم إثمًا من الكلام في غيرهم

قال الله تعالى لما ذكر الغيبة **{أَيُّجِبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ}** {الحجرات ١٢} فجعل الغيبة التي هي كلام صحيح بمنزلة اكل لحم المغتاب ميتا فكيف ببهتانه

" كفارة الغيبة ان تستغفر لمن اغتبه "

ان توبة العبد فيما بينه وبين الله ممكنة من جميع الذنوب حتى انه لو سب سرا احادا من الناس موتى ثم تاب واستغفر لهم بدل سبهم لرجي ان يغفر الله له ولا يكلف الله نفسا الا وسعها فكذلك ساب الانبياء والرسل لو لم تقبل توبته وتغفر زلته لانسد باب التوبة وقطع طريق المغفرة والرحمة وقد قال تعالى لما نهى عن الغيبة **{أَيُّجِبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ}** {الحجرات ١٢} فعلم ان المغتاب له سبيل الى التوبة بكل حال وان كان الذي اغتیب ميتا او غائبا بل على اصح الروايتين ليس عليه ان يستحله في الدنيا اذا لم يكن علم فان فساد ذلك اكثر من صلاحه وفي الاثر كفارة الغيبة ان تستغفر لمن اغتبه وقد قال تعالى **{إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ}** {هود ١١٤} ٣

أن التوبة المجردة تسقط حق الله من العقاب وأما حق المظلوم فلا يسقط بمجرد التوبة وهذا حق ولا فرق في ذلك بين القاتل وسائر الظالمين فمن تاب من ظلم لم يسقط بتوبته حق المظلوم لكن من تمام توبته أن يعوضه بمثل مظلّمته وإن لم يعوضه في الدنيا فلا بد له من العوض في الآخرة فينبغي للظالم التائب أن يستكثر من الحسنات حتى إذا استوفى المظلومون حقوقهم لم يبق مفلسا ومع هذا فإذا شاء الله أن يعوض المظلوم من عنده فلا راد لفضله كما إذا شاء أن يغفر ما دون الشرك لمن يشاء ولهذا في حديث القصاص الذي ركب فيه جابر بن عبد الله إلى عبد الله بن أنيس شهرا حتى شافهه به وقد رواه الإمام أحمد وغيره واستشهد به البخاري في صحيحه وهو من جنس حديث الترمذي صحاحه أو حسانه قال فيه إذا كان يوم القيامة فإن الله يجمع الخلائق في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك أنا الديان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار قبله مظلمة ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار ولأحد من أهل الجنة حتى أقصه منه فبين في الحديث العدل والقصاص بين أهل الجنة وأهل النار وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد أن أهل الجنة إذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة وقد قال سبحانه لما قال **{وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم**

^١ منهاج السنة النبوية ج: ٥ ص: ١٤٣-١٤٦

^٢ الصارم المسلول ج: ٢ ص: ٥٣٢

^٣ الصارم المسلول ج: ٣ ص: ٩١٨

بَعْضاً { الحجرات ١٢ والاعتياب من ظلم الأعراض قال { **أَيُّجِبُ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ** { الحجرات ١٢ فقد نبههم على التوبة من الاعتياب وهو من الظلم وفي الحديث الصحيح من كان عنده لأخيه مظلمة في دم أو مال أو عرض فليأتته فليستحل منه قبل أن يأتي يوم ليس فيه درهم ولا دينار إلا الحسنات والسيئات فإن كان له حسنات وإلا أخذ من سيئات صاحبه فطرحت عليه ثم يلقي في النار أو كما قال وهذا فيما علمه المظلوم من العوض فأما إذا اغتابه أو قذفه ولم يعلم بذلك فقد قيل من شرط توبته إعلامه وقيل لا يشترط ذلك وهذا قول الأكثرين وهما روايتان عن أحمد لكن قوله مثل هذا أن يفعل مع المظلوم حسنات كالدعاء له والاستغفار وعمل صالح يهدى إليه يقوم مقام اغتابه وقذفه قال الحسن البصري كفارة الغيبة أن نستغفر لمن اغتابته^١

العبادة والتقوى لله وحده

قال تعالى { **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُّجِبُ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ** { الحجرات ١٢ وتوحيد الله وإخلاص الدين له في عبادته وإستعانته في القرآن كثير جدا بل هو قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره كما قال النبي صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقال إني لأعلم كلمة لا يقولها عند الموت أحد إلا وجد روحه لها روحا وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة وهو قلب الدين والإيمان وسائر الأعمال كالجوارح له وقول النبي إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرى ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه فبين بهذا أن النية عمل القلب وهى أصل العمل وإخلاص الدين لله وعبادة الله وحده ومتابعة الرسول فيما جاء به هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وهو دين الإسلام العام الذى بعث الله به جميع الرسل كما قال تعالى { **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** { النحل ٣٦ وقال النبي لمعاد بن جبل يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وقال لابن عباس إذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله وقال تعالى { **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا** { الزخرف ٦٣ فجعل العبادة والتقوى لله وجعل له أن يطاع وكذلك فى مواضع كثيرة جدا من القرآن اتقوا الله { **وَاتَّقُوا اللَّهَ** { الحجرات ١٢^٢

الفضيلة بكمال الإيمان والتقوى لا بقرب النسب

قال تعالى { **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** { الحجرات ١٣ فإن الله لم يثن على أحد بمجرد نسبه بل إنما يثنه عليه بإيمانه وتقواه كما قال تعالى { **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** { الحجرات ١٣ وإن كان الناس معادن كعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح فالمعدن هو مظنة حصول المطلوب فإن لم يحصل وإلا كان المعدن الناقص الذي يحصل منه المطلوب خيرا منه^٣

^١ الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٤٣١- ٤٣٣ و مجموع الفتاوى ج: ١٨ ص: ١٨٧- ١٩٠

^٢ مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٧٢

^٣ منهاج السنة النبوية ج: ٤ ص: ٣٥٣

أن الفضيلة بكمال الإيمان والتقوى لا بقرب النسب كما قال تعالى { **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَأكُمْ** } { الحجرات ١٣ } وقد ثبت أن الصديق كان أتقى الأمة بالكتاب والسنة وتواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً^١

والقرآن قد دل على أن الناس فيهم كريم على الله يكرمه و فيهم من يهينه قال تعالى { **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَأكُمْ** } { الحجرات ١٣ } وقال تعالى { **وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ** } { الحج ١٨ } وقال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل و إياك و كرائم أموالهم و اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها و بين الله حجاب و كرائم الأموال التي تكرم على أصحابها لحاجتهم إليها و انتفاعهم بها من الأنعام و غيرها^٢

تعليق الشرف في الدين بمجرد النسب من أحكام الجاهلية

أن تعليق الشرف في الدين بمجرد النسب هو حكم من أحكام الجاهلية الذين اتبعهم عليه الرافضة وأشباههم من أهل الجهل فإن الله تعالى قال { **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَأكُمْ** } { الحجرات ١٣ } وقال النبي صلى الله عليه وسلم لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أبيض ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى الناس من آدم و آدم من تراب ولهذا ليس في كتاب الله آية واحدة يمدح فيها أحدا بنسبه ولا يذم أحدا بنسبه وإنما يمدح الإيمان والتقوى ويذم بالكفر والفسوق والعصيان وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم الصحيح أنه قال أربع من أمر الجاهلية في أمي لن يدعوهن الفخر بالأحساب والطعن في الأنساب والنياحة والاستسقاء بالنجوم فجعل الفخر بالأحساب من أمور الجاهلية فإذا كان المسلم لا فخر له على المسلم بكون أجداده لهم حسب شريف فكيف يكون لكافر من أهل الكتاب فخر على كافر من أهل الكتاب بكون أجداده كانوا مؤمنين وإذا لم تكن مع التماثل في الدين فضيلة لأجل النسب^٣

التقوى العمل بطاعة الله على نور من الله

أعلم أنه يجب على كل بالغ عاقل من الإنس والجن أن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا أرسله إلى جميع الخلق إنسهم و جنهم و عربهم و عجمهم و فرسهم و هندهم و بربرهم و رومهم و سائر أصناف العجم أسودهم و أبيضهم و المراد بالعجم من ليس بعربي على اختلاف سنتهم فمحمد أرسل إلى كل أحد من الإنس والجن كتابيهم و غير كتابيهم في كل ما يتعلق بدينه من الأمور الباطنة والظاهرة في عقائده وحقائقه وطرائفه وشرائعه فلا عقيدة إلا عقيدته ولا حقيقة إلا حقيقته ولا طريقة إلا طريقته ولا شريعة إلا شريعته ولا يصل أحد من الخلق إلى الله وإلى رضوانه و جنته وكرامته و ولايته إلا بمتابعته باطنا وظاهرا في الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة في أقوال القلب و عقائده و أحوال القلب وحقائقه و أقوال اللسان و أعمال الجوارح و ليس لله ولى إلا من إتبعه باطنا وظاهرا فصدقه فيما أخبر به من الغيوب و التزم طاعته فيما فرض على الخلق من أداء الواجبات و ترك المحرمات فمن لم يكن له مصدقا فيما أخبر ملتزما طاعته فيما أوجب و أمر به في الأمور الباطنة التي في القلوب و الأعمال الظاهرة التي على الأبدان لم يكن مؤمنا فضلا عن أن يكون وليا لله ولو حصل له من خوارق العادات ماذا عسى أن يحصل فإنه لا يكون مع تركه لفعل المأمور و ترك المحذور من أداء الواجبات من الصلاة و غيرها بطهارتها و واجباتها إلا من أهل الأحوال الشيطانية

^١ منهاج السنة النبوية ج: ٤ ص: ٢٨

^٢ مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٢٩٥

^٣ الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ١٩٩ و مجموع الفتاوى ج: ٣٥ ص: ٢٣٠ و دقائق التفسير ج: ٢ ص: ٢٢ ص:

المبعدة لصاحبها عن الله المقربة إلى سخطه وعذابه لكن من ليس بمكلف من الأطفال والمجانين قد رفع القلم عنهم فلا يعاقبون وليس لهم من الإيمان بالله وتقواه باطنا وظاهرا ما يكونون به من أولياء الله المتقين وحزبه المفلحين وجنده الغالبين لكن يدخلون في الإسلام تبعا لأبائهم كما قال تعالى { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ } الطور ٢١ وهم مع عدم العقل لا يكونون ممن فى قلوبهم حقائق الإيمان ومعارف أهل ولاية الله وأحوال خواص الله لأن هذه الأمور كلها مشروطة بالعقل فالجنون مضاد العقل والتصديق والمعرفة واليقين والهدى والثناء وإنما { يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ } المجادلة ١١ فالمجنون وإن كان الله لا يعاقبه ويرحمه فى الآخرة فإنه لا يكون من أولياء الله المقربين والمقتصدين الذين يرفع الله درجاتهم ومن ظن أن احدا من هؤلاء الذين لا يؤدون الواجبات ولا يتركون المحرمات سواء كان عاقلا أو مجنونا أو مولها أو متولها فمن إعتقد أن احدا من هؤلاء من أولياء الله المتقين وحزبه المفلحين وعباده الصالحين وجنده الغالبين السابقين المقربين والمقتصدين الذين يرفع الله درجاتهم بالعلم والإيمان مع كونه لا يؤدي الواجبات ولا يترك المحرمات كان المعتقد لولاية مثل هذا كافرا مرتدا عن دين الإسلام غير شاهد أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم بل هو مكذب لمحمد فيما شهد به لأن محمدا أخبر عن الله أن أولياء الله هم المتقون المؤمنون قال تعالى { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } {٦٢} الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } {٦٣} بونس ٦٢-٦٣ وقال تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ } الحجرات ١٣ و التقوى أن يعمل الرجل بطاعة الله على نور من الله يرجو رحمة الله وأن يترك معصية الله على نور من الله يخاف عذاب الله ولا يتقرب الى الله إلا بأداء فرائضه ثم بأداء نوافله قال تعالى وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه كما جاء فى الحديث الصحيح الإلهي الذي رواه البخارى^١

والتقوى هى ما فسرها الله تعالى فى قوله { وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ } البقرة ١٧٧ إلى قوله { أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ } البقرة ١٧٧ وجماعها فعل ما أمر الله به ورسوله وترك ما نهى الله عنه ورسوله^٢

لم يثن الله على أحد فى القرآن بنسبه

أما الأمور الخارجية عن نفس الإيمان والتقوى فلا يحصل بها فضيلة عند الله تعالى وإنما يحصل بها الفضيلة عند الله إذا كانت معينة على ذلك فإنها من باب الوسائل لا المقاصد كالمال والسلطان والقوة والصحة ونحو ذلك فإن هذه الأمور لا يفضل بها الرجل عند الله إلا إذا أعانته على طاعة الله بحسب ما يعينه قال الله تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ } الحجرات ١٣ وفى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل أي الناس أكرم فقال أتقاهم لله قيل ليس عن هذا نسألك قال يوسف نبي الله بن يعقوب نبي الله بن إسحاق نبي الله بن إبراهيم خليل الله قيل ليس عن هذا نسألك قال أفعن معادن العرب تسألوني خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا بين لهم أولا أن اكرم الخلق عند الله أتقاهم وإن لم يكن ابن نبي ولا أبا نبي فإبراهيم النبي صلى الله عليه وسلم أكرم على الله من يوسف وإن كان أبوه أزر وهذا أبوه يعقوب وكذلك نوح أكرم على الله من إسرائيل وإن كان هذا اولاده أنبياء وهذا اولاده ليسوا بأنبياء فلما ذكروا أنه ليس مقصودهم إلا الأنساب قال لهم فأكرم أهل الأنساب من انتسب إلى الأنبياء وليس فى ولد آدم مثل يوسف فإنه نبي ابن نبي ابن نبي فلما أشاروا إلى أنه ليس مقصودهم إلا ما يتعلق بهم قال أفعن معادن العرب تسألوني الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا بين أن الأنساب

^١ مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٤٣٠-٤٣٢ و الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٢٦٣

^٢ مجموع الفتاوى ج: ٢٧ ص: ٣٩

كالمعادن فإن الرجل يتولد منه كما يتولد من المعدن الذهب والفضة ولا ريب أن الأرض التي تنبت الذهب أفضل من الأرض التي تنبت الفضة فهكذا من عرف أنه يلد الأفاضل كان أولاده أفضل ممن عرف أنه يلد المفضول لكن هذا سبب ومظنه وليس هو لازماً فربما تعطلت أرض الذهب وربما قل نبتتها فحينئذ تكون أرض الفضة أحب إلى الإنسان من أرض معطلة والفضة الكثيرة أحب إليهم من ذهب قليل لا يماثلها في القدر فلها كان أهل الأنساب الفاضلة يظن بهم الخير ويكرمون لأجل ذلك فإذا تحقق من أحدهم خلاف ذلك كانت الحقيقة مقدمة على المظنة وأما ما عند الله فلا يثبت على المظان ولا على الدلائل إنما يثبت على ما يعلمه هو من الأعمال الصالحة فلا يحتاج إلى دليل ولا يجتزىء بالمظنة فلها كان أكرم الخلق عنده أتقاهم فإذا قدر تماثل اثنين عنده في التقوى تماثلاً في الدرجة وإن كان أبو أحدهما أو ابنه أفضل من أبي الآخر أو ابنه لكن إن حصل له بسبب نسبه زيادة في التقوى كان أفضل لزيادة تقواه ولهذا حصل الأزواج النبي صلى الله عليه وسلم إذا قنتن لله ورسوله وعملن صالحاً لا لمجرد المصاهرة بل لكمال الطاعة كما أنهن لو أتيتن بفاحشة مبينة لضوعف لهن العذاب ضعفين لقبح المعصية فإن ذا الشرف إذا ألزم نفسه التقوى كما تقواه أكمل من تقوى غيره كما أن الملك إذا عدل كان عدله أعظم من عدل الرجل في أهله ثم إن الرجل إذا قصد الخير قصداً جازماً وعمل منه ما يقدر عليه كان له أجر كامل كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح إن بالمدينة رجلاً ما سرتهم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم قالوا وهم في المدينة قال وهم بالمدينة حبسهم العذر ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في الصحيح من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من أتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الوزر مثل أوزار من أتبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً وهذا مبسوط في موضع آخر ولهذا لم يثن الله على أحد في القرآن بنسبه أصلاً لا على ولد نبي ولا على أبي نبي وإنما أثنى على الناس بإيمانهم وأعمالهم وإذا ذكر صنفاً وأثنى عليهم فلما فيهم من الإيمان والعمل لا لمجرد النسب ولما ذكر الأنبياء ذكرهم في الأنعام وهم ثمانية عشر قال { وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } الأنعام ٨٧ فهذا حصلت الفضيلة باجتنابهم سبحانه وتعالى وهدايتهم إياهم إلى صراط مستقيم لا بنفس القرابة وقد يوجب النسب حقوقاً ويوجب لأجله حقوقاً ويعلق فيه أحكاماً من الإيجاب والتحريم والإباحة لكن الثواب والعقاب والوعد والوعيد على الأعمال لا على الأنساب ولما قال تعالى { إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ } آل عمران ٣٣ وقال { أَمْ يَحْسُبُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا } النساء ٥٤ كان هذا مدحاً لهذا المعدن الشريف لما فيهم من الإيمان والعمل الصالح ومن لم يتصف بذلك منهم لم يدخل في المدح كما في قوله تعالى { وَوَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ } الحديد ٢٦ وقال تعالى { وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ } الصافات ١١٣ وفي القرآن الثناء والمدح للصحابة بإيمانهم وأعمالهم في غير آية كقوله { وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ } التوبة ١٠٠ وقوله { لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } الحديد ١٠ وقوله { لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا } الفتح ١٨ وقوله { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا } الفتح ٤ وقوله { وَاللَّفْقَاءَ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَتَصَرَّوْنَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } ٨ { وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ } الحشر ٩٨ وقوله { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ } الفتح ٢٩ وهكذا في القرآن الثناء على المؤمنين من الأمة أولها وآخرها على المتقين والمحسنين والمقسطين والصالحين وأمثلة هذه الأنواع وأما النسب ففي القرآن إثبات حق لنبي القربى كما ذكروا هم في آية الخمس والفيء وفي القرآن أمر لهم بما يذهب عنهم الرجس ويبطهرهم تطهيراً وفي القرآن الأمر بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وقد فسر ذلك بأن يصلى عليه وعلى آله وفي القرآن الأمر بمحبة الله ومحبة رسوله ومحبة أهله من تمام محبته وفي القرآن أن أزواجه أمهات المؤمنين وليس في القرآن مدح أحد لمجرد كونه من ذوي القربى وأهل البيت ولا الثناء عليهم بذلك ولا ذكر استحقاقه الفضيلة عند الله بذلك ولا تفضيله على من يساويه في التقوى بذلك وإن كان قد ذكر ما ذكره من اصطفاء آل إبراهيم واصطفاء بني إسرائيل فذاك أمر ماض فأخبرنا بي في جعله عبرة لنا فبين مع ذلك أن الجزاء والمدح بالأعمال ولهذا ذكر

ما ذكره من اصطفاء بني إسرائيل وذكر ما ذكره من كفر من كفر منهم وذنوبهم وعقوبتهم فذكر فيهم النوعين الثواب والعقاب وهذا من تمام تحقيق أن النسب الشريف قد يقترن به المدح تارة إن كان صاحبه من أهل الإيمان والتقوى وإلا فإن ذم صاحبه أكثر كما كان الذم لمن ذم من بني إسرائيل وذرية إبراهيم وكذلك المصاهرة قال تعالى {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ وَامْرَأةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ} {١٠} وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} {١١} التحريم ١٠ - ١١ وإذا تبين هذا فيقال إذا كان الرجل أعجميا والآخر من العرب فنحن وإن كنا نقول مجملا إن العرب أفضل جملة فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو داود وغيره لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأبيض على أسود ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى الناس من آدم وادم من تراب وقال إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء الناس رجلا من مؤمن تقى وفاجر شقى ولذلك إذا كان الرجل من أفناء العرب والعجم وآخر من قريش فهما عند الله بحسب تقواهما إن تماثلا فيها تماثلا في الدرجة عند الله وإن تفاضلا فيها تفاضلا في الدرجة وكذلك إذا كان رجل من بني هاشم ورجل من الناس أو العرب أو العجم فاضلها عند الله أتقاهما فإن تماثلا في التقوى تماثلا في الدرجة ولا يفضل أحدهما عند الله لا بأبيه ولا ابنه ولا بزوجه ولا بعمه ولا بأخيه كما أن الرجلين إن كانا عالمين بالطب أو الحساب أو الفقه أو النحو أو غير ذلك فأكملهما بالعلم بذلك أعلمهما به فإن تساويا في ذلك تساويا في العلم ولا يكون أحدهما أعلم بكون أبيه أو ابنه أعلم من الآخر وهكذا في الشجاعة والكرم والزهد والدين إذا تبين ذلك فالفضائل الخارجية لا عبرة بها عند الله تعالى إلا أن تكون سببا في زيادة الفضائل الداخلية وحينئذ فتكون الفضيلة بالفضائل الداخلية وأما الفضائل البدنية فلا اعتبار بها إن لم تكن صادرة عن الفضيلة النفسانية وإلا فمن صلى وصام وقاتل وتصدق بغير نية خالصة لم يفضل بذلك فالاعتبار بالقلب كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسدت لها سائر الجسد ألا وهي القلب^١

القرابة لم يعلق بها ثوابا ولا عقابا ولا مدح

ولا ريب أنه لال محمد صلى الله عليه وسلم حقا على الأمة لا يشكرهم فيه غيرهم ويستحقون من زيادة المحبة والمواولة مالا يستحقه سائر بطون قريش كما أن قريشا يستحقون من المحبة والمالة مالا يستحقه غير قريش من القبائل كما أن جنس العرب يستحق من المحبة والمواولة مالا يستحقه سائر أجناس بني ادم وهذا على مذهب الجمهور الذين يرون فضل العرب على غيرهم وفضل قريش على سائر العرب وفضل بني هاشم على سائر قريش وهذا هو المنصوص عن الأئمة كأحمد وغيره والنصوص دلت على هذا القول كقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح إن الله اصطفى قريشا من كنانة واصطفى بني هاشم من قريش واصطفاني من بني هاشم وكقوله في الحديث الصحيح الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا وأمثال ذلك وذهبت طائفة إلى عدم التفضيل بين هذه الأجناس وهذا قول طائفة من أهل الكلام كالقاضي أبي بكر بن الطيب وغيره وهو الذي ذكره القاضي أبو يعلى في المعتمد وهذا القول يقال له مذهب الشعوبية وهو قول ضعيف من أقوال أهل البدع كما بسط في موضعه وبيننا أن تفضيل الجملة على الجملة لا يقتضي تفضيل كل فرد على كل فرد كما أن تفضيل القرن الأول على الثاني والثاني على الثالث لا يقتضي ذلك بل في القرن الثالث من هو خير من كثير من القرن الثاني وإنما تنازع العلماء هل في غير الصحابة من هو خير من بعضهم على قولين ولا ريب أنه قد ثبت اختصاص قريش بحكم شرعي وهو كون الإمامية فيهم دون غيرهم وثبت اختصاص بني هاشم بتحريم الصدقة عليهم وكذلك استحقاقهم من الفداء عند أكثر العلماء وبنو المطلب معهم في ذلك فالصلاة عليهم من هذا الباب فهم مخصوصون بأحكام لهم وعليهم وهذه الأحكام تثبت للواحد منهم وإن لم يكن رجلا صالحا بل كان عاصيا

^١ منهاج السنة النبوية ج: ٨ ص: ٢١٥-٢٢٢

وأما نفس ترتيب الثواب والعقاب على القرابة ومدح الله عز وجل للشخص المعين وكرامته عند الله تعالى فهذا لا يؤثر فيه النسب وإنما يؤثر فيه الإيمان والعمل الصالح وهو التقوى كما قال تعالى { **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** } {الحجرات ١٣} وقد ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل أي الناس أكرم فقال أبقاهم فقالوا ليس عن هذا نسألك قال فيوسف النبي الله ابن يعقوب النبي الله ابن إسحاق النبي الله ابن إبراهيم خليل الله قالوا ليس عن هذا نسألك قال أفعن معادن العرب تسألوني خيارهم في الجاهلية في الإسلام إذا فقهوا وثبت عنه في الصحيح أنه قال من بطأ من عمله لم يسرع به نسبه رواه مسلم ولهذا أثنى الله في القرآن على السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وأخبر أنه رضى عنهم كما أثنى على المؤمنين عموماً فكون الرجل مؤمناً وصف استحق به المدح والثواب عند الله وكذلك كونه ممن آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم وصحبه وصف يستحق به المدح والثواب ثم هم متفاوتون في الصحبة فأقومهم بما أمر الله به ورسوله في الصحبة أفضل ممن هو دونه كفضل السابقين الأولين على من دونهم وهم الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا ومنهم أهل بيعة الرضوان وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة وهؤلاء لا يدخل النار منهم أحد كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم وأما نفس القرابة فلم يعلق بها ثواباً ولا عقاباً ولا مدحاً أحداً بمجرد ذلك وهذا لا ينافي ما ذكرناه من أن بعض الأجناس والقبائل أفضل من بعض فإن هذا التفضيل معناه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا فالأرض إذا كان فيها معدن ذهب ومعدن فضة كان معدن الذهب خيراً لأنه مظنة وجود أفضل الأمور فيه فإن قدر أنه تعطل ولم يخرج ذهباً كان ما يخرج الفضة أفضل منه فالعرب في الأجناس وقريش فيها ثم هاشم في قريش مظنة أن يكون فيهم من الخير أعظم مما يوجد في غيرهم ولهذا كان في بني هاشم النبي صلى الله عليه وسلم الذي لا يماثله أحد في قريش فضلاً عن وجوده في سائر العرب وغير العرب وكان في قريش الخلفاء الراشدون وسائر العشرة وغيرهم ممن لا يوجد له نظير في العرب وغير العرب وكان في العرب من السابقين الأولين من لا يوجد له نظير في سائر الأجناس فلا بد أن يوجد الصنف الأفضل مالا يوجد مثله في المفضول وقد يوجد في المفضول ما يكون أفضل من كثير مما يوجد في الفاضل كما أن الأنبياء الذين ليسوا من العرب أفضل من العرب الذين ليسوا بأنبياء والمؤمنون المتقون من غير قريش أفضل من القرشيين الذين ليسوا مثلهم في الإيمان والتقوى وكذلك المؤمنون المتقون من قريش وغيرهم أفضل ممن ليس مثلهم في الإيمان والتقوى وهذا هو الأصل المعتمد في هذا الباب دون من إغى فضيلة الأنساب مطلقاً ودون من ظن أن الله تعالى يفضل الإنسان بنسبه على من هو مثله في الإيمان والتقوى فضلاً عن هو أظم إيماناً وتقوى فكلا القولين خطأ وهما متقابلان بل الفضيلة بالنسب فضيلة جملة وفضيلة لأجل المظنة والسبب والفضيلة بالإيمان والتقوى فضيلة تعيين وتحقيق وغاية فالأول يفضل به لأنه سبب وعلامة ولأن الجملة أفضل من جملة تساويها في العدد والثاني يفضل به لأنه الحقيقة والغاية ولأن كل من كان أتقى لله كان أكرم عند الله والثواب من الله يقع على هذا لأن الحقيقة قد وجدت فلم يعلق الحكم بالمظنة ولأن الله تعالى يعلم الأشياء على ما هي عليه فلا يستدل بالأسباب والعلامات ولهذا كان رضا الله عن السابقين الأولين أفضل من الصلاة على آل محمد لأن ذلك إخبار برضا الله عنهم فالرضا قد حصل وهذا طلب وسؤال لما لم يحصل ومحمد صلى الله عليه وسلم قد أخبر الله عنه أنه يصلى عليه هو وملائكته بقوله { **إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ** } {الأحزاب ٥٦} فلم تكن فضيلته بمجرد كون الأمة يصلون عليه بل بأن الله تعالى وملائكته يصلون عليه بخصوصه وإن كان الله وملائكته يصلون على المؤمنين عموماً كما قال تعالى { **هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** } {الأحزاب ٤٣} ويصلون على معلمي الناس الخير كما في الحديث إن الله وملائكته يصلون على معلمي الناس الخير فمحمد صلى الله عليه وسلم لما كان أكمل الناس فيما يستحق به الصلاة من الإيمان وتعليم الخير وغير ذلك كان له من الصلاة عليه خبراً وأمرًا خاصة لا يوجد مثلها لغيره صلى الله عليه وسلم فبنو هاشم لهم حق وعليهم حق والله تعالى إذا أمر الإنسان بما لم يأمر به غيره لم يكن أفضل من غيره بمجرد ذلك بل إن امتثل ما أمر الله به كان أفضل من غيره بالطاعة كولاية الأمور وغيرهم ممن أمر بما لم يؤمر به غيره من أطاع منهم كان أفضل لأن طاعته أكمل ومن لم يطع منهم كان من هو أفضل منه في التقوى أفضل منه ولهذا فضل الخلفاء الراشدون على سائر الناس وفضل من فضل من أمهات المؤمنين على سائر النساء لأن الله أمر الخلفاء بما لم يأمر به غيرهم فقاموا من الأعمال الصالحة بما لم يقرهم بنظيره فصاروا أفضل وكذلك أزواج النبي صلى الله عليه وسلم قال الله لهن { **مَنْ يَأْتِ مِنْكُمْ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا** } {٣٠} وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا } {٣١} {الأحزاب ٣٠-٣١} وهن والله الحمد قنتن لله

رسوله وعملن صالحا فاستحققن الأجر مرتين فصرن أفضل لطاعة الأمر لا لمجرد الأمر ولو قدر والعياذ بالله أن واحدة تأتي بفاحشة مبينة لضوعف لها العذاب ضعفين وقد روى عن علي بن الحسين أنه جعل هذا الحكم عاما في آل البيت وأن عقوبة الواحد منهم تضاعف وتضاعف حسناته كما تضاعف العقوبة والثواب على من كان في المسجد الحرام وعلى من فعل ذلك في شهر رمضان ونحو ذلك وهذا كله مما يبين أن كرامة الله تعالى لعباده إنما هي بالتقوى فقط كما في الحديث الذي في السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أبيض ولا لأبيض على أسود إبلًا بالتقوى الناس من آدم وادم من تراب وقال إن الله تعالى أذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالآباء الناس رجالن مؤمن تقى وفاجر شقى فالصلاة على آل محمد حق لهم عند المسلمين وذلك سبب لرحمة الله تعالى لهم بهذا النسب لأن ذلك يوجب أن يكون كل واحد من بني هاشم لأجل الأمر بالصلاة عليه تبعًا للنبي صلى الله عليه وسلم أفضل ممن لم يصل عليه إلا ترى أن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ} التوبة ١٠٣ وفي الصحيحين عن ابن أبي أوفى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أتاه بصدقتهم صلى عليهم وإن أتاه بصدقته فقال اللهم صل على آل أبي أوفى فهذا فيه إثبات فضيلة لمن صلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم ممن كان يأتيه بالصدقة ولا يلزم من هذا أن يكون كل من لم يأتيه بصدقته لفقره دون من أتاه بصدقة وصلى عليه بل قد يكون من فقراء المهاجرين الذين ليس لهم صدقة يأتيه بها من هو أفضل من كثير ممن أتاه بالصدقة وصلى عليه وقد يكون بعض من يأخذ الصدقة أفضل من بعض من يعطيها وقد يكون فيمن يعطيها أفضل من بعض من يأخذها وإن كانت اليد العليا خيرًا من اليد السفلى فالفضيلة بنوع لا تستلزم أن يكون صاحبها أفضل مطلقًا ولهذا كان في الأغنياء من هو أفضل من جمهور الفقراء وفي الفقراء من هو أفضل من جمهور الأغنياء فإبراهيم وداود وسليمان ويوسف وأمثالهم أفضل من أكثر الفقراء ويحيى وعيسى ونحوهما أفضل من أكثر الأغنياء فلا اعتبار العام هو التقوى كما قال تعالى {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} الحجرات ١٣ فكل من كان أتقى كان أفضل مطلقًا وإذا تساوى اثنان في التقوى استويا في الفضل سواء كانا أو أحدهما غنيين أو فقيرين أو أحدهما غنيا والآخر فقيرًا وسواء كانا أو أحدهما عربيين أو أعجميين أو قرشيين أو هاشميين أو كان أحدهما من صنف والآخر من صنف آخر وإن قدر أن أحدهما له من سبب الفضيلة ومظنتها ما ليس للآخر فإذا كان ذلك قد أتى بحقيقة الفضيلة كان أفضل ممن لم يأت بحقيقتها وإن كان ذلك قد أتى بحقيقة الفضيلة كان أفضل ممن لم يأت بحقيقتها وإن كان أقدر على الإتيان بها فالعالم خير من الجاهل وإن كان الجاهل أقدر على تحصيل العلم والبر أفضل من الفاجر وإن كان الفاجر أقدر على البر والمؤمن الضعيف خير من الكافر القوى وإن كان ذلك يقدر على الإيمان أكثر من المؤمن القوى وبهذا تزول شبه كثيرة تعرض في مثل هذه الأمور^١

ليس لاحد أن ينتسب إلى شيخ يوالى على متابعتة

وأما انتساب الطائفة إلى شيخ معين فلا ريب أن الناس يحتاجون من يتلقون عنه الإيمان والقرآن كما تلقى الصحابة ذلك عن النبي وتلقاه عنهم التابعون وبذلك يحصل اتباع السابقين الأولين باحسان فكما أن المرأ له من يعلمه القرآن ونحوه فكذلك له من يعلمه الدين الباطن والظاهر ولا يتعين ذلك في شخص معين ولا يحتاج الإنسان في ذلك أن ينتسب إلى شيخ معين وكل من افاد غيره افادة دينية هو شيخه فيها وكل ميت وصل إلى الإنسان من أقواله وأعماله وأثاره ما انتفع به في دينه فهو شيخه من هذه الجهة فسلف الأمة شيوخ الخلفاء قرنا بعد قرن وليس لاحد أن ينتسب إلى شيخ يوالى على متابعتة ويعادى على ذلك بل عليه أن يوالى كل من كان من أهل الإيمان ومن عرف منه التقوى من جميع الشيوخ وغيرهم ولا يخص أحدا بمزيد موالات إلا إذا ظهر له مزيد إيمانه وتقواه فيقدم من قدم الله تعالى ورسوله عليه ويفضل من فضله الله ورسوله قال الله تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ

^١ منهاج السنة النبوية ج: ٤ ص: ٥٩٩-٦٠٧

وَأَنْتَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَأَكُمُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ { الحجرات ١٣ } وقال النبي
لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا أسود على أبيض ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى^١

المملوك المسلم خير من الملك الكافر

المملوك المسلم خير من الملك الكافر قال الله تعالى {وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ { البقرة ٢٢١ }
ومعلوم أن من كان مسلماً وجب عليه أن يطيع المسلم ولو كان عبداً ولا يطيع الكافر وقد ثبت في الصحيح عن النبي
أنه قال إسمعوا وأطيعوا وإن أمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب الله ودين الإسلام إنما
يفضل الإنسان بإيمانه وتقواه لا بأبائه ولو كانوا من بني هاشم أهل بيت النبي فإن الله خلق الجنة لمن أطاعه وإن
كان عبداً حبشياً وخلق النار لمن عصاه ولو كان شريفاً قرشياً وقد قال الله تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ
ذَكَرٍ وَأَنْتَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَأَكُمُ { الحجرات ١٣ } وفي السنن عنه أنه قال لا
فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا أسود على أبيض ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى الناس من
آدم وادم من تراب وفي الصحيحين عنه أنه قال لقيت قبيلة قريبة منه أن آل أبي فلان ليسوا بأولياءي إنما وليي
الله وصالح المؤمنين فأخبر النبي أن موالاته ليست بالقربة والنسب بل بالإيمان والتقوى وقد أجمع المسلمون
على أن من كان أعظم إيماناً وتقوى كان أفضل ممن هو دونه في الإيمان والتقوى وإن كان الأول أسوداً للحبشياً
والثاني علويًا أو عباسياً^٢

ومن أذل نفسه لله فقد أعزها ومن بذل الحق من نفسه فقد أكرم نفسه فإن أكرم الخلق عند الله اتقاهم {يَا أَيُّهَا النَّاسُ
إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأَنْتَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَأَكُمُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ
{ الحجرات ١٣ }^٣

فضل الجنس لا يستلزم فضل الشخص

قال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأَنْتَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَأَكُمُ إِنَّ
اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ { الحجرات ١٣ } وقال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح إن الله قد أذهب عنكم عبية
الجاهلية وفخرها بالأباء مؤمن تقي وفاجر شقي أنتم بنو آدم وادم من تراب وفي حديث آخر رويناه بإسناد
صحيح من حديث سعد الجريري عن أبي نضرة حدثني أو قال حدثنا من شهد خطبة النبي صلى الله عليه وسلم
بمنى في وسط أيام التشريق وهو على بعير فقال يا أيها الناس ألا إن ربكم عز وجل واحد ألا وإن أباكم واحد ألا
لافضل لعربي على عجمي ألا لا فضل لأسود على أحمر إلا بالتقوى ألا قد بلغت قالوا نعم قال ليلغ الشاهد الغائب
وروى هذا الحديث عن أبي نضرة عن جابر وفي الصحيحين عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال إن بني فلان ليسوا لي بأولياء إنما وليي الله وصالحو المؤمنين فأخبر صلى الله عليه
وسلم عن بطن قريب النسب أنهم ليسوا بمجرد النسب أولياءه إنما وليه الله وصالحو المؤمنين من جميع الأصناف
ومثل ذلك كثير بين في الكتاب والسنة أن العبرة بالأسماء التي حمدها الله وذمها كالمؤمنين والكافرين والبر والفاجر
والعالم والجاهل ثم قد جاء الكتاب والسنة بمدح بعض الأعاجم قال تعالى {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا
مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلٍ لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ {٢} } وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا

^١مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٥١١-٥١٢

^٢مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٥٤٣

^٣السياسة الشرعية ج: ١ ص: ٨٠

يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ { ٣ } الجمعة ٢- ٣ وفي الصحيحين عن سالم أبي الغيث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزلت عليه سورة الجمعة وآخرين منهم لما يلحقوا بهم قال قائل من هم يا رسول الله فلم يراجع حتى سأل ثلاثا وفيما سلمان الفارسي فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على سلمان الفارسي ثم قال لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء وفي صحيح مسلم عن يزيد بن الأصم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كان الدين عند الثريا لذهب به رجل من فارس أو قال من أبناء فارس حتى يتناوله وفي رواية لو كان العلم عند الثريا لتناوله رجال من أبناء فارس وقد روى الترمذي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى { وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ } محمد ٣٨ أنهم من أبناء فارس إلى غير ذلك من آثار رويت في فضل رجال من أبناء فارس ومصداق ذلك ما وجد في التابعين ومن بعدهم من أبناء فارس الأحرار والموالي مثل الحسن وابن سيرين وعكرمة مولى ابن عباس وغيرهم إلى من وجد بعد ذلك فيهم من المبرزين في الإيمان والدين والعلم حتى صار هؤلاء المبرزون أفضل من أكثر العرب وكذلك في سائر أصناف العجم من الحبشة والروم والترك وغيرهم سابقون في الإيمان والدين لا يحصون كثرة على ما هو معروف عند العلماء إذ الفضل الحقيقي هو اتباع ما بعث الله به محمدا صلى الله عليه وسلم من الإيمان والعلم باطنا وظاهرا فكل من كان فيه أمكن كان أفضل والفضل إنما هو بالأسماء المحمودة في الكتاب والسنة مثل الإسلام والإيمان والبر والتقوى والعلم والعمل الصالح والإحسان ونحو ذلك لا بمجرد كون الإنسان عربيا أو عجميا أو أسود أو أبيض ولا بكونه قرويا أو بدويا وإنما وجه النهي عن مشابهة الأعراب والأعاجم مع ما ذكرناه من الفضل فيهم وعدم العبرة بالنسب والمكان مبني على أصل وذلك أن الله سبحانه وتعالى جعل سكنى القرى يقتضي من كمال الإنسان وذلك أن الله سبحانه وتعالى جعل سكنى القرى يقتضي من كمال الإنسان في العلم والدين ورقة القلوب مالا يقتضيه سكنى البادية كما أن البادية توجب من صلابة البدن والخلق ومثانة الكلام مالا يكون في القرى هذا هو الأصل وإن جاز تخلف هذا المقتضى لمانع وكانت البادية أحيانا أنفع من القرى ولذلك جعل الله الرسل من أهل القرى فقال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى } يوسف ١٠٩ وذلك لأن الرسل لهم الكمال في عامة الأمور حتى في النسب ولهذا قال الله سبحانه { الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } التوبة ٩٧ ذكر هذا بعد قوله { إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } { ٩٣ } يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } { ٩٤ } سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتَرْضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآؤُهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } { ٩٥ } يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ } { ٩٦ } الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } { ٩٧ } التوبة ٩٣-٩٧ فلما ذكر الله المنافقين الذين استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في التخلف عن الجهاد في غزوة تبوك وذمهم وهؤلاء كانوا من أهل المدينة قال سبحانه { الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } { ٩٧ } التوبة ٩٧ فإن الخير كله أصله وفصله منحصر في العلم والإيمان كما قال سبحانه { وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ } الروم ٥٦ وقال تعالى { يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ } المجادلة ١١ وصدق الإيمان إما الكفر الظاهر أو النفاق الباطن ونقيض العلم عدمه فقال سبحانه عن الأعراب إنهم { الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا } { ٩٧ } التوبة ٩٧ من أهل المدينة وأحرى منهم أن لا يعلموا حدود الكتاب والسنة والحدود هي حدود الأسماء المذكورة فيما أنزل الله من الكتاب والحكمة مثل حدود الصلاة والزكاة والصوم والحج والمؤمن والكافر والزاني والسارق والشارب وغير ذلك حتى يعرف من الذي يستحق ذلك الاسم الشرعي ممن لا يستحقه وما تستحقه مسميات تلك الأسماء من الأحكام ولهذا روى أبو داود وغيره من حديث الثوري حدثني أبو موسى عن وهب بن منبه عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال سفيان مرة ولا أعلمه إلا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من سكن البادية جفا ومن اتبع الصيد غفل ومن أتى السلطان افتتن ورواه أبو داود أيضا من حديث الحسن بن الحكم النخعي عن عدي بن ثابت عن شيخ من الأنصار عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم بمعناه وقال ومن لزم السلطان افتتن وزاد وما ازداد عبد من السلطان دنوا إلا ازداد من الله عز وجل بعدا ولهذا كانوا يقولون لمن يستغلظونه إنك لأعرابي جاف إنك لجاف يشيرون إلى غلظ عقله وخلقه ثم لفظ الأعراب هو في الأصل اسم لبادية العرب فإن كل أمة لها حضرة وبادية فبادية

العرب الأعراب ويقال إن بادية الروم الأرمن ونحوهم وبادية الفرس الأكراد ونحوهم وبادية الترك التتار ونحوهم وهذا والله أعلم هو الأصل وإن كان قد يقع فيه زيادة ونقصان والتحقيق أن سكان البوادي لهم حكم الأعراب سواء دخلوا في لفظ الأعراب أم لم يدخلوا فهذا الأصل يوجب أن يكون جنس الحاضرة أفضل من جنس البادية وإن كان بعض أعيان البادية أفضل من أكثر الحاضرة مثلا ويقتضي أن ما انفرد به أهل البادية عن جميع جنس الحاضرة أعني في زمن السلف من الصحابة والتابعين فهو ناقص عن فضل الحاضرة أو مكروه فإذا وقع التشبه بهم فيما ليس من فعل الحاضرة المهاجرين كان ذلك إما مكروها أو مفضيا إلى المكروه وعلى هذا القول في العرب والعجم فإن الذي عليه أهل السنة والجماعة اعتقاد أن جنس العرب أفضل من جنس العجم عبرانيهم وسريانيهم رومهم وفرسهم وغيرهم وأن قريشا أفضل العرب وأن بني هاشم أفضل قريش وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل بني هاشم فهو أفضل الخلق نفسا وفضلهم نسبا وليس فضل العرب ثم قريش ثم بني هاشم بمجرد كون النبي صلى الله عليه وسلم منهم وإن كان هذا من الفضل بل هم في أنفسهم أفضل وبذلك ثبت لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أفضل نفسا ونسبا وإلا لزم الدور ولهذا ذكر أبو محمد حرب بن إسماعيل بن خلف الكرمانى صاحب الإمام أحمد في وصفه للسنة التي قال فيها هذا مذهب أئمة العلم وأصحاب الأثر وأهل السنة المعروفين بها المقتدى بهم فيها وأدركت من أدركت من علماء أهل العراق والحجاز والشام وغيرهم عليها فمن خالف شيئا من هذه المذاهب أو طعن فيها أو عاب قائلها فهو مبتدع خارج عن الجماعة زائل عن منهج السنة وسبيل الحق وهو مذهب أحمد وإسحاق بن إبراهيم بن مخلد وعبد الله بن الزبير الحميدي وسعيد بن منصور وغيرهم ممن جالسنا وأخذنا عنهم العلم فكان من قولهم أن الإيمان قول وعمل ونية وساق كلاما طويلا إلى أن قال ونعرف للعرب حقها وفضلها وسابقتها ونحبهم لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حب العرب إيمان وبغضهم نفاق ولا نقول بقول الشعوبية وأراذل الموالي الذين لا يحبون العرب ولا يقرون بفضلهم فإن قولهم بدعة وخلاف ويروون هذا الكلام عن أحمد نفسه في رسالة أحمد بن سعيد الأصبخري عنه إن صحت وهو قوله وقول عامة أهل العلم وذهبت فرقة من الناس إلى أن لا فضل لجنس العرب على جنس العجم وهؤلاء يسمون الشعوبية لانتصارهم للشعوب التي هي مغايرة للقبائل كما قيل القبائل للعرب والشعوب للعجم ومن الناس من قد يفضل بعض أنواع العجم على العرب والغالب أن مثل هذا الكلام لا يصدر إلا عن نوع نفاق إما في الاعتقاد وإما في العمل المنبعث عن هوى النفس مع شبهات اقتضت ذلك ولهذا جاء في الحديث حب العرب إيمان وبغضهم نفاق مع أن الكلام في هذه المسائل لا يكاد يخلو عن هوى للنفس ونصيب للشيطان من الطرفين وهذا محرم في جميع المسائل فإن الله قد أمر المؤمنين بالاعتصام بحبل الله جميعا ونهاهم عن التفرق والاختلاف وأمر بإصلاح ذات البين وقال النبي صلى الله عليه وسلم مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر وقال صلى الله عليه وسلم لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا كما أمركم الله وهذان حديثان صحيحان وفي الباب من نصوص الكتاب والسنة مالا يحصى والدليل على فضل جنس العرب ثم جنس قريش ثم جنس بني هاشم ما رواه الترمذي من حديث إسماعيل بن أبي خالد عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الله بن الحارث عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال قلت يا رسول الله إن قريشا جلسوا فتذاكروا أحسابهم بينهم فجعلوا مثلك كمثلكم نخله في كبوة من الأرض فقال النبي صلى الله عليه وسلم إن الله خلق الخلق فجعلني من خير فرقتهم ثم خير القبائل فجعلني في خير قبيلة ثم خير البيوت فجعلني في خير بيوتهم فأنا خيرهم نفسا وخيرهم بيتا قال الترمذي هذا حديث حسن وعبد الله بن الحارث هو ابن نوفل الكبا بالكسر والقصر والكبة الكناسة والتراب الذي يكنس من البيت وفي الحديث الكبوة وهي مثل الكبة والمعنى أن النخلة طيبة في نفسها وإن كان أصلها ليس بذاك فأخبر صلى الله عليه وسلم أنه خير الناس نفسا ونسبا

فقد روى مسلم في صحيحه عن عياض ابن حمار المجاشعي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد فنهى سبحانه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم عن نوعي الاستطالة على الخلق وهي الفخر والبغي لأن المستطيل إن استطال بحق فقد افتخر وإن كان بغير حق فقد بغي فلا يحل لا هذا ولا هذا فإن كان الرجل من الطائفة الفاضلة مثل أن يذكر فضل بني هاشم أو قريش أو العرب أو الفرس أو بعضهم فلا يكون حظه استشعار فضل نفسه والنظر إلى ذلك فإنه مخطئ في هذا لأن فضل الجنس لا يستلزم فضل الشخص كما قدمناه قرب حبشي أفضل عند الله من جمهور قريش ثم هذا النظر يوجب نقصه وخروجه عن الفضل فضلا عن أن يستعلي عبدا أو يستطيل وإن كان من الطائفة الأخرى مثل العجم أو غير قريش أو بني هاشم فليعلم أن تصديقه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخبر وطاعته فيما أمر

ومحبة من أحبه والتشبه بمن فضله الله والقيام بالدين الحق الذي بعث الله به عبده ورسوله محمدا صلى الله عليه وسلم يوجب له أن يكون أفضل من جمهور الطائفة المفضلة وهذا هو الفضل الحقيقي^١

من البدع المنكرة تكفير الطائفة غيرها من طوائف

ومن البدع المنكرة تكفير الطائفة غيرها من طوائف المسلمين وإستحلال دمائهم وأموالهم كما يقولون هذا زرع البدعي ونحو ذلك فإن هذا عظيم لوجهين أحدهما أن تلك الطائفة الأخرى قد لا يكون فيها من البدعة أعظم مما في الطائفة المكفرة لها بل تكون بدعة المكفرة أغلظ أو نحوها أو دونها وهذا حال عامة أهل البدع الذين يكفر بعضهم بعضا فإنه إن قدر أن المبتدع يكفر هؤلاء وهؤلاء وإن قدر أنه لم يكفر هؤلاء ولا هؤلاء فكأن إحدى الطائفتين تكفر الأخرى ولا تكفر طائفتها هو من الجهل والظلم وهؤلاء من الذين قال الله تعالى فيهم { إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِبَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ } { الأنعام ١٥٩ } والثاني أنه لو فرض أن إحدى الطائفتين مختصة بالبدعة لم يكن لأهل السنة أن يكفروا كل من قال قولا أخطأ فيه فإن الله سبحانه قال { رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا } { البقرة ٢٨٦ } وثبت في الصحيح أن الله قال قد فعلت وقال تعالى { وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ } { الأحزاب ٥ } وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن الله تجاوز لى عن أمتى الخطأ والنسيان وهو حديث حسن رواه ابن ماجه وغيره وأجمع الصحابة وسائر أئمة المسلمين على أنه ليس كل من قال قولا أخطأ فيه أنه يكفر بذلك وإن كان قوله مخالفا للسنة فتكفير كل مخطئ خلاف الإجماع لكن للناس نزاع فى مسائل التكفير قد بسطت فى غير هذا الموضوع و المقصود هنا أنه ليس لكل من الطوائف المنتسبين إلى شيخ من الشيوخ ولا إمام من الأئمة أن يكفروا من عداهم بل فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما وقال أيضا المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه وقال لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا وقال مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحى والسهر وليس للمنتسبين إلى ابن مرزوق أن يمنعوا من مناكحة المنتسبين إلى العوفى لإعتقادهم أنهم ليسوا أكفاء لهم بل أكرم الخلق عند الله أتقاهم من أي طائفة كان من هؤلاء وغيرهم كما قال تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } { الحجرات ١٣ } وفى الصحيح أن النبي سئل أي الناس أكرم قال أتقاهم وفى السنن عنه أنه قال لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأبيض على أسود ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى الناس من آدم وادم خلق من تراب^٢

أيهما أفضل الفقير الصابر أو الغنى الشاكر؟

وقد تنازع الناس أيما أفضل الغنى الشاكر أو الفقير الصابر وهذه المسألة فيها نزاع قديم بين الجنيد وبين ابى العباس بن عطاء وقد روى عن أحمد بن حنبل فيها روايتان والصواب فى هذا كله ما قاله الله تبارك وتعالى حيث قال { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ } { الحجرات ١٣ } وفى الصحيح عن ابى هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل أى الناس أفضل قال أتقاهم قيل له ليس عن هذا نسألك فقال يوسف نبي الله ابن يعقوب نبي الله ابن اسحق نبي الله إبراهيم خليل الله فقيل له ليس عن هذا نسألك فقال عن معادن العرب تسألونى الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم

^١ اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ١٤٤-١٦٥

^٢ مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٦٨٥-٦٨٦

فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام إذا فقهوا فدل الكتاب والسنة ان اكرم الناس عند الله اتقاهم وفى السنن عن النبى أنه قال لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأسود على أبيض ولا لأبيض على اسود إلا بالتقوى كلكم لآدم وآدم من تراب وعنه ايضا انه قال ان الله تعالى اذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء الناس رجلا مؤمن تقى وفاجر شقى فمن كان من هذه الاصناف اتقى لله فهو اكرم عند الله وإذا استويا فى التقوى استويا فى الدرجة^١

قد كثر تنازع الناس ابهما افضل الفقير الصابر او الغنى الشاكر وأكثر كلامهم فيها مشوب بنوع من الهوى أو بنوع من قلة المعرفة والنزاع فيها بين الفقهاء والصوفية والعمامة والرؤساء وغيرهم وقد ذكر القاضى ابو الحسين بن القاضى أبى يعلى فى كتاب التمام لكتاب الروايتين والوجهين لأبيه فيها عن أحمد روايتين احدهما إن الفقير الصابر أفضل وذكر انه اختار هذه الرواية أبو إسحاق بن شاقلا ووالده القاضى ابو يعلى ونصرها هو و الثانية أن الغنى الشاكر أفضل اختاره جماعة منهم ابن قتيبة و القول الأول يميل إليه كثير من أهل المعرفة والفقه والصلاح من الصوفية والفقراء ويحكى هذا القول عن الجنيد وغيره و القول الثانى يرحه طائفة منهم كأبى العباس بن عطاء وغيره وربما حكى بعض الناس فى ذلك اجماعا وهو غلط وفى المسألة قول ثالث وهو الصواب انه ليس هذا أفضل من هذا مطلقا ولا هذا أفضل من هذا مطلقا بل أفضلهما اتقاهما كما قال تعالى **{ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ { الحجرات ١٣ }** وقال عمر بن الخطاب الغنى والفقر مطيتان لا أبالى ابتهما ركبت وقد قال تعالى **{ إِنَّ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا { النساء ١٣٥ }** وهذا القول اختيار طائفة منهم الشيخ ابن حفص السهروردي وقد يكون هذا أفضل لقوم وفى بعض الأحوال وهذا أفضل لقوم وفى بعض الأحوال فان استويا فى سبب الكرامة استويا فى الدرجة وإن فضل احدهما الآخر فى سببها ترجح عليه هذا هو الحكم العام والفقر والغنى حالان يعرضان للعبد باختياره تارة وبغير اختياره اخرى كالمقام والسفر والصحة والمرض والامارة والانتمار والامامة والانتظام وكل جنس من هذه الأجناس لا يجوز إطلاق القول بتفضيله على الآخر بل قد يكون هذا أفضل فى حال وهذا فى حال وقد يستويان فى حال كما فى الحديث المرفوع فى شرح السنة للبعوى عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه تعالى وان من عبادى من لا يصلحه إلا الغنى ولو افقرته لأفسده ذلك وإن من عبادى من لا يصلحه إلا الفقر ولو اغنيته لأفسده ذلك وإن من عبادى من لا يصلحه إلا الصحة ولو اسقمته لأفسده ذلك وإن من عبادى من لا يصلحه إلا السقم ولو اصححته لأفسده ذلك انى ادبر عبادى انى بهم خبير بصير وفى هذا المعنى ما يروى إن الله يحمى عبده المؤمن الدنيا كما يحمى احكم مريضه الطعام والشراب ويروى فى مناجاة موسى نحو هذا ذكره احمد فى الزهد فهذا فيمن يضره الغنى ويصلحه الفقر كما فى الحديث الآخر نعم المال الصالح للرجل الصالح وكما ان الأقوال فى المسألة ثلاثة فالناس ثلاثة أصناف غنى وهو من ملك ما يفضل عن حاجته وفقير وهو من لا يقدر على تمام كفايته وقسم ثالث وهو من يملك وفق كفايته ولهذا كان فى اكابر الأنبياء والمرسلين والسابقين الاولين من كان غنيا كابراهيم الخليل وأيوب وداود وسليمان وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وسعد بن معاذ واسيد بن الحضير واسعد بن زرارة وأبى أيوب الأنصارى وعبادة بن الصامت ونحوهم ممن هو من أفضل الخلق من النبیین والصدیقین وفيهم من كان فقيرا كالمسيح عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا وعلى بن أبى طالب وأبى ذر الغفارى ومصعب بن عمير وسلمان الفارسى ونحوهم ممن هو من أفضل الخلق من النبیین والصدیقین وقد كان فيهم من اجتمع له الأمران الغنى تارة والفقر اخرى واتى باحسان الأغنياء وبصبر الفقراء كنبينا صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر والنصوص الواردة فى الكتاب والسنة حاكمة بالقسط فان الله فى القرآن لم يفضل احدا بفقر ولا غنى كما لم يفضل احدا بصحة ولا مرض ولا إقامة ولا سفر ولا امارة ولا انتمار ولا امامة ولا انتظام بل قال **{ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ { الحجرات ١٣ }** وفضلهم بالأعمال الصالحة من الايمان ودعائمه وشعبه كاليقين والمعرفة ومحبة الله والانابة إليه والتوكل عليه ورجائه وخشيته وشكره والصبر له وقال فى آية العدل **{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ**

بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا { النساء ١٣٥ } ولذلك كان النبي وخلفاؤه يعدلون بين المسلمين غنيهم وفقيرهم في امورهم ولما طلب بعض الأغنياء من النبي ابعاد الفقراء نهاه الله عن ذلك وأثنى عليهم بأنهم يريدون وجهه فقال { وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ { الأنعام ٥٢ الآية وقال { وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ { الكهف ٢٨ } ولما طلب بعض الفقراء من النبي مالا يصلح له نهاه عن ذلك وقال يا أبا ذر انى اراك ضعيفا وانى احب لك ما احب لنفسى لاتأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم وكانوا يستونون فى مقاعدهم عنده وفى الاصطفاة خلفه وغير ذلك ومن اختص منهم بفضل عرف النبي له ذلك الفضل كما قنت للقرء السبعين وكان يجلس مع أهل الصفة وكان ايضا لعثمان وطلحة والزبير وسعد بن معاذ واسيد بن الحضير وعباد بن بشر ونحوهم من سادة المهاجرين والأنصار والأغنياء منزلة ليست لغيرهم من الفقراء وهذه سيرة المعتدلين من الأئمة فى الأغنياء والفقراء وهذا هو العدل والقسط الذى جاء به الكتاب والسنة وهى طريقة عمر بن عبد العزيز والليث بن سعد وابن المبارك ومالك وأحمد بن حنبل وغيرهم فى معاملتهم للأقوياء والضعفاء والأغنياء والفقراء وفى الأئمة كالثورى ونحوه من كان يميل إلى الفقراء ويميل على الأغنياء مجتهدا فى ذلك طالبا به رضا الله حتى عتب عليه ذلك فى آخر عمره ورجع عنه^١

لطائف لغوية

- ١- قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءِ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْإِسْمُ الْفُسُوقِ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ { الحجرات ١١ } ولا تلمزوا بعضكم بعضا^٢
- ٢- قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ { الحجرات ١٢ } أن جميع الأفعال مشتقة سواء كانت هي مشتقة من المصدر أو كان المصدر مشتقا منها أو كان كل واحد منهما مشتقا من الآخر بمعنى أن بينهما مناسبة في اللفظ والمعنى لا بمعنى أن أحدهما أصل والآخر فرع بمنزلة المعاني المتضابفة كالأبوة والبنوة أو كالأخوة من الجانبين ونحو ذلك فعلى كل حال إذا أمر بفعل كان نفس مصدر الفعل أمرا مطلوبا للأمر مقصودا له كما في قوله { وَاتَّقُوا اللَّهَ { الحجرات ١٢ } وفي قوله { وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ { البقرة ١٩٥ } وفي قوله { آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ { الحديد ٧ } وفي قوله { اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ { المائدة ٧٢ } وفي قوله { فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا { يونس ٨٤ } فإن نفس التقوى والإحسان والإيمان والعبادة والتوكل أمور مطلوبة مقصودة بل هي نفس الأمور به^٣
- ٣- قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ { الحجرات ١٢ } أن اسم تقوى الله يجمع فعل كل ما أمر الله به ايجابا واستحبابا وما نهى عنه تحريما وتنزيها وهذا يجمع حقوق الله وحقوق العباد^٤
- ٤- قال تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ { الحجرات ١٣ } عليهم منزله عن الجهل^٥

^١مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ١٢٣

^٢مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٣٠٢

^٣اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٥١

^٤الزهد والورع والعبادة ج: ١ ص: ٩٠

^٥الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧

الحجرات ١٤ - ١٥

{قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنَ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} {١٤} {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} {١٥}

الإسلام علانية والإيمان في القلب

قال تعالى {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنَ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} {١٤} {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} {١٥} قد فرق النبي في حديث جبريل عليه السلام بين مسمى الإسلام ومسمى الإيمان ومسمى الإحسان فقال الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً وقال الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره والفرق المذكور في حديث عمر الذي انفرد به مسلم وفي حديث أبي هريرة الذي اتفق البخاري ومسلم عليه وكلاهما فيه أن جبرائيل جاءه في صورة إنسان عراقي فسأله وفي حديث عمر أنه جاءه في صورة أعرابي وكذلك فسر الإسلام في حديث ابن عمر المشهور قال بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان وحديث جبرائيل يبين أن الإسلام المبني على خمس هو الإسلام نفسه ليس المبني غير المبني عليه بل جعل النبي الدين ثلاث درجات أعلاها الإحسان وأوسطها الإيمان ويليها الإسلام فكل محسن مؤمن وكل مؤمن مسلم وليس كل مؤمن محسناً ولا كل مسلم مؤمناً كما سيأتي بيانه إن شاء الله في سائر الأحاديث كالحديث الذي رواه حماد بن زيد عن أيوب عن أبي قلابة عن رجل من أهل الشام عن أبيه عن النبي قال له أسلم تسلم قال وما الإسلام قال أن تسلم قلبك لله وأن يسلم المسلمون من لسانك ويديك قال فأبي الإسلام أفضل قال الإيمان قال وما الإيمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالبعث بعد الموت قال فأبي الإيمان أفضل قال الهجرة قال وما الهجرة قال أن تهجر السوء قال فأبي الهجرة أفضل قال الجهاد قال وما الجهاد قال أن تجاهد أو تقاتل الكفار إذا لقيتهم ولا تغل ولا تجبن ثم قال رسول الله عملاً من عمل بمثلها قالها ثلاثاً حجة مبرورة أو عمرة رواه أحمد ومحمد بن نصر المروزي ولهذا يذكر هذه المراتب الأربعة فيقول المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من أمانه الناس على دماءهم وأموالهم والمهاجر من هجر السيئات والمجاهد من جاهد نفسه لله وهذا مروى عن النبي من حديث عبدالله بن عمرو وفضالة بن عبيد وغيرهما بإسناد جيد وهو في السنن وبعضه في الصحيحين وقد ثبت عنه من غير وجه أنه قال المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من أمانه الناس على دماءهم وأموالهم ومعلوم أن من كان مأموناً على الدماء والأموال كان المسلمون يسلمون من لسانه ويده ولولا سلامتهم منه لما انتمنوه وكذلك في حديث عبيد بن عمير عن عمر بن عبيدة وفي حديث عبدالله بن عبيد بن عمر أيضاً عن أبيه عن جده أنه قيل لرسول الله ما الإسلام قال إطعام الطعام وطيب الكلام قيل فما الإيمان قال السماحة والصبر قيل فمن أفضل المسلمين إسلاماً قال من سلم المسلمون من لسانه ويده قيل فمن أفضل المؤمنين إيماناً قال أحسنهم خلقاً قيل فما أفضل الهجرة قال من هجر ما حرم الله عليه قال أي الصلاة أفضل قال طول القنوت قال أي الصدقة أفضل قال جهد مقل قال أي الجهاد أفضل قال أن تجاهد بمالك ونفسك فيعقر جوادك ويراق دمك قال أي الساعات أفضل قال جوف الليل الغابر ومعلوم أن هذا كله مراتب بعضها فوق بعض وإلا فالمهاجر لا بد أن يكون مؤمناً وكذلك المجاهد ولهذا قال الإيمان السماحة والصبر وقال في الإسلام إطعام الطعام وطيب الكلام والأول مستلزم للثاني فإن من كان خلقه السماحة فعل هذا بخلاف الأول فإن الإنسان قد يفعل ذلك تخلفاً ولا يكون خلقه سماحة وصبر وكذلك قال أفضل المسلمين من سلم المسلمون من لسانه ويده وقال أفضل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً ومعلوم أن هذا يتضمن الأول فمن كان حسن الخلق فعل ذلك قيل للحسن البصري

ما حسن الخلق قال بذل الندى وكف الأذى وطلاقة الوجه فكف الأذى جزء من حسن الخلق وستأتي الأحاديث الصحيحة بأنه جعل الأعمال الظاهرة من الإيمان كقوله الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق وقوله لو فد عبد القيس أمرمك بالله وحده أتدرون ما الإيمان بالله وحده شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن تؤدوا خمس ما غنمتم ومعلوم أنه لم يرد أن هذه الأعمال تكون إيمانا بالله بدون إيمان القلب لما قد أخبر في غير موضع أنه لا بد من إيمان القلب فعلم أن هذه مع إيمان القلب هو الإيمان وفي المسند عن أنس عن النبي أنه قال الإسلام علانية والإيمان في القلب وقال إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب فمن صلح قلبه صلح جسده قطعا بخلاف العكس وقال سفيان بن عيينة كان العلماء فيما مضى يكتب بعضهم إلى بعض بهؤلاء الكلمات من أصلح سريرته أصلح الله علانيته ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس ومن عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص فعلم أن القلب إذا صلح بالإيمان صلح الجسد بالإسلام وهو من الإيمان يدل على ذلك أنه قال في حديث جبرائيل هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم فجعل الدين هو الإسلام والإيمان والإحسان فبين أن ديننا يجمع الثلاثة لكن هو درجات ثلاث مسلم ثم مؤمن ثم محسن كما قال تعالى {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ} فاطر ٣٢ والمقتصد والسابق كلاهما يدخل الجنة بلا عقوبة بخلاف الظالم لنفسه وهكذا من أتى بالإسلام الظاهر مع تصديق القلب لكن لم يقم بما يجب عليه من الإيمان الباطن فإنه معرض للوعيد كما سيأتي بيانه ان شاء الله وأما الإحسان فهو أعم من جهة نفسه وأخص من جهة أصحابه من الإيمان والإيمان أعم من جهة نفسه وأخص من جهة أصحابه من الإسلام فالإحسان يدخل فيه الإيمان والإيمان يدخل فيه الإسلام والمحسنون أخص من المؤمنين والمؤمنون أخص من المسلمين فيقال اسم الإيمان تارة يذكر مفردا غير مقرون باسم الإسلام ولا باسم العمل الصالح ولا غيرهما وتارة يذكر مقرونا اما بالإسلام كقوله في حديث جبرائيل ما الإسلام وما الإيمان وكقوله تعالى {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} الأحزاب ٣٥ وقوله عز وجل {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا} الحجرات ١٤ وقوله تعالى {فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} ٣٥ {فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} ٣٦ {الذاريات ٣٥-٣٦} ١

نفي عنهم كمال الإيمان الواجب

أن حكمة الله وحسن اختياره ولطفه ورحمته يقتضى أن كل واحد يريد ان يعبد الله ويجاهد في سبيله علما وعملا بحسب طاقته ليكون الدين لله ويكون مقصوده ان كلمة الله هي العليا ولا يكون حبه وبغضه ومعاداته ومدحه وذمه الا لله لا لشخص معين والهادى المطلق الذى يهدى الى كل خير وكل أحد محتاج الى هدايته في كل وقت هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أفضل أمته له وهذا يكون بالإيمان واليقين والجهاد كما قال تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} الحجرات ١٥ فبين سبحانه وتعالى أن المؤمن لا بد له من ثلاثة أمور أولها ان يؤمن بالله ورسوله وثانيها لا يرتاب بعد ذلك ان يكون موقنا ثابتا واليقين يخالف الريب والريب نوعان نوع يكون شكا لنقص العلم ونوع يكون اضطرابا في القلب وكلاهما لنقص الحال الإيماني فان الإيمان لا بد فيه من علم القلب وليس كل مكان يكون له علم يعلمه وعمل القلب او بصيرته وثباته وطمأنينته وسكينته وتوكله وإخلاصه وانابته الى الله تعالى وهذه الأمور كلها في القرآن يقال رابى كذا وكذا يربى أى حرك قلبى ومنه الحديث عن رسول الله أنه مر بظبي حاقف فقال لا يربيه أحد أى لا يحركه أحد ومنه قوله صلى الله عليه وسلم دع ما يربيك الى ما لا يربيك فان الصدق طمأنينة والكذب ريبة فان الصادق من لا يقلق قلبه والكاذب يقلق قلبه وليس هناك شك بل يعلم ان الريب أعم من

الشك ولهذا فى الدعاء الماثور اللهم اقسام لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك الحديث الى آخره وفى المسند والترمذى عن أبى بكر رضى الله عنه أنه قال سلوا الله اليقين والعافية فإنه لم يعط خير من اليقين والعافية فاسألوها الله سبحانه وتعالى والعرب تقول ماء يقن اذا كان ساكنا لا يتحرك فقلب المؤمن مطمئن لا يكون فيه ريب هذا معنى قوله سبحانه وتعالى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } الحجرات ١٥ وفى الصحيحين عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال أعطى رسول الله رهطا ولم يعط رجلا وهو أحب الى منهم فقلت يا رسول الله مالك عن فلان فو الله انى أراه مؤمنا قال او مسلما مرتين او ثلاثا ثم قال انى لا أعطى الرجل وغيره أحب الى منه خشية ان يكبه الله على وجهه فى النار ولهذا قال ابو جعفر الباقر وغيره من السلف الاسلام دائرة كبيرة والايان دائرة فى وسطها فاذا زنا العبد خرج من الايمان الى الاسلام كما فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن وهذا أظهر قولى العلماء أن هؤلاء الأعراب الذين قالوا أسلمنا ونحوهم من المسلمين الذين لم يدخل الايمان المتقدم فى قلوبهم يثابون على أعمالهم الصالحة كما قال تعالى { وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا } الحجرات ١٤ وهم ليسوا بكفار ولا منافقين بل لم يبلغوا حقيقة الايمان وكمالها فنفى عنهم كمال الايمان الواجب وان كانوا يدخلون فى الايمان مثل قوله { فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٌ } النساء ٩٢ وقوله { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ } المائدة ٦ وهذا باب واسع^١

أعظم الحسنات وأعظم السيئات

أن جنس فعل المأمور به أعظم من جنس ترك المنهى عنه وان جنس ترك المأمور به أعظم من جنس فعل المنهى عنه وان مثوبة بني آدم على أداء الواجبات أعظم من مثوبتهم على ترك المحرمات وان عقوبتهم على ترك الواجبات أعظم من عقوبتهم على فعل المحرمات وقد ذكرت بعض ما يتعلق بهذه القاعدة فيما تقدم لما ذكرت أن العلم والقصد يتعلق بالموجود بطريق الأصل ويتعلق بالمعدوم بطريق التبع وبيان هذه القاعدة من وجوه أحدها ان أعظم الحسنات هو الايمان بالله ورسوله وأعظم السيئات الكفر والايان أمر وجودي فلا يكون الرجل مؤمنا ظاهرا حتى يظهر أصل الايمان وهو شهادة أن لا إله الا الله وشهادة أن محمدا رسول الله ولا يكون مؤمنا باطنا حتى يقر بقلبه بذلك فينتفي عنه الشك ظاهرا وباطنا مع وجود العمل الصالح والا كان كمن قال الله فيه { قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ } الحجرات ١٤ وكمن قال تعالى فيه { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ } البقرة ٨ وكمن قال فيه { إِذَا جَاءَكَ الْمُنافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكَاذِبُونَ } المنافقون ١ والكفر عدم الايمان باتفاق المسلمين سواء اعتقد نقيضه وتكلم به او لم يعتد شيئا ولم يتكلم ولا فرق فى ذلك بين مذهب أهل السنة والجماعة الذين يجعلون الايمان قولا وعملا بالباطن والظاهر وقول من يجعله نفس اعتقاد القلب كقول الجهمية واكثر الاشعرية أو إقرار اللسان كقول الكرامية أو جميعها كقول فقهاء المرجئة وبعض الأشعرية فان هؤلاء مع أهل الحديث وجمهور الفقهاء من المالكية والشافعية والحنبلية وعامة الصوفية وطوائف من أهل الكلام من متكلمي السنة وغير متكلمي السنة من المعتزلة والخوارج وغيرهم متفقون على أن من لم يؤمن بعد قيام الحجة عليه بالرسالة فهو كافر سواء كان مكذبا أو مرتابا أو معرضا أو مستكبرا أو مترددا أو غير ذلك وإذا كان أصل الايمان الذي هو أعظم القرب والحسنات والطاعات فهو مأمور به والكفر الذي هو أعظم الذنوب والسيئات والمعاصي ترك هذا المأمور به سواء اقترن به فعل منهى عنه من التكذيب أو لم يقترن به شيء بل كان تركا للايمان فقط علم ان جنس فعل المأمور به أعظم من جنس ترك المنهى عنه^٢

^١ مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٤٢

^٢ مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٨٦

كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنا

قال ابن قتيبة الحكمة عند العرب العلم والعمل فالعمل الصالح هو عبادة الله وحده لا شريك له وهو الدين دين الاسلام والعلم والهدى هو تصديق الرسول فيما أخبر به عن الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وغير ذلك فالعلم النافع هو الايمان والعمل الصالح هو الاسلام العلم النافع من علم الله والعمل الصالح هو العمل بأمر الله هذا تصديق الرسول فيما أخبر وهذا طاعته فيا أمر وضد الأول ان يقول على الله ما لا يعلم وضد الثاني ان يشرك بالله ما لم ينزل به سلطانا والأول أشرف فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنا {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا} {الحجرات ١٤} ١

سنة الله عز وجل من الابتلاء والامتحان

فما اقتضته حكمته ومضت به سنته من الابتلاء والامتحان الذي يخلص الله به أهل الصدق والايمن من أهل النفاق والبهتان اذ قد دل كتابه على أنه لا يد من الفتنة لكل من الداعي الى الايمان والعقوبة لذوى السيئات والطغيان قال الله تعالى {الم} {١} أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ {٢} { وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ } {٣} { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } {٤} { العنكبوت ١-٤ } فأنكر سبحانه على من يظن أن أهل السيئات يفوتون الطالب وأن مدعى الايمان يتركون بلا فتنة تميز بين الصادق والكاذب وأخبر في كتابه أن الصدق في الإيمان لا يكون إلا بالجهاد في سبيله فقال تعالى {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا} {الحجرات ١٤} الى قوله { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } {الحجرات ١٥} وأخبر في كتابه بخسران المنقلب على وجهه عند الفتنة الذي يعبد الله فيها على حرف وهو الجانب والطرف الذي لا يستقر من هو عليه بل لا يثبت الايمان الا عند وجود ما يهواه من خير الدنيا قال تعالى { وَمَنْ النَّاسُ مَنِ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ } {الحج ١١} وقال تعالى { أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتَّخَلَّوْا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ } {آل عمران ١٤٢} وقال تعالى { وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ } {محمد ٣١} وأخبر سبحانه أنه عند وجود المرتدين فلا بد من وجود المحبين المحبوبين المجاهدين فقال { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } {المائدة ٥٤} وهؤلاء هم الشاكرون لنعمة الإيمان الصابرون علما لامتحان كما قال تعالى { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ } {آل عمران ١٤٤} الى قوله تعالى { وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ } {١٤٦} { وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } {١٤٧} { فَآتَاهُمُ اللَّهُ تَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ تَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } {١٤٨} { آل عمران ١٤٦-١٤٨ } فإذا أنعم الله على الإنسان بالصبر والشكر كان جميع ما يقضى الله له من القضاء خيرا له كما قال النبي لا يقضى الله للمؤمن من قضاء إلا كان خيرا له إن أصابته سراء فشكر كان خيرا له وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرا له والصابر الشكور هو المؤمن الذي ذكره الله في غير موضع من كتابه ومن لم ينعم الله عليه بالصبر والشكر فهو بشر حال وكل واحد من السراء والضراء في حقه يفضى الى قبيح المأل فكيف اذا كان ذلك في الأمور

العظيمة التي هي من محن الأنبياء والصدّيقين وفيها تثبيت أصول الدين وحفظ الإيمان والقرآن من كيد أهل النفاق والإلحاد والبهتان^١

لم يثبت المدح الا على ايمان معه العمل

وقال حدثنا اسحاق حدثنا عبدالرزاق حدثنا معمر عن عبدالكريم الجزري عن مجاهد أن أبا ذر سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الايمان فقرا عليه {لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ} البقرة ١٧٧ الى آخر الآية وروى ابن بطة باسناده عن مبارك بن حسان قال قلت لسالم الأقطس رجل أطاع الله فلم يعصه ورجل عصى الله فلم يطعه فصار المطيع الى الله فأدخله الجنة وصار العاصي الى الله فأدخله النار هل يتفاضلان في الايمان قال لا قال فذكرت ذلك لعطاء فقال سلهم الايمان طيب أو خبيث فان الله قال {لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أَوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} الأنفال ٣٧ فسألتهم فلم يجيبوني فقال بعضهم ان الايمان يبطن ليس معه عمل فذكرت ذلك لعطاء فقال سبحان الله أما يقرؤون الآية التي في البقرة {لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ} البقرة ١٧٧ قال ثم وصف الله على هذا الاسم ما لزمه من العمل فقال {وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ} البقرة ١٧٧ الى قوله {وَأَوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} البقرة ١٧٧ فقال سلهم هل دخل هذا العمل في هذا الاسم وقال {وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ} الإسراء ١٩ فألزم الاسم العمل والعمل الاسم والمقصود هنا أنه لم يثبت المدح الا على ايمان معه العمل لا على ايمان خال عن عمل فاذا عرف أن الذم والعقاب واقع في ترك العمل كان بعد ذلك نزاعهم لا فائدة فيه بل يكون نزاعا لفظيا مع أنهم مخطئون في اللفظ مخالفون للكتاب والسنة وان قالوا انه لا يضره ترك العمل فهذا كفر صريح وبعض الناس يحكى هذا عنهم وأنهم يقولون ان الله فرض على العباد فرائض ولم يرد منهم أن يعملوها ولا يضرهم تركها وهذا قد يكون قول الغالية الذين يقولون لا يدخل النار من أهل التوحيد أحد لكن ما علمت معينا أحكى عنه هذا القول وانما الناس يحكونه في الكتب ولا يعينون قائله وقد يكون قول من لا خلاق له فان كثيرا من الفساق والمنافقين يقولون لا يضر مع الايمان ذنب أو مع التوحيد وبعض كلام الراديين على المرجئة وصفهم بهذا ويدل على ذلك قوله تعالى في آخر الآية {وَأَوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأَوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} البقرة ١٧٧ فقوله صدقوا أي في قولهم آمنوا كقوله {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ} الحجرات ١٤ الى قوله {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} الحجرات ١٥ أي هم الصادقون في قولهم آمننا بالله بخلاف الكاذبين الذين قال الله فيهم {إِذَا جَاءَكَ الْمُنافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكَاذِبُونَ} المنافقون ١ وقال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ} ٨ {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} ٩ {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} ١٠ {البقرة ٨-١٠} وفي {يَكْذِبُونَ} ١٠ {البقرة} قراءتان مشهورتان فانهم كذبوا في قولهم آمننا بالله واليوم الآخر وكذبوا الرسول في الباطن وان صدقوه في الظاهر وقال تعالى {الم} ١ {أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ} ٢ {وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} ٣ {العنكبوت ١-٣} فبين أنه لا بد أن يفتن الناس أي يمتحنهم ويبتليهم ويختبرهم يقال فتنت الذهب اذا أدخلته النار لتمييزه مما اختلط به ومنه قول موسى {إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ} الأعراف ١٥٥ أي محنتك واختبارك وابتلاؤك كما ابتليت عبادك بالحسنات والسيئات ليتبين الصبار الشكور من غيره وابتليتهم بارسال الرسل وانزال الكتاب ليتبين المؤمن من الكافر والصادق من الكاذب والمنافق من المخلص فتجعل ذلك سببا لضلالة قوم وهدى آخرين والقرآن فيه كثير من هذا يصف المؤمنين بالصدق والمنافقين بالكذب لأن الطائفتين قالتا بأسنتهما

^١مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٢١٢-٢١٤

أما فمن حقق قوله بعمله فهو مؤمن صادق ومن قال بلسانه ما ليس في قلبه فهو كاذب منافق قال تعالى { وَمَا أَصَابَكُمْ بِرَمِ النَّفَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ } ١٦٦ { وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ } ١٦٧ { آل عمران ١٦٦-١٦٧ فلما قال في آية البر { أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ } البقرة ١٧٧ دل على أن المراد صدقوا في قولهم آما فان هذا هو القول الذي أمروا به وكانوا يقولونه

أثبت الله في القرآن إسلاما بلا إيمان

وقد أثبت الله في القرآن إسلاما بلا إيمان في قوله تعالى { قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } الحجرات ١٤ وقد ثبت في الصحيحين عن سعد بن أبي وقاص قال اعطى النبي صلى الله عليه وسلم رهطا وفي رواية قسم قسما وترك فيهم من لم يعطه وهو أعجبهم الى فقلت يا رسول الله مالك عن فلان فوالله انى لأراه مؤمنا فقال رسول الله أو مسلما أقولها ثلاثا ويردها على رسول الله ثلاثا ثم قال انى لأعطي الرجل وغيره أحب الى منه مخافة أن يكبه الله على وجهه في النار وفي رواية فضرب بين عنقى وكتفى وقال اقتال أى سعد فهذا الإسلام الذى نفى الله عن أهله دخول الإيمان فى قلوبهم هل هو اسلام يثابون عليه أم هو من جنس إسلام المنافقين فيه قولان مشهوران للسلف والخلف أحدهما أنه اسلام يثابون عليه ويخرجهم من الكفر والنفاق وهذا مروى عن الحسن وابن سيرين وابراهيم النخعى وأبى جعفر الباقر وهو قول حماد بن زيد وأحمد بن حنبل وسهل بن عبدالله التستري وابى طالب المكى وكثير من أهل الحديث والسنة والحقائق قال أحمد بن حنبل حدثنا مؤمل بن اسحق عن عمار بن زيد قال سمعت هشاما يقول كان الحسن ومحمد يقولان مسلم ويهابان مؤمن وقال أحمد بن حنبل حدثنا أبو سلمة الخزاعى قال قال مالك وشريك وأبو بكر بن عياش وعبدالعزیز بن أبى سلمة وحماد بن سلمة وحماد بن زيد الإيمان المعرفة والإقرار والعمل إلا أن حماد بن زيد يفرق بين الإسلام والإيمان يجعل الإيمان خاصا والإسلام عاما والقول الثانى أن هذا الإسلام هو الاستسلام خوف السبى والقتل مثل اسلام المنافقين قالوا وهؤلاء كفار فان الإيمان لم يدخل فى قلوبهم ومن لم يدخل الإيمان فى قلبه فهو كافر وهذا اختيار البخارى ومحمد بن نصر المروزي والسلف مختلفون فى ذلك قال محمد بن نصر حدثنا اسحاق انبأنا جرير عن مغيرة قال أتيت ابراهيم النخعى فقلت أن رجلا خاصمنى يقال له سعيد العنبرى فقال ابراهيم ليس بالعنبرى ولكنه زبيدى قوله { قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا } الحجرات ١٤ فقال هو الاستسلام فقال ابراهيم لا هو الإسلام وقال حدثنا محمد بن يحيى حدثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان عن مجاهد { قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا } الحجرات ١٤ قال استسلمنا خوف السبى والقتل ولكن هذا منقطع سفيان لم يدرك مجاهدا والذين قالوا أن هذا الإسلام هو كإسلام المنافقين لا يثابون عليه قالوا لأن الله نفى عنهم الإيمان ومن نفى عنه الإيمان فهو كافر وقال هؤلاء الإسلام هو الإيمان وكل مسلم مؤمن وكل مؤمن مسلم ومن جعل الفساق مسلمين غير مؤمنين لزمه أن لا يجعلهم داخلين فى قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ } المائدة ٦ وفى قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ } الجمعة ٩ وأمثال ذلك فإنهم انما دعوا باسم الإيمان لا باسم الإسلام فمن لم يكن مؤمنا لم يدخل فى ذلك وجواب هذا أن يقال الذين قالوا من السلف إنهم خرجوا من الإيمان الى الإسلام لم يقولوا أنه لم يبق معهم من الإيمان شيء بل هذا قول الخوارج والمعتزلة وأهل السنة الذين قالوا هذا يقولون الفساق يخرجون من النار بالشفاعة وان معهم إيمان يخرجون به من النار لكن لا يطلق عليهم اسم الإيمان لأن الإيمان المطلق هو الذى يستحق صاحبه الثواب ودخول الجنة وهؤلاء ليسوا من أهله وهم يدخلون فى الخطاب بالإيمان لأن الخطاب بذلك هو لمن دخل فى الإيمان وان لم يستكملها فانه انما خوطب ليفعل تمام الإيمان فكيف يكون قد أتمه قبل الخطاب والا كنا قد تبينا أن هذا المأمور من الإيمان قبل الخطاب وانما صار من الإيمان بعد أن أمروا به فالخطاب بيا ايها الذين آمنوا غير قوله { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ

وَرَسُولِهِ تَمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ { الحجرات ١٥ } ونظائرهما فان الخطاب بـ يا أيها الذين آمنوا
اولا يدخل فيه من أظهر الايمان وان كان منافقا في الباطن يدخل فيه في الظاهر فكيف لا يدخل فيه من لم يكن
منافقا وإن لم يكن من المؤمنين حقا وحقيقته أن من لم يكن من المؤمنين حقا يقال فيه أنه مسلم ومعه ايمان يمنعه
الخلود في النار وهذا متفق عليه بين أهل السنة لكن هل يطلق عليه اسم الايمان هذا هو الذي تنازعوا فيه فقيل يقال
مسلم ولا يقال مؤمن وقيل بل يقال مؤمن والتحقيق أن يقال أنه مؤمن ناقص الايمان مؤمن بايمانه فاسق بكبيرته
ولا يعطى اسم الايمان المطلق فان الكتاب والسنة نفيا عنه الاسم المطلق واسم الايمان يتناولها فيما امر الله به
ورسوله لان ذلك ايجاب عليه وتحريم عليه وهو لازم له كما يلزمه غيره وانما الكلام في اسم المدح المطلق وعلى
هذا فالخطاب بالايمان يدخل فيه ثلاث طوائف يدخل فيه المؤمن حقا ويدخل فيه المنافق في أحكامه الظاهرة
وان كانوا في الآخرة في الدرك الأسفل من النار وهو في الباطن ينفي عنه الاسلام والايمان وفي الظاهر يثبت له
الاسلام والايمان الظاهر ويدخل فيه الذين اسلموا وان لم تدخل حقيقة الايمان في قلوبهم لكن معهم جزء من الايمان
والاسلام يثابون عليه ثم قد يكونون مفرطين فيما فرض عليهم وليس معهم من الكبائر ما يعاقبون عليه كأهل
الكبائر لكن يعاقبون على ترك المفروضات وهؤلاء كالأعراب المذكورين في الآية وغيرهم فانهم قالوا أمانا من
غير قيام منهم بما أمروا به باطنا وظاهرا فلا دخلت حقيقة الايمان في قلوبهم ولا جاهدوا في سبيل الله وقد كان
دعاهم النبي الى الجهاد وقد يكونون من أهل الكبائر المعرضين للوعيد كالذين يصلون ويزكون ويجاهدون ويأتون
الكبائر وهؤلاء لا يخرجون من الاسلام بل هم مسلمون ولكن بينهم نزاع لفظي هل يقال أنهم مؤمنون كما سنذكره
إن شاء الله وأما الخوارج والمعتزلة فيخرجونهم من اسم الايمان والاسلام فان الايمان والاسلام
عندهم واحد فاذا خرجوا عندهم من الايمان خرجوا من الاسلام لكن الخوارج تقول هم كفار والمعتزلة تقول لا
مسلمون ولا كفار ينزلونهم منزلة بين المنزلتين والدليل على أن الاسلام المذكور في الآية هو اسلام يثابون عليه
وأنهم ليسوا منافقين أنه قال **{ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**
{ الحجرات ١٤ } ثم قال **{ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ { الحجرات ١٤ }**
فدل على أنهم اذا اطاعوا الله ورسوله مع هذا الإسلام أجرهم الله على الطاعة والمنافق عمله حابط في الآخرة
وايضا فإنه وصفهم بخلاف صفات المنافقين فان المنافقين وصفهم بكفر في قلوبهم وأنهم يبتنون خلاف ما
يظهرون كما قال تعالى **{ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ {٨} يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ**
آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ {٩} فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا
يَكْذِبُونَ {١٠} {البقرة ٨-١٠} الآيات وقال **{ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَسْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ**
وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ { المنافقون ١ } فالمنافقون يصفهم في القرآن بالكذب وأنهم يقولون بافواههم ما ليس
في قلوبهم وبأن في قلوبهم من الكفر ما يعاقبون عليه وهؤلاء لم يصفهم بشيء من ذلك لكن لما ادعوا الايمان قال
للرسول **{ قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ**
أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا { الحجرات ١٤ } ونفي الايمان المطلق لا يستلزم أن يكونوا منافقين كما في قوله **(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ**
قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ {١} {الانفال ١} ثم قال
{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ {٢} {الذِّينَ
يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ {٣} {أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا {٤} {الانفال ٢-٤} ومعلوم أنه ليس من لم يكن
كذلك يكون منافقا من أهل الدرك الأسفل من النار بل لا يكون قد أتى بالايمان الواجب فنفي عنه كما ينفي سائر
الأسماء عن ترك بعض ما يجب عليه فكذلك الأعراب لم يأتوا بالايمان الواجب فنفي عنهم لذلك وان كانوا مسلمين
معهم من الايمان ما يثابون عليه وهذا حال أكثر الداخلين في الاسلام ابتداء بل حال أكثر من لم يعرف حقائق
الإيمان فإن الرجل إذا قوتل حتى أسلم كما كان الكفار يقاتلون حتى يسلموا أو أسلم بعد الأسر أو سمع بالإسلام فجاه
فأسلم فإنه مسلم ملتزم طاعة الرسول ولم تدخل الى قلبه المعرفة بحقائق الايمان فان هذا انما يحصل لمن تيسرت له
أسباب ذلك اما بفهم القرآن وإما بمباشرة أهل الإيمان والافتداء بما يصدر عنهم من الأقوال والأعمال وإما بهداية
خاصة من الله يهديه بها والإنسان قد يظهر له من محاسن الاسلام ما يدعوه الى الدخول فيه وإن كان قد ولد عليه
وتربى بين أهله فإنه يحبه فقد ظهر له بعض محاسنه وبعض مساوئ الكفار وكثير من هؤلاء قد يرتاب اذا سمع
الشبه القادحة فيه ولا يجاهد في سبيل الله فليس هو داخلا في قوله **{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ تَمَّ لَمْ**
يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ { الحجرات ١٥ } وليس هو منافقا في الباطن
مضمرا للكفر فلا هو من المؤمنين حقا ولا هو من المنافقين ولا هو ايضا من اصحاب الكبائر بل يأتي بالطاعات

الظاهرة ولا يأتي بحقائق الايمان التي يكون بها من المؤمنين حقا فهذا معه ايمان وليس هو من المؤمنين حقا ويثاب على ما فعل من الطاعات ولهذا قال تعالى **{وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا} {١٤} {الحجرات ١٤}** ولهذا قال **{يَمُنُونَ عَلَيْكُمْ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} {١٧} {الحجرات ١٧}** يعني في قولكم **{أَمَّا} {١٤} {الحجرات ١٤}** يقول **{إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} {١٧} {الحجرات ١٧}** فانه يمن عليكم ان هداكم للايمان وهذا يقتضى أنهم قد يكونون صادقين في قولهم **{أَمَّا} {١٤} {الحجرات ١٤}** ثم صدقهم اما أن يراد به اتصافهم بأنهم آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون وإما أن يراد به أنهم لم يكونوا كالمنافيين بل معهم ايمان وان لم يكن لهم أن يدعوا مطلق الإيمان وهذا أشبه والله أعلم لأن النسوة الممتحنات قال فيهن **{فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ} {الممتحنة ١٠}** ولا يمكن نفى الريب عنهن في المستقبل ولأن الله انما كذب المنافيين ولم يكذب غيرهم وهؤلاء لم يكذبهم ولكن قال **{لَمْ تُؤْمِنُوا} {الحجرات ١٤}** كما قال لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه وقوله لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن و لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه وهؤلاء ليسوا منافقين وسياق الآية يدل على أن الله ذمهم لكونهم لم يؤمنوا بإسلامهم لجهلهم وجفائهم وأظهروا ما في أنفسهم مع علم الله به فإن الله تعالى قال **{قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} {الحجرات ١٦}** فلو لم يكن في قلوبهم شيء من الدين لم يكونوا يعلمون الله بدينهم فإن الإسلام الظاهر يعرفه كل أحد ودخلت الباء في قوله **{أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ} {الحجرات ١٦}** لأنه ضمن معنى يخبرون ويحدثون كأنه قال اتخبرونه وتحدثونه بدينكم وهو يعلم ما في السموات وما في الأرض وسياق الآية يدل على أن الذي أخبروا به الله هو ما ذكره الله عنهم من قولهم **{أَمَّا} {الحجرات ١٤}** فإنهم أخبروا عما في قلوبهم وقد ذكر المفسرون أنه لما نزلت هاتان الآيتان أتوا رسول الله يحلفون أنهم مؤمنون صادقون فنزل قوله تعالى **{أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ} {١٦}** وهذا يدل على أنهم كانوا صادقين أولا في دخولهم في الدين لأنه لم يتجدد لهم بعد نزول الآية جهاد حتى يدخلوا به في الآية انما هو كلام قالوه وهو سبحانه قال **{وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ} {١٤} {الحجرات ١٤}** ولفظ **{لَمَّا} {١٤} {الحجرات ١٤}** ينفي به ما يقرب حصوله ويحصل غالبا كقوله **{أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ} {آل عمران ١٤٢}** وقد قال السدي نزلت هذه الآية في أعراب مزينة وجهينة وأسلم وأشجع وغفار وهم الذين ذكرهم الله في سورة الفتح وكانوا يقولون أمنا بالله لياأمنوا على أنفسهم فلما استنفروا الى الحديبية تخلفوا فنزلت فيهم هذه الآية وعن مقاتل كانت منازلهم بين مكة والمدينة وكانوا إذا مرت بهم سرية من سرايا رسول الله قالوا أمنا لياأمنوا على دمائهم وأموالهم فلما سار رسول الله الى الحديبية استنفروهم فلم ينفروا معه وقال مجاهد نزلت في أعراب بنى أسد بن خزيمة ووصف غيره حالهم فقال قدموا المدينة في سنة مجدبة فأظهروا الاسلام ولم يكونوا مؤمنين وفسدوا طرق المدينة بالعدوات وأغلوا أسعارهم وكانوا يمتنون على رسول الله يقولون أتيناك بالاثقال والعيال فنزلت فيهم هذه الآية وقد قال قتادة في قوله **{يَمُنُونَ عَلَيْكُمْ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} {١٧} {الحجرات ١٧}** قال منوا على النبي حين جاءوا فقالوا انا أسلمنا بغير قتال لم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان فقال الله لنبيه **{يَمُنُونَ عَلَيْكُمْ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ} {١٧} {الحجرات ١٧}** وقال مقاتل بن حيان هم أعراب بنى أسد بن خزيمة قالوا يا رسول الله أتيناك بغير قتال وتركنا العشائر والأموال وكل قبيلة من العرب قاتلتك حتى دخلوا كرها في الإسلام فلنا بذلك عليك حق فانزل الله تعالى **{يَمُنُونَ عَلَيْكُمْ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} {١٧} {الحجرات ١٧}** فله بذلك المن عليكم وفيهم أنزل الله **{وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ} {محمد ٣٣}** ويقال من الكبائر التي ختمت بنار كل موجبة من ركبها ومات عليها لم يتب منها وهذا كله يبين أنهم لم يكونوا كفارا في الباطن ولا كانوا قد دخلوا فيما يجب من الايمان وسورة الحجرات قد ذكرت هذه الأصناف فقال **{إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} {الحجرات ٤}** ولم يصفهم بكفر ولا نفاق لكن هؤلاء يخشى عليهم الكفر والنفاق ولهذا ارتد بعضهم لأنهم لم يخالطوا الايمان بشاشة قلوبهم وقال بعد ذلك **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا} {٦} {الحجرات ٦}** وهذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة وكان قد كذب فيما أخبر قال المفسرون نزلت هذه الآية في الوليد بن عقبة بعثه رسول الله الى بنى المصطلق ليقبض صدقاتهم وقد كانت بينه وبينهم عداوة في الجاهلية فسار بعض الطريق ثم رجع الى رسول الله فقال إنهم منعوا الصدقة وأرادوا قتلى فضرب رسول الله البعث إليهم فنزلت هذه الآية وهذه القصة معروفة من وجوه كثيرة ثم قال تعالى في تمامها **{وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ} {٧} {الحجرات ٧}** وقال تعالى **{وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا}**

مرتابا اذا قال له منكر ونكير ما تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم فيقول هاه هاه لا أدري سمعت الناس يقولون شيئا فقلته وقد تقدم قول من قال أنهم أسلموا بغير قتال فهو لاء كانوا أحسن إسلاما من غيرهم وأن الله إنما ذمهم لكونهم منوا بالإسلام وأنزل فيهم { وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ } محمد ٣٣ وأنهم من جنس أهل الكبائر وأيضا قوله { وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ } ١٤ { الحجرات ١٤ } ولما إنما ينفي بها ما ينتظر ويكون حصوله مترقبا كقوله { أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ } آل عمران ١٤٢ وقوله { أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْتِمُ الْبِئْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ } البقرة ٢١٤ فقوله { وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ } ١٤ { الحجرات ١٤ } يدل على أن دخول الايمان منتظر منهم فان الذى يدخل فى الاسلام ابتداء لا يكون قد حصل فى قلبه الايمان لكنه يحصل فيما بعد كما فى الحديث كان الرجل يسلم أول النهار رغبة فى الدنيا فلا يجيء آخر النهار الا والاسلام أحب اليه مما طلعت عليه الشمس ولهذا كان عامة الذين أسلموا رغبة ورهبة دخل الايمان فى قلوبهم بعد ذلك وقوله { وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا } الحجرات ١٤ أمر لهم بأن يقولوا ذلك والمنافق لا يؤمر بشيء ثم قال { وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا } الحجرات ١٤ والمنافق لا تنفعه طاعة الله ورسوله حتى يؤمن أولا وهذه الآية مما احتج بها أحمد بن حنبل وغيره على أنه يستثنى فى الايمان دون الإسلام وان أصحاب الكبائر يخرجون من الايمان الى الاسلام قال الميمونى سألت أحمد بن حنبل عن رايه فى أنا مؤمن ان شاء الله فقال أقول مؤمن ان شاء الله واقول مسلم ولا استثنى قال قلت لأحمد تفرق بين الاسلام والايمان فقال لى نعم فقلت له بأى شيء تحتج قال لى { قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا } الحجرات ١٤ وذكر أشياء وقال الشالنجى سألت أحمد عن قال أنا مؤمن عند نفسى من طريق الأحكام والمواريث ولا أعلم ما أنا عند الله قال ليس بمرجىء وقال ابو أيوب سليمان بن داود الهاشمى الاستثناء جائز ومن قال أنا مؤمن حقا ولم يقل عند الله ولم يستثن ذلك عندى جائز وليس بمرجىء وبه قال ابو خيثمة وابن ابى شيبه وذكر الشالنجى أنه سأل أحمد بن حنبل عن المصر على الكبائر يطلبها بجهده أى يطلب الذنب بجهده الا أنه لم يترك الصلاة والزكاة والصوم هل يكون مصرا من كانت هذه حاله قال هو مصر مثل قوله لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن يخرج من الايمان ويقع فى الاسلام ومن نحو قوله ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا

يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ومن نحو قول ابن عباس فى قوله { وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ } المائدة ٤٤ فقلت له ما هذا الكفر قال كفر لا ينقل عن الملة مثل الايمان بعضه دون بعض فكذلك الكفر حتى يجىء من ذلك أمر لا يختلف فيه وقال ابن ابى شيبه لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن لا يكون مستكمل الايمان يكون ناقصا من ايمانه قال الشالنجى وسألت أحمد عن الايمان والاسلام فقال الايمان قول وعمل والاسلام إقرار قال وبه قال ابو خيثمة وقال ابن ابى شيبه لا يكون اسلام الا بايمان ولا ايمان الا باسلام واذا كان على المخاطبة فقال قد قبلت الايمان فهو داخل فى الاسلام واذا قال قد قبلت الاسلام فهو داخل فى الايمان وقال محمد بن نصر المروزى وحكى غير هؤلاء أنه سأل أحمد بن حنبل عن قول النبى لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن فقال من أتى هذه الاربعة أو مثلهن أو فوقهن فهو مسلم ولا اسميه مؤمنا ومن أتى دون ذلك يريد دون الكبائر اسميه مؤمنا ناقص الايمان قلت أحمد بن حنبل كان يقول تارة بهذا الفرق وتارة كان يذكر الاختلاف ويتوقف وهو المتأخر عنه قال ابو بكر الاثرم فى السنة سمعت أبا عبدالله يسأل عن الاستثناء فى الإيمان ما تقول فيه فقال أما أنا فلا أعيبه أى من الناس من يعيبه قال أبو عبدالله اذا كان يقول أن الايمان قول وعمل يزيد وينقص فاستثنى مخافة واحتياط ليس كما يقولون على الشك إنما يستثنى للعمل قال ابو عبدالله قال الله تعالى { لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ } الفتح ٢٧ أى ان هذا استثناء بغير شك وقال النبى فى أهل القبور وانا إن شاء الله بكم لاحقون أى لم يكن يشك فى هذا وقد استثناه وذكر قول النبى وعليها نبعت ان شاء الله يعنى من القبر وذكر قول النبى أنى لأرجو ان أكون اخشاكم لله قال هذا كله تقوية للاستثناء فى الإيمان قلت لابي عبدالله وكأنك لا ترى بأسا ان لا يستثنى فقال اذا كان ممن يقول الايمان قول وعمل يزيد وينقص فهو أسهل عندي ثم قال ابو عبدالله إن قوما تضعف قلوبهم عن الاستثناء كالتعجب منهم وسمعت ابا عبدالله وقيل له شبابة أى شيء تقول فيه فقال شبابة كان يدعى الارجاء قال وحكى عن شبابة قول أخبث من هذه الأقاويل ما سمعت عن أحد بمثله قال أبو عبدالله قال شبابة اذا قال فقد عمل بلسانه كما يقولون فاذا قال فقد عمل بجارحته أى بلسانه حين تكلم به ثم قال أبو عبدالله هذا قول خبيث ما سمعت أحدا يقول به ولا بلغنى قيل لابي عبدالله كنت كتبت عن شبابة شيئا فقال نعم كنت كتبت عنه قديما يسيرا قبل أن نعلم أنه يقول بهذا قلت لابي عبدالله كتبت عنه بعد قال لا ولا حرف قيل

لابى عبدالله يزعمون أن سفيان كان يذهب الى الإستثناء فى الإيمان فقال هذا مذهب سفيان المعروف به الإستثناء قلت لابي عبدالله من يرويه عن سفيان فقال كل من حكى عن سفيان فى هذا حكاية كان يستثنى قال وقال وكيع عن سفيان الناس عندنا مؤمنون فى الاحكام والمواريث ولا ندري ما هم عند الله قلت لابي عبدالله فأنت بأى شيء تقول فقال نحن نذهب إلى الإستثناء قلت لأبي عبدالله فأما إذا قال أنا مسلم فلا يستثنى فقال نعم لا يستثنى اذا قال أنا مسلم قلت لابي عبدالله اقول هذا مسلم وقد قال النبي المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده وأنا اعلم أنه لا يسلم الناس منه فذكر حديث معمر عن الزهري فنرى أن الاسلام الكلمة والايمان العمل قال أبو عبدالله حدثنا عبدالرزاق عن معمر عن الزهري قيل لابي عبدالله فنقول الايمان يزيد وينقص فقال حديث النبي يدل على ذلك فذكر قوله اخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال كذا اخرجوا من كان فى قلبه مثقال كذا فهو يدل على ذلك وذكر عند ابي عبدالله عيسى الاحمر وقوله فى الارزاء فقال نعم وذلك خبيث القول وقال أبو عبدالله حدثنا مؤمل حدثنا حماد بن زيد سمعت هشاما يقول كان الحسن ومحمد يقولان مسلم وبهايان مؤمن قلت لابي عبدالله رواه غير سويد قال ما علمت بذلك وسمعت ابا عبدالله يقول الايمان قول وعمل قلت لأبي عبدالله فالحديث الذى يروى أعتقها فانها مؤمنة قال ليس كل أحد يقول انها مؤمنة يقولون أعتقها قال ومالك سمعه من هذا الشيخ هلال بن على لا يقول فانها مؤمنة وقد قال بعضهم بأنها مؤمنة فهى حين تفر بذاك فحكمها حكم المؤمنة هذا معناه قلت لابي عبدالله تفرق بين الإيمان والإسلام فقال قد اختلف الناس فيه وكان حماد بن زيد زعموا يفرق بين الإيمان والاسلام قيل له من المرجئة قال الذين يقولون الايمان قول بلا عمل قلت فأحمد بن حنبل لم يرد قط أنه سلب جميع الإيمان فلم يبق معه منه شيء كما تقوله الخوارج والمعتزلة فانه قد صرح فى غير موضع بأن أهل الكبائر معهم إيمان يخرجون به من النار واحتج بقول النبي اخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان وليس هذا قوله ولا قول أحد من أئمة اهل السنة بل كلهم متفقون على أن الفاسق الذين ليسوا منافقين معهم شيء من الايمان يخرجون به من النار هو الفارق بينهم وبين الكفار والمنافقين لكن اذا كان معه بعض الإيمان لم يلزم أن يدخل فى الاسم المطلق الممدوح وصاحب الشرع قد نفى الاسم عن هؤلاء فقال لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن وقال لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه وقال لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه واقسم على ذلك مرات وقال المؤمن من أمنه الناس على دمانهم وأموالهم و المعتزلة ينفون عنه اسم الايمان بالكلية واسم الاسلام أيضا ويقولون ليس معه شيء من الإيمان والاسلام ويقولون ننزله منزلة بين منزلتين فهم يقولون إنه يخلد فى النار لا يخرج منها بالشفاعة وهذا هو الذى أنكروا عليهم والا لو نفوا مطلق الاسم وأثبتوا معه شيئاً من الايمان يخرج به من النار لم يكونوا مبتدعة وكل أهل السنة متفقون على أنه قد سلب كمال الايمان الواجب فزال بعض ايمانه الواجب لكنه من أهل الوعيد وإنما ينازع فى ذلك من يقول الايمان لا يتبع من الجهمية والمرجئة فيقولون أنه كامل الايمان فالذى ينفى إطلاق الاسم يقول الاسم المطلق مقرون بالمدح واستحقاق الثواب كقولنا متق وبر وعلى الصراط المستقيم فإذا كان الفاسق لا تطلق عليه هذه الاسماء فكذلك اسم الايمان وأما دخوله فى الخطاب فلأن المخاطب بإسم الايمان كل من معه شيء منه لانه أمر لهم فمعاصيهم لا تسقط عنهم الامر وأما ما ذكره أحمد فى الاسلام فاتبع فيه الزهري حيث قال فكانوا يرون الاسلام الكلمة والايمان العمل فى حديث سعد بن أبى وقاص وهذا على وجهين فانه قد يراد به الكلمة بتوابعها من الاعمال الظاهرة وهذا هو الاسلام الذى بينه النبي حيث قال الاسلام أن تشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت وقد يراد به الكلمة فقط من غير فعل الواجبات الظاهرة وليس هذا هو الذى جعله النبي الاسلام لكن قد يقال اسلام الاعراب كان من هذا فيقال الاعراب وغيرهم كانوا اذا أسلموا على عهد النبي ألزموا بالاعمال الظاهرة الصلاة والزكاة والصيام والحج ولم يكن أحد يترك بمجرد الكلمة بل كان من أظهر المعصية يعاقب عليها وأحمد إن كان أراد فى هذه الرواية ان الاسلام هو الشهاداتتان فقط فكل من قالها فهو مسلم فهذه الروايات عنه والرواية الاخرى لا يكون مسلما حتى يأتى بها ويصلى فاذا لم يصل كان كافرا و الثالثة أنه كافر بترك الزكاة ايضا والرابعة أنه يكفر بترك الزكاة اذا قاتل الامام عليها دون ما اذا لم يقاتله وعنه أنه لو قال أنا أوديتها ولا أدفعها الى الامام لم يكن للامام أن يقتله وكذلك عنه رواية أنه يكفر بترك الصيام والحج اذا عزم أنه لا يحج أبدا ومعلوم أنه على القول بكفر تارك المباني يمتنع أن يكون الاسلام مجرد الكلمة بل المراد أنه اذا أتى بالكلمة دخل فى الاسلام وهذا صحيح فانه يشهد له بالاسلام ولا يشهد له بالايمان الذى فى القلب ولا يستثنى فى هذا الاسلام لأنه امر مشهور لكن الاسلام الذى هو أداء الخمس كما أمر به يقبل الاستثناء فالاسلام الذى لا يستثنى فيه الشهاداتتان باللسان فقط فانها لا تزيد ولا تنقص فلا استثناء فيها وقد صار الناس فى مسمى

الاسلام على ثلاثة أقوال قيل هو الإيمان وهما إسمان لمسمى واحد وقيل هو الكلمة وهذان القولان لهما وجه سنذكره لكن التحقيق ابتداء هو ما بينه النبي صلى الله عليه وسلم لما سئل عن الاسلام والايمان ففسر الاسلام بالاعمال الظاهرة والايمان بالإيمان بالاصول الخمسة فليس لنا اذا جمعنا بين الاسلام والايمان أن نجيب بغير ما أجاب به النبي وأما اذا أفرد اسم الايمان فانه يتضمن الاسلام واذا أفرد الاسلام فقد يكون مع الاسلام مؤمناً بلا نزاع وهذا هو الواجب وهل يكون مسلماً ولا يقال له مؤمن قد تقدم الكلام فيه وكذلك هل يستلزم الاسلام للايمان هذا فيه النزاع المذكور وسنبينه والوعد الذي في القرآن بالجنة وبالنجاة من العذاب إنما هو معلق باسم الايمان وأما اسم الاسلام مجرداً فما علق به في القرآن دخول الجنة لكنه فرضه واخبر أنه دينه الذي لا يقبل من أحد سواه وبالاسلام بعث الله جميع النبيين قال تعالى { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } آل عمران ٨٥ وقال { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ } آل عمران ١٩ وقال نوح { يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ } {٧١} فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ } {٧٢} يونس ٧٢ وقد أخبر انه لم ينج من العذاب إلا المؤمنون فقال { قُلْنَا احمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ } هود ٤٠٠ وقال { وَأَوْحِي إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ } هود ٣٦ وقال نوح { وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا } هود ٢٩ وكذلك أخبر عن ابراهيم أن دينه الاسلام فقال تعالى { وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } {١٣٠} إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ } {١٣١} وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } {١٣٢} البقرة ١٣٠ وقال { وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا } النساء ١٢٥ وبمجموع هذين الوصفين علق السعادة فقال { بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } البقرة ١١٢ كما علقه بالايمان باليوم الآخر والعمل الصالح في قوله { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } البقرة ٦٢ وهذا يدل على أن الاسلام الذي هو اخلاص الدين لله مع الاحسان وهو العمل الصالح الذي أمر الله به هو والايمان المقرون بالعمل الصالح متلازمان فان الوعد على الوصفين وعد واحد وهو الثواب وانتفاء العقاب فإن انتفاء الخوف علة تقتضى انتفاء ما يخافه ولهذا قال { وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } البقرة ٦٢ لم يقل لا يخافون فهم لا خوف عليهم وان كانوا يخافون الله ونفى عنهم أن يحزنوا لان الحزن انما يكون على ماض فهم لا يحزنون بحال لا في القبر ولا في عرصات القيامة بخلاف الخوف فانه قد يحصل لهم قبل دخول الجنة ولا خوف عليهم في الباطن كما قال تعالى { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } {٦٢} الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } {٦٣} يونس ٦٢- ٦٣ وأما الاسلام المطلق المجرد فليس في كتاب الله تعليق دخول الجنة به كما في كتاب الله تعليق دخول الجنة بالإيمان المطلق المجرد كقوله { سَابِقُوا إِلَىٰ مَعْرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } الحديد ٢١ وقال { وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ } يونس ٢ وقد وصف الخليل ومن اتبعه بالايمان كقوله { فَأَمَنْ لَهُ لُوطٌ } العنكبوت ٢٦ ووصفه بذلك فقال { فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } {٨١} الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ } {٨٢} وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ } {٨٣} الأنعام ٨١- ٨٣ ووصفه بأعلى طبقات الايمان وهو أفضل البرية بعد محمد والخليل انما دعا بالرزق للمؤمنين خاصة فقال { وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ } البقرة ١٢٦ وقال { وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ دُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ } البقرة ١٢٨ { وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ } يونس ٨٤ بعد قوله { فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ثُرِيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ } يونس ٨٣ وقال { وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمْ بِمِصْرَ بَيْوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ } يونس ٨٧ وقد ذكرنا البشرى المطلقة للمسلمين في قوله { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ } النحل ٨٩ وقد وصف الله السحرة بالاسلام والايمان معا فقالوا { آمَنَا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ } {١٢١} رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ } {١٢٢} الاعراف ١٢١- ١٢٢ وقالوا { وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا } { الاعراف ١٢٦ } وقالوا { إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ } الشعراء ٥١ وقالوا { رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ } الاعراف ١٢٦ ووصف الله أنبياء

بنى اسرائيل بالاسلام فى قوله { إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَتُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ } المائدة ٤٤ والانبيااء كلهم مؤمنون ووصف الحواريين بالايمن والاسلام فقال تعالى { وَإِذْ أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } المائدة ١١١ و { قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } آل عمران ٥٢ وحقيقة الفرق أن الاسلام دين و الدين مصدر دان يدين ديننا اذا خضع وذل و دين الاسلام الذى ارتضاه الله وبعث به رسله هو الاستسلام لله وحده فاصله فى القلب هو الخضوع لله وحده بعبادته وحده دون ما سواه فمن عبده وعبد معه الها آخر لم يكن مسلما ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يكن مسلما والاسلام هو الإستسلام لله وهو الخضوع له والعبودية له هكذا قال اهل اللغة اسلم الرجل اذا استسلم فالاسلام فى الاصل من باب العمل عمل القلب والجوارح وأما الايمان فاصله تصديق واقرار ومعرفة فهو من باب قول القلب المتضمن عمل القلب والاصل فيه التصديق والعمل تابع له فلهذا فسر النبى صلى الله عليه وسلم الايمان بايمان القلب وبخضوعه وهو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وفسر الإسلام بإستسلام مخصوص هو المبانى الخمس وهكذا فى سائر كلامه يفسر الايمان بذلك النوع ويفسر الاسلام بهذا وذلك النوع أعلى ولهذا قال النبى الإسلام علانية والايمان فى القلب فان الاعمال الظاهرة يراها الناس وأما ما فى القلب من تصديق ومعرفة وحب وخشية ورجاء فهذا باطن لكن له لوازم قد تدل عليه واللازم لا يدل الا اذا كان ملزوما فلهذا كان من لوازمه ما يفعله المؤمن والمنافق فلا يدل فى حديث عبدالله بن عمرو وابى هريرة جميعا ان النبى قال المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من امنه الناس على دمائهم وأموالهم ففسر المسلم بأمر ظاهر وهو سلامة الناس منه وفسر المؤمن بأمر باطن وهو أن يأمنوه على دمائهم وأموالهم وهذه الصفة اعلى من تلك فان من كان مأمونا سلم الناس منه وليس كل من سلموا منه يكون مأمونا فقد يترك أذاهم وهم لا يأمنون اليه خوفا ان يكون ترك أذاهم لرغبة ورهبة لا لايمان فى قلبه وفى حديث عبيد بن عمير عن عمرو بن عبسة عن النبى صلى الله عليه وسلم أن رجلا قال للنبي ما الاسلام قال اطعام الطعام ولين الكلام قال فما الايمان قال السماحة والصبر فاطعام الطعام عمل ظاهر يفعله الإنسان لمقاصد متعددة وكذلك لين الكلام وأما السماحة والصبر فخلقان فى النفس قال تعالى { وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ } البلد ١٧ وهذا أعلى من ذلك وهو أن يكون صبارا شكورا فيه سماحة بالرحمة للانسان وصبر على المكاره وهذا ضد الذى خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا فان ذلك ليس فيه عند النعمة ولا صبر عند المصيبة

وتمام الحديث فأى الاسلام أفضل قال من سلم المسلمون من لسانه ويده قال يا رسول الله أى المؤمنين أكمل ايمانا قال أحسنهم خلقا قال يا رسول الله أى القتل اشرف قال من أريق دمه وعقر جواده قال يا رسول الله فأى الجهاد افضل قال الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله قال يا رسول الله فأى الصدقة أفضل قال جهد المقل قال يا رسول الله فأى الصلاة أفضل قال طول القنوت قال يا رسول الله فأى الهجرة افضل قال من هجر السوء وهذا محفوظ عن عبيد بن عمير تارة يروى مرسلا وتارة يروى مسندا وفى رواية أى الساعات أفضل قال جوف الليل الغابر وقوله افضل الايمان السماحة والصبر يروى من وجه اخر عن جابر عن النبى وهكذا فى سائر الأحاديث انما يفسر الاسلام بالاستسلام لله بالقلب مع الاعمال الظاهرة كما فى الحديث المعروف الذى رواه أحمد عن بهز بن حكيم عن ابيه عن جده أنه قال والله يا رسول الله ما أتيتك حتى حلفت عدد أصابعى هذه أن لا أتيتك فبالذى بعثك بالحق ما بعثك به قال الاسلام قال وما الاسلام قال أن تسلم قلبك لله وان توجه وجهك إلى الله وان تصلى الصلاة المكتوبة وتؤدى الزكاة المفروضة أخوان نصيران لا يقبل الله من عبد اشرك بعد إسلامه وفى رواية قال أن تقول أسلمت وجهى لله وتخليت وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وكل مسلم على مسلم محرم وفى لفظ تقول أسلمت نفسى لله وخليت وجهى اليه وروى محمد بن نصر من حديث خالد بن معدان عن أبى هريرة قال قال رسول الله أن للاسلام صوى ومنارا كمنار الطريق من ذلك أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا وان تقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان والامر بالمعروف والنهى عن المنكر وتسلم على بنى ادم اذا لقيتهم فان ردوا عليك ردت عليك وعليهم الملائكة وان لم يردوا عليك ردت عليك الملائكة ولعنتمهم ان سكت عنهم وتسليمك على أهل بيتك اذا دخلت عليهم فمن إنتقص منهم شيئا فهو سهم فى الاسلام تركه ومن تركهن فقد نبذ الإسلام وراء ظهره وقد قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً } البقرة ٢٠٨ قال مجاهد وقتادة نزلت فى المسلمين يأمرهم بالدخول فى شرائع الاسلام كلها

وهذا لا ينافي قول من قال نزلت فيمن اسلم من اهل الكتاب أو فيمن لم يسلم لان هؤلاء كلهم مأمورون ايضا بذلك والجمهور يقولون { في السلم } البقرة ٢٠٨ أى فى الاسلام وقالت طائفة هو الطاعة وكلاهما متأثر عن ابن عباس وكلاهما حق فإن الإسلام هو الطاعة كما تقدم أنه من باب الاعمال وأما قوله { كَافَّةً } البقرة ٢٠٨ فقد قيل المراد ادخلوا كلكم وقيل المراد به ادخلوا فى الإسلام جميعه وهذا هو الصحيح فان الانسان لا يؤمر بعمل غيره وانما يؤمر بما يقدر عليه وقوله { ادْخُلُوا } البقرة ٢٠٨ خطاب لهم كلهم فقوله { كَافَّةً } البقرة ٢٠٨ ان أريد به مجتمعين لزم أن يترك الانسان الإسلام حتى يسلم غيره فلا يكون الإسلام مأمورا به الا بشرط موافقة الغير له كالجمعة وهذا لا يقوله مسلم وان أريد بكافة أى ادخلوا جميعكم فكل أوامر القرآن كقوله { آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } النساء ١٣٦ { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ } البقرة ٤٣ كلها من هذا الباب وما قيل فيها كافة وقوله تعالى { وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً } التوبة ٣٦ أى قاتلوهم كلهم لا تدعوا مشركا حتى تقتلوه فانها أنزلت بعد نبي العهود ليس المراد قاتلوهم مجتمعين أو جميعكم فإن هذا لا يجب بل يقاتلون بحسب المصلحة والجهاد فرض على الكفاية فاذا كانت فرائض الاعيان لم يؤكد المأمورين فيها بكافة فكيف يؤكد بذلك فى فروض الكفاية وانما المقصود تعميم المقاتلين وقوله { كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً } التوبة ٣٦ فيه احتمالان والمقصود أن الله أمر بالدخول فى جميع الإسلام كما دل عليه هذا الحديث فكل ما كان من الإسلام وجب الدخول فيه فان كان واجبا على الاعيان لزمه فعله وان كان واجبا على الكفاية اعتقد وجوبه وعزم عليه اذا تعين أو أخذ بالفضل ففعله وان كان مستحبا اعتقد حسنه وأحب فعله وفى حديث جرير أن رجلا قال يا رسول الله صف لى الإسلام قال تشهد أن لا اله الا الله وتقر بما جاء من عند الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت قال أقررت فى قصة طويلة فيها أنه وقع فى أخاقيق جردان وأنه قتل وكان جائعا وملكان يدسان فى شذقه من ثمار الجنة فقوله وتقر بما جاء من عند الله هو الاقرار بأن محمدا رسول الله فانه هو الذى جاء بذلك وفى الحديث الذى يرويه أبو سليمان الداراني حديث الوفد الذين قالوا نحن المؤمنون قال فما علامة ايمانكم قالوا خمس عشرة خصلة خمس أمرتنا رسولك أن نعمل بهن وخمس أمرتنا رسولك أن نؤمن بهن وخمس تخلقنا بها فى الجاهلية ونحن عليها فى الإسلام الا أن تكره منها شيئا قال فما الخمس التى أمرتكم رسلى أن تعملوا بها قالوا أن نشهد أن لا اله الا الله وان محمدا رسول الله ونقيم الصلاة ونؤتى الزكاة ونصوم رمضان ونحج البيت قال وما الخمس التى أمرتكم أن تؤمنوا بها قالوا أمرتنا ان نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت قال وما الخمس التى تخلقتم بها فى الجاهلية وثبتتم عليها فى الإسلام قالوا الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والرضى بمر القضاء والصدق فى مواطن اللقاء وترك الشماتة بالاعداء فقال النبى صلى الله عليه وسلم علماء حكماء كادوا من صدقهم أن يكونوا أنبياء فقال وأنا أزيدكم خمسا فتتم لكم عشرون خصلة ان كنتم كما تقولون فلا تجمعوا ما لا تأكلون ولا تبنوا ما لا تسكنون ولا تنافسوا فى شيء أنتم عنه غدا تزولون وعنه منتقلون واتقوا الله الذى اليه ترجعون وعليه تعرضون وارغبوا فيما عليه تقدمون وفيه تخلدون فقد فرقوا بين الخمس التى يعمل بها فجعلوها الإسلام والخمس التى يؤمن بها فجعلوها الايمان وجميع الأحاديث المأثورة عن النبى صلى الله عليه وسلم تدل على مثل هذا وفى الحديث الذى رواه أحمد من حديث أيوب عن أبي قلابة عن رجل من أهل الشام عن أبيه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له أسلمت سلم قال وما الإسلام قال أن تسلم قلبك لله ويسلم المسلمون من لسانك ويدك قال فأى الإسلام افضل قال الايمان قال وما الايمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالبعث بعد الموت قال فأى الايمان افضل قال الهجرة قال وما الهجرة قال أن تهجر السوء قال فأى الهجرة افضل قال الجهاد قال وما الجهاد قال أن تجاهد الكفار اذا لقيتهم ولا تغل ولا تجبن ثم قال رسول الله ثم عملان هما افضل الأعمال الا من عمل بمثلها قالها ثلاثا حجة مبرورة أو عمرة وقوله هما افضل الأعمال أى بعد الجهاد لقوله ثم عملان ففى هذا الحديث جعل الايمان خصوصا فى الإسلام والإسلام أعم منه كما جعل الهجرة خصوصا فى الايمان والايمان أعم منه وجعل الجهاد خصوصا من الهجرة والهجرة أعم منه فالإسلام أن تعبد الله وحده لا شريك له مخلصا له الدين وهذا دين الله الذى لا يقبل من أحد دينا غيره لا من الاولين ولا من الاخرين ولا تكون عبادته مع ارسال الرسل إلينا الا بما أمرت به رسله لا بما يضاد ذلك فان ضد ذلك معصية وقد ختم الله الرسل بمحمد فلا يكون مسلما الا من شهد أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله وهذه الكلمة بها يدخل الانسان فى الإسلام

فمن قال الاسلام الكلمة واراد هذا فقد صدق ثم لا بد من التزام ما أمر به الرسول من الاعمال الظاهرة كالمباني الخمس ومن ترك من ذلك شيئاً نقص اسلامه بقدر ما يقدر ما نقص من ذلك كما فى الحديث من انتقص منهن شيئاً فهو سهم من الاسلام تركه وهذه الاعمال اذا عملها الانسان مخلصاً لله تعالى فانه يشبهه عليها ولا يكون ذلك الا مع إقراره بقلبه أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فيكون معه من الايمان هذا الاقرار وهذا الاقرار لا يستلزم أن يكون صاحبه معه من اليقين ما لا يقبل الريب ولا أن يكون مجاهداً ولا سائر ما يتميز به المؤمن عن المسلم الذى ليس بمؤمن وخلق كثير من المسلمين باطنا وظاهراً معهم هذا الاسلام بلوازمه من الايمان ولم يصلوا الى اليقين والجهاد فهؤلاء يثابون على اسلامهم واقرارهم بالرسول مجملاً وقد لا يعرفون أنه جاء بكتاب وقد لا يعرفون أنه جاءه ملك ولا أنه اخبر بكذا واذا لم يبلغهم أن الرسول أخبر بذلك لم يكن عليهم الاقرار المفصل به لكن لا بد من الإقرار بأنه رسول الله وأنه صادق فى كل ما يخبر به عن الله ثم الايمان الذى يمتاز به فيه تفصيل وفيه طمأنينة ويقين فهذا متميز بصفته وقدره فى الكمية والكيفية فان أولئك معهم من الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وتفصيل المعاد والقدر ما لا يعرفه هؤلاء وأيضاً فى قلوبهم من اليقين والثبات ولزوم التصديق لقلوبهم ما ليس مع هؤلاء وأولئك هم المؤمنون حقاً وكل مؤمن لا بد أن يكون مسلماً فان الايمان يستلزم الاعمال وليس كل مسلم مؤمناً هذا الايمان المطلق لان الاستسلام لله والعمل له لا يتوقف على هذا الايمان الخاص وهذا الفرق يجده الانسان من نفسه ويعرفه من غيره فعامة الناس اذا اسلموا بعد كفر أو ولدوا على الاسلام والتزموا شرائعه وكانوا من اهل الطاعة لله ورسوله فهم مسلمون ومعهم ايمان مجمل ولكن دخول حقيقة الايمان الى قلوبهم انما يحصل شيئاً فشيئاً ان أعطاهم الله ذلك والا فكثير من الناس لا يصلون لا الى اليقين ولا الى الجهاد ولو شككوا لشكوا ولو أمروا بالجهاد لما جاهدوا وليسوا كفاراً ولا منافقين بل ليس عندهم من علم القلب ومعرفة يقينه ما يدرك الريب ولا عندهم من قوة الحب لله ولرسوله ما يقدمونه على الأهل والمال وهؤلاء ان عوفوا من المحنة وماتوا دخلوا الجنة وان ابتلوا بمن يورد عليهم شبهات توجب ريبهم فان لم ينعم الله عليهم بما يزيل الريب والا صاروا مرتابين وانتقلوا الى نوع من النفاق وكذلك اذا تعين عليهم الجهاد ولم يجاهدوا كانوا من أهل الوعيد ولهذا لما قدم النبي المدينة أسلم عامة أهلها فلما جاءت المحنة والابتلاء نافع من نافع فلو مات هؤلاء قبل الإمتحان لماتوا على الاسلام ودخلوا الجنة ولم يكونوا من المؤمنين حقاً الذين ابتلوا فظهر صدقهم قال تعالى { ١ } أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ { ٢ } وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ { ٣ } العنكبوت ١-٣ وقال تعالى { مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ } آل عمران ١٧٩ وقال { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ } والحج ١١ ولهذا ذم الله المنافقين بأنهم دخلوا فى الايمان ثم خرجوا منه بقوله تعالى { وَاللَّهُ يَسْهَدُ اِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ } { ١ } اَتَّخَذُوا اِيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ { ٢ } المنافقون ١-٢ الى قوله { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَغَىٰ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَمُمْ لَا يَفْقَهُونَ } { ٣ } المنافقون ٣ وقال فى الآية الأخرى { يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ } التوبة ٦٤ الى قوله { قُلْ أِبَالَهُمْ وَعَاقِبَتُهُمْ وَأَسْمَاءُ هُنَّ الَّتِي كَفَرْنَ وَلَئِنْ لَمْ يَنْتَهِوا عَنْ ذَمِّ اللَّهِ وَالرَّسُولِ لَكُنْتُمْ أَكْذَرًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } { ٦٥ } لا تَعْتَدِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ اِيْمَانِكُمْ اِنْ نَعَفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبُ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ } { ٦٦ } التوبة ٦٥-٦٦ فقد أمره أن يقول لهم قد كفرتم بعد ايمانكم وقول من يقول عن مثل هذه الآيات أنهم كفروا بعد ايمانهم بلسانهم مع كفرهم أولاً بقلوبهم لا يصح لأن الإيمان باللسان مع كفر القلب قد قارنه الكفر فلا يقال قد كفرتم بعد ايمانكم فإنهم لم يزالوا كافرين فى نفس الأمر وان أريد أنكم أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الإيمان فهم لم يظهروا للناس إلا لخواصهم وهم مع خواصهم ما زالوا هكذا بل لما نافقوا وحذروا أن تنزل سورة تبين ما فى قلوبهم من النفاق وتكلموا بالإستهزاء صاروا كافرين بعد ايمانهم ولا يدل اللفظ على أنهم ما زالوا منافقين وقد قال تعالى { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَا وَأَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } { ٧٣ } يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا يَنَالُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ } { ٧٤ } التوبة ٧٣-٧٤ فهنا قال { وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ } { التوبة ٧٤ } فهذا الإسلام قد يكون من جنس إسلام الأعراب فيكون قوله بعد ايمانهم وبعد اسلامهم سواء وقد يكونون ما زالوا منافقين فلم يكن لهم حال كان معهم فيها من الإيمان

شيء لكونهم أظهروا الكفر والردة ولهذا دعاهم الى التوبة فقال { فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا } التوبة ٧٤ بعد التوبة عن التوبة { يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ } التوبة ٧٤ وهذا انما هو لمن أظفر الكفر فيجاهده الرسول بإقامة الحد والعقوبة ولهذا ذكر هذا في سياق قوله { جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ } التوبة ٧٣ ولهذا قال في تمامها { وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ } التوبة ٧٤ وهؤلاء الصنف الذين كفروا بعد اسلامهم غير الذين كفروا بعد ايمانهم فان هؤلاء حلفوا بالله ما قالوا وقد قالوا كلمة الكفر التي كفروا بها بعد اسلامهم وهموا بما لم ينالوا وهو يدل على أنهم سعوا في ذلك فلم يصلوا الى مقصودهم فإنه لم يقل هموا بما لم يفعلوا لكن { بِمَا لَمْ يَنَالُوا } التوبة ٧٤ فصدر منهم قول وفعل قال تعالى { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ } التوبة ٦٥ فاعترفوا واعتذروا ولهذا قيل { لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ } التوبة ٦٦ فدل على أنهم لم يكونوا عند أنفسهم قد أتوا كفرا بل ظنوا أن ذلك ليس بكفر فبين أن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر يكفر به صاحبه بعد ايمانه فدل على أنه كان عندهم ايمان ضعيف ففعلوا هذا المحرم الذي عرفوا أنه محرم ولكن لم يظنوه كفرا وكان كفرا كفروا به فانهم لم يعتقدوا جوازهم وهكذا قال غير واحد من السلف في صفة المنافقين الذين ضرب لهم المثل في سورة البقرة أنهم أبصروا ثم عموا وعرفوا ثم أنكروا وآمنوا ثم كفروا وكذلك قال قتادة ومجاهد ضرب المثل لاقبالهم على المؤمنين وسماعهم ما جاء به الرسول وذهاب نورهم قال { مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ } ١٧ { صُمُّ بُكْمٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ } البقرة ١٧- ١٨ الى ما كانوا عليه

أما قول من قال المراد بالنور ما حصل في الدنيا من حقن دمائهم وأموالهم فاذا ماتوا سلبوا ذلك الضوء كما سلب صاحب النار ضوءه فلفظ الآية يدل على خلاف ذلك فانه قال { وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ } ١٧ { صُمُّ بُكْمٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ } البقرة ١٧- ١٨

ويوم القيامة يكونون في العذاب كما قال تعالى { يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِبْ مِنْ نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ } ١٣ { يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ } ١٤ { الحديد ١٣- ١٤ الآية وقد قال غير واحد من السلف أن المنافق يعطى يوم القيامة نورا ثم يطفأ ولهذا قال تعالى { يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْتُمْ لَنَا نُورٌ وَآغِزْ لَنَا } التحريم ٨ قال المفسرون اذا رأى المؤمنون نور المنافقين يطفأ سألوا الله أن يتم لهم نورهم ويبلغهم به الجنة قال ابن عباس ليس أحد من المسلمين إلا يعطى نورا يوم القيامة أما المنافق فيطفأ نوره وأما المؤمن فيشفق مما رأى من إطفاء نور المنافق فهو يقول { رَبَّنَا أَنْتُمْ لَنَا نُورٌ } التحريم ٨ وهو كما قال فقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وهو ثابت من وجوه اخر عن النبي ورواه مسلم من حديث جابر وهو معروف من حديث ابن مسعود وهو أطولها ومن حديث أبي موسى في الحديث الطويل الذى يذكر فيه أنه ينادى يوم القيامة لتتبع كل أمة ما كانت تعبد فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ويتبع من كان يعبد القمر القمر ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت وتبقى هذه الامة فيها منافقوها فيأتيهم الله فى صورة غير صورته التى يعرفون فيقول أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله منك وهذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فاذا جاء ربنا عرفناه فيأتيهم الله فى صورته التى يعرفون فيقول أنا ربكم فيقولون أنت ربنا فيتبعونه وفى رواية فيكشف عن ساقه وفى رواية فيقول هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها فيقولون نعم فيكشف عن ساقه فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه الا اذن له بالسجود ولا يبقى من كان يسجد نفاقا ورياء الا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خر على قفاه فتبقى ظهورهم مثل صياصي البقر فيرفعون رؤوسهم فاذا نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ويطفأ نور المنافقين فيقولون ذرونا نقتبس من نوركم فبين أن المنافقين يحشرون مع المؤمنين فى الظاهر كما كانوا معهم فى الدنيا ثم وقت الحقيقة هؤلاء يسجدون لربهم وأولئك لا يتمكنون من السجود فإنهم لم يسجدوا فى الدنيا له بل قصدوا الرياء للناس والجزاء فى الآخرة هو من جنس العمل فى الدنيا فلماذا أعطوا نورا ثم طفيء لأنهم فى الدنيا دخلوا فى الايمان ثم خرجوا منه ولهذا ضرب الله لهم المثل بذلك وهذا المثل هو لمن كان فيهم أمن ثم كفر وهؤلاء الذين يعطون فى الآخرة نورا ثم يطفأ ولهذا قال { فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ } البقرة ١٨ الى الإسلام فى الباطن وقال قتادة ومقاتل لا يرجعون عن ضلالهم وقال السدى لا

يرجعون الى الإسلام يعنى فى الباطن والا فهم يظهرونه وهذا المثل انما يكون فى الدنيا وهذا المثل مضروب لبعضهم وهم الذين آمنوا ثم كفروا وأما الذين لم يزلوا منافقين فضرب لهم المثل الآخر وهو قوله {أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ} البقرة ١٩ وهذا أصح القولين فان المفسرين اختلفوا هل المثلان مضروبان لهم كلهم أو هذا المثل لبعضهم على قولين و الثانى هو الصواب لأنه قال {أَوْ كَصَيْبٍ} البقرة ١٩ وانما يثبت بها أحد الأمرين فدل ذلك على أنهم مثلهم هذا وهذا فانهم لا يخرجون عن المثليين بل بعضهم يشبه هذا وبعضهم يشبه هذا ولو كانوا كلهم يشبهون المثليين لم يذكر أو بل يذكر الواو العاطفة وقول من قال أو ههنا للتخيير كقولهم جالس الحسن أو ابن سيرين ليس بشيء لأن التخيير يكون فى الأمر والطلب لا يكون فى الخبر وكذلك قول من قال أو بمعنى الواو أو لتشكيك المخاطبين أو الإبهام عليهم ليس بشيء فإن الله يريد بالامثال البيان والتفهيم لا يريد التشكيك والإبهام والمقصود تفهيم المؤمنين حالهم ويدل على ذلك أنه قال فى المثل الاول {صِمُّكُمْ عُمِّي} {١٨} البقرة ١٨ وقال فى الثانى {يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حُدُورَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ} {١٩} {يَكَادُ الْبَرَقُ يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ كَلَمَّا أَضَاءَ لَهُمْ مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} {٢٠} البقرة ١٩-٢٠ فبين فى المثل الثانى أنهم يسمعون ويبصرون ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم وفى الاول كانوا يبصرون ثم صاروا فى ظلمات لا يبصرون صم بكم عمى وفى الثانى اذا أضاء لهم البرق مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا فلهم حالان حال ضياء وحال ظلام والأولون بقوا فى الظلمة فالأول حال من كان فى ضوء فصار فى ظلمة والثانى حال من لم يستقر لا فى ضوء ولا فى ظلمة بل تختلف عليه الأحوال التى توجب مقامه واسترابته يبين هذا أنه سبحانه ضرب للكفار أيضا مثليين بحرف أو فقال {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} {٣٩} {أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَعْشَاهُ موجٌ مِّنَ فَوْقِهِ موجٌ مِّنَ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ} {٤٠} {النور ٣٩-٤٠} فالأول مثل الكفر الذى يحسب صاحبه أنه على حق وهو على باطل كمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فانه لا يعلم ولا يعلم أنه لا يعلم فلهذا مثل بسراب بقية و الثانى مثل الكفر الذى لا يعتقد صاحبه شيئا بل هو فى ظلمات بعضها فوق بعض من عظم جهله لم يكن معه اعتقاد أنه على حق بل لم يزل جاهلا ضالا فى ظلمات متراكمة و أيضا فقد يكون المنافق والكافر تارة متصفا بهذا الوصف وتارة متصفا بهذا الوصف فيكون التقسيم فى المثليين لتنوع الاشخاص وتنوع أحوالهم وبكل حال فليس ما ضرب له هذا المثل هو مماثل لما ضرب له هذا المثل لإختلاف المثليين صورة ومعنى ولهذا لم يضرب للإيمان الا مثل واحد لان الحق واحد فضرب مثله بالنور وأولئك ضرب لهم المثل بضوء لا حقيقة له كالسراب بالبقية أو بالظلمات المتراكمة وكذلك المنافق يضرب له المثل بمن أبصر ثم عمى أو هو مضطرب يسمع ويبصر ما لا ينتفع به فتبين أن من المنافقين من كان آمن ثم كفر باطنا وهذا مما استفاض به النقل عند أهل العلم بالحديث والتفسير والسير أنه كان رجال قد آمنوا ثم نافقوا وكان يجرى ذلك لأسباب منها أمر القبلة لما حولت ارتد عن الايمان لأجل ذلك طائفة وكانت محنة إمتحن الله بها الناس قال تعالى {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ} البقرة ١٤٣ أن من المنافقين من كان آمن ثم كفر باطنا وهذا مما استفاض به النقل عند أهل العلم بالحديث والتفسير والسير أنه كان رجال قد آمنوا ثم نافقوا وكان يجرى ذلك لأسباب منها أمر القبلة لما حولت ارتد عن الايمان لأجل ذلك طائفة وكانت محنة إمتحن الله بها الناس قال تعالى {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ} البقرة ١٤٣ قال أى اذا حولت والمعنى أن الكعبة هى القبلة التى كان فى علمنا أن نجعلها قبلتكم فان الكعبة ومسجدها وحرماها أفضل بكثير من بيت المقدس وهى البيت العتيق وقبلة ابراهيم وغيره من الانبياء ولم يأمر الله قط أحدا أن يصلى الى بيت المقدس لا موسى ولا عيسى ولا غيرهما فلم نكن لنجعلها لك قبلة دائمة ولكن جعلناها أولا قبلة لنمتحن بتحويلك عنها الناس فيتبين من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه فكان فى شرعها هذه الحكمة وكذلك ايضا لما إنهزم المسلمون يوم أحد وشج وجه النبي صلى الله عليه وسلم وكسرت رباعيته ارتد طائفة نافقوا قال تعالى {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} {١٣٩} {إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوَلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} {١٤٠} {وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ} {١٤١} آل عمران ١٣٩-١٤١ وقال تعالى {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنِ اللَّهُ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ} {١٦٦} {وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي

سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ اذْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ {١٦٧} آل عمران ١٦٦- ١٦٧ فقوله { وَلَيَعْلَمُ الَّذِينَ نَافَقُوا {١٦٧} آل عمران ١٦٧ ظاهر فيمن أحدث نفاقا وهو يتناول من لم ينافق قبل ومن نافق ثم جدد نفاقا ثانيا وقوله { هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ {١٦٧} آل عمران ١٦٧ } يبين أنهم لم يكونوا قبل ذلك أقرب منهم بل اما أن يتساويا واما أن يكونوا للإيمان أقرب وكذلك كان فإن ابن ابي لما انزل عن النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد انزل معه ثلث الناس قيل كانوا نحو ثلاثمائة وهؤلاء لم يكونوا قبل ذلك كلهم منافقين في الباطن اذ لم يكن لهم داع الى النفاق فإن ابن ابي كان مظهرا لطاعة النبي صلى الله عليه وسلم والايمان به وكان كل يوم جمعة يقوم خطيبا في المسجد يأمر باتباع النبي ولم يكن ما في قلبه يظهر الا لقليل من الناس ان ظهر وكان معظما في قومه كانوا قد عزموا على أن يتوجوه ويجعلوه مثل الملك عليهم فلما جاءت النبوة بطل ذلك فحمله الحسد على النفاق والا فلم يكن له قبل ذلك دين يدعو اليه وانما كان هذا في اليهود فلما جاء النبي بدينه وقد أظهر الله حسنه ونوره مالت إليه القلوب لا سيما لما نصره الله يوم بدر ونصره على يهود بنى قينقاع صار معه الدين والدنيا فكان المقتضى للإيمان في عامة الانصار قائما وكان كثير منهم يعظم ابن ابي تعظيما كثيرا ويواليه ولم يكن ابن ابي أظهر مخالفة توجب الامتياز فلما انزل يوم أحد وقال يدع رأبي ورأيه ويأخذ برأي الصبيان أو كما قال انزل معه خلق كثير منهم من لم ينافق قبل ذلك وفي الجملة ففي الأخبار عن نفاق بعد إيمانه ما يطول ذكره هنا فأولئك كانوا مسلمين وكان معهم إيمان هو الضوء الذي ضرب الله به المثل فلو ماتوا قبل المحنة والنفاق ماتوا على هذا الاسلام الذي يثابون عليه ولم يكونوا من المؤمنين حقا الذين امتحنوا فثبتوا على الايمان ولا من المنافقين حقا الذين ارتدوا عن الايمان بالمحنة وهذا حال كثير من المسلمين في زماننا أو أكثرهم اذا ابتلوا بالمحن التي يتضعع فيها أهل الايمان ينقص إيمانهم كثيرا وينافق أكثرهم أو كثير منهم ومنهم من يظهر الردة اذا كان العدو غالبا وقد رأينا ورأى غيرنا من هذا ما فيه عبرة وإذا كانت العافية أو كان المسلمون ظاهرين على عدوهم كانوا مسلمين وهم مؤمنون بالرسول باطنا وظاهرا لكن إيماننا لا يثبت على المحنة ولهذا يكثر في هؤلاء ترك الفرائض وانتهاك المحارم وهؤلاء من الذين قالوا { آمَنَّا { الحجرات ١٤ } فقيل لهم { قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ { الحجرات ١٤ } أى الايمان المطلق الذى اهله هم المؤمنون حقا فان هذا هو الايمان اذا اطلق فى كتاب الله تعالى كما دل عليه الكتاب والسنة ولهذا قال تعالى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ { الحجرات ١٥ } فلم يحصل لهم ريب عند المحن التي تقفل الايمان فى القلوب والريب يكون فى علم القلب وفى عمل القلب بخلاف الشك فانه لا يكون الا فى العلم ولهذا لا يوصف باليقين الا من اطمأن قلبه علما وعملا والا فاذا كان عالما بالحق ولكن المصيبة أو الخوف أورثه جزعا عظيما لم يكن صاحب يقين قال تعالى { هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا { الأحزاب ١١ } وكثيرا ما تعرض للمؤمن شعبة من شعب النفاق ثم يتوب الله عليه وقد يرد على قلبه بعض ما يوجب النفاق ويدفعه الله عنه والمؤمن يبنتلى بوساوس الشيطان وبوساوس الكفر التي يضيق بها صدره كما قالت الصحابة يا رسول الله إن أحدنا ليجد فى نفسه ما لئن يخر من السماء الى الأرض أحب اليه من أن يتكلم به فقال ذاك صريح الايمان وفى رواية ما يتعاضم ان يتكلم به قال الحمد لله الذى رذكه الى الوسوسة أى حصول هذا الوسواس مع هذه الكراهة العظيمة له ودفعه عن القلب هو من صريح الايمان كالمجاهد الذى جاءه العدو فدفاعه حتى غلبه فهذا أعظم الجهاد و الصريح الخالص كاللبن الصريح وانما صار صريحا لما كر هوا تلك الوسواس الشيطانية ودفعوها فخلص الايمان فصار صريحا ولا بد لعامة الخلق من هذه الوسواس فمن الناس من يجيبها فصيير كافرا أو منافقا ومنهم من قد غمر قلبه الشهوات والذنوب فلا يحس بها الا اذا طلب الدين فإما أن يصير مؤمنا واما أن يصير منافقا ولهذا يعرض للناس من الوسواس فى الصلاة ما لا يعرض لهم اذا لم يصلوا لأن الشيطان يكثر تعرضه للعبد إذا أراد الانابة الى ربه والتقرب اليه والاتصال به فلماذا يعرض للمصلين ما لا يعرض لغيرهم ويعرض لخاصة أهل العلم والدين أكثر مما يعرض للعامة ولهذا يوجد عند طلاب العلم والعبادة من الوسواس والشبهات ما ليس عند غيرهم لانه لم يسلك شرع الله ومنهاجه بل هو مقبل على هواه فى غفلة عن ذكر ربه وهذا مطلوب الشيطان بخلاف المتوجهين الى ربهم بالعلم والعبادة انه عدوهم يطلب صدمهم عن الله قال تعالى { إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا } فاطر ٦ ولهذا أمر قارئ القرآن أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم فان قراءة القرآن على الوجه المأمور به تورث القلب الايمان العظيم وتزيده يقينا وطمانينة وشفاء وقال تعالى { وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا { الإسراء ٨٢ } وقال تعالى { هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ

وَهُدَىٰ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ { آل عمران ١٣٨ } وَقَالَ تَعَالَى { ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } { البقرة ٢ } وَقَالَ تَعَالَى { قَامًا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا } { التوبة ١٢٤ } وَهَذَا مِمَّا يَجِدُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ فَالشَّيْطَانُ يَرِيدُ بِوَسْوَاسِهِ أَنْ يَشْغَلَ الْقَلْبَ عَنِ الْإِنْتِفَاعِ بِالْقُرْآنِ فَأَمَرَ اللَّهُ الْقَارِئَ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ أَنْ يَسْتَعِذَّ مِنْهُ قَالَ تَعَالَى { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } { ٩٨ } { إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } { ٩٩ } { إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } { ١٠٠ } { النحل ٩٨-١٠٠ } فَانِ الْمُسْتَعِذَّ بِاللَّهِ مُسْتَجِيرٌ بِهِ لِأَجْلِ إِلَيْهِ مُسْتَعِثٌّ بِهِ مِنَ الشَّيْطَانِ فَالْعَانِذُ بغيره مُسْتَجِيرٌ بِهِ فَإِذَا عَاذَ الْعَبْدُ بِرَبِّهِ كَانَ مُسْتَجِيرًا بِهِ مُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ فَيَعِيذُهُ اللَّهُ مِنَ الشَّيْطَانِ وَيَجِيرُهُ مِنْهُ وَلِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى { ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } { ٣٤ } { وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ } { ٣٥ } { وَإِنَّمَا يَنْزِعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } { ٣٦ } { فَصَلَّتْ ٣٤-٣٦ } وَفِي الصَّحِيحِينَ عَنِ النَّبِيِّ أَنَّهُ قَالَ إِنِّي لِأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ فَأَمَرَ سَبْحَانَهُ بِالْإِسْتِعَاذَةِ عِنْدَ طَلْبِ الْعَبْدِ الْخَيْرِ لئَلَّا يَعُوقَهُ الشَّيْطَانُ عَنْهُ وَعِنْدَمَا يُعْرَضُ عَلَيْهِ مِنَ الشَّرِّ لِيُدْفِعَهُ عَنْهُ عِنْدَ إِرَادَةِ الْعَبْدِ لِلْحَسَنَاتِ وَعِنْدَمَا يَأْمُرُهُ الشَّيْطَانُ بِالسَّيِّئَاتِ وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَزَالُ الشَّيْطَانُ يَأْتِي أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ مَنْ خَلَقَ كَذَا مِنْ خَلْقٍ كَذَا حَتَّى يَقُولَ مَنْ خَلَقَ اللَّهُ فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلِيَنْتَهَ فَأَمَرَ بِالْإِسْتِعَاذَةِ عِنْدَمَا يَطْلُبُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوَقِعَهُ فِي شَرٍّ أَوْ يَمْنَعَهُ مِنْ خَيْرٍ كَمَا يَفْعَلُ الْعَدُوُّ مَعَ عَدُوِّهِ وَكَلَمَا كَانَ الْإِنْسَانُ أَعْظَمَ رَغْبَةً فِي الْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ وَاقْدَرَ عَلَى ذَلِكَ مِنْ غَيْرِهِ بِحَيْثُ تَكُونُ قُوَّتُهُ عَلَى ذَلِكَ أَقْوَى وَرَغْبَتُهُ وَإِرَادَتُهُ فِي ذَلِكَ أَمَّ كَانَ مَا يَحْصُلُ لَهُ أَنْ سَلِمَ اللَّهُ مِنَ الشَّيْطَانِ أَعْظَمَ وَكَانَ مَا يَفْتَنُّ بِهِ إِنْ تَمَكَّنَ مِنْهُ الشَّيْطَانُ أَعْظَمَ وَلِهَذَا قَالَ الشَّعْبِيُّ كُلُّ أُمَّةٍ عِلْمَاؤُهَا شَرَارُهَا إِلَّا الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّ عِلْمَاءَهُمْ خَيْرُهُمْ وَأَهْلُ السَّنَةِ فِي الْإِسْلَامِ كَأَهْلِ الْإِسْلَامِ فِي الْمَلِكِ وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ أُمَّةٍ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ فَهَمَّ ضَالُونَ وَإِنَّمَا يَضِلُّهُمْ عِلْمَاؤُهُمْ فَعِلْمَاؤُهُمْ شَرَارُهُمْ وَالْمُسْلِمُونَ عَلَى هُدًى وَإِنَّمَا يَتَّبِعُونَ الْهُدَى بِعِلْمَائِهِمْ فَعِلْمَاؤُهُمْ خَيْرُهُمْ وَكَذَلِكَ أَهْلُ السَّنَةِ أَمْتُهُمْ خَيْرُ الْأُمَّةِ وَأُمَّةُ أَهْلِ الْبِدْعِ أَضْرَعُ عَلَى الْأُمَّةِ مِنْ أَهْلِ الذَّنُوبِ وَلِهَذَا أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَتْلِ الْخَوَارِجِ وَنَهَى عَنِ قِتَالِ الْوَلَاةِ الظَّالِمَةِ وَأَوْلَيْكَ لَهُمْ نَهْمَةٌ فِي الْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ فَصَارَ يُعْرَضُ لَهُمْ مِنَ الْوَسْوَاسِ الَّتِي تَضِلُّهُمْ وَهُمْ يظُنُّونَهَا هُدًى فَيَطْبِعُونَهَا مَا لَا يُعْرَضُ لِغَيْرِهِمْ وَمَنْ سَلِمَ مِنْ ذَلِكَ مِنْهُمْ كَانَ مِنْ أُمَّةِ الْمُتَّقِينَ مَصَابِيحِ الْهُدَى وَيُنَابِيعِ الْعِلْمِ كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ لِأَصْحَابِهِ كُونُوا يَنْبَاعِ الْعِلْمِ مَصَابِيحِ الْحِكْمَةِ سِرْجِ اللَّيْلِ جِدِّ الْقُلُوبِ احْلَاسِ الْبُيُوتِ خَلْقَانِ الثِّيَابِ تَعْرِفُونَ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ وَتَخْفُونَ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ^١

الإيمان قول وعمل يزيد وينقص

قال أبو داود السجستاني حدثنا أحمد بن حنبل حدثنا وكيع عن الأعمش عن شقيق عن أبي المقدم عن أبي يحيى قال سئل حذيفة عن المنافق قال الذي يعرف الإسلام ولا يعمل به وقال أبو داود حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي البختري عن حذيفة قال القلوب أربعة قلب أغلف فذلك قلب الكافر وقلب مصفح وذلك قلب المنافق وقلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب فيه إيمان ونفاق فمثل الإيمان فيه كممثل شجرة يمدها ماء طيب ومثل النفاق مثل قرحة يمدها قيح ودم فأيهما غلب عليه غلب وقد روى مرفوعاً وهو في المسند مرفوعاً وهذا الذي قاله حذيفة يدل عليه قوله تعالى { هُمْ لِلْكَافِرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ } { آل عمران ١٦٧ } فقد كان قيل ذلك فيهم نفاق مغلوب فلما كان يوم أحد غلب نفاقهم فصاروا إلى الكفر أقرب وروى عبدالله بن المبارك عن عوف بن أبي جميلة عن عبدالله بن عمرو بن هند عن علي بن أبي طالب قال إن الإيمان يبدو لمظة بيضاء في القلب فكلما ازداد العبد إيماناً ازداد القلب بياضاً حتى إذا استكمل الإيمان أبيض القلب كله وإن النفاق يبدو لمظة سوداء في القلب فكلما ازداد العبد نفاقاً ازداد القلب سواداً حتى إذا استكمل العبد النفاق أسود القلب وأيم الله لو شققتم عن قلب المؤمن لوجدتموه أبيض ولو شققتم عن قلب المنافق والكافر لوجدتموه أسود وقال ابن مسعود الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل رواه أحمد وغيره وهذا كثير في كلام السلف يبينون أن

^١مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٢٣٨-٢٨٥

القلب قد يكون فيه ايمان ونفاق والكتاب والسنة يدلان على ذلك فان النبي ذكر شعب الايمان وذكر شعب النفاق وقال من كانت فيه شعبة منهن كانت فيه شعبة من النفاق حتى يدعها وتلك الشعبة قد يكون معها كثير من شعب الايمان ولهذا قال ويخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من ايمان فاعلم ان من كان معه من الايمان اقل القليل لم يخلد في النار وان من كان معه كثير من النفاق فهو يعذب في النار على قدر ما معه من ذلك ثم يخرج من النار وعلى هذا فقول له للأعراب { لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قَوْلُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ } الحجرات ١٤ نفي حقيقة دخول الايمان في قلوبهم وذلك لا يمنع ان يكون معهم شعبة منه كما نفاه عن الزاني والسارق ومن لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه ومن لا يأمن جاره بوائقه وغير ذلك كما تقدم ذكره فان في القرآن والحديث ممن نفي عنه الايمان لترك بعض الواجبات شيء كثير وحينئذ فنقول من قال من السلف أسلمنا أى استسلمنا خوف السيف وقول من قال هو الاسلام الجميع صحيح فان هذا انما أراد الدخول في الاسلام والاسلام الظاهر يدخل فيه المنافقون فيدخل فيه من كان في قلبه إيمان ونفاق وقد علم أنه يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من ايمان بخلاف المنافق المحض الذي قلبه كله أسود فهذا هو الذي يكون في الدرك الأسفل من النار ولهذا كان الصحابة يخشون النفاق على أنفسهم ولم يخافوا التكذيب لله ورسوله فان المؤمن يعلم من نفسه أنه لا يكذب الله ورسوله يقينا وهذا مستند من قال أنا مؤمن حقا فإنه أراد بذلك ما يعلمه من نفسه من التصديق الجازم ولكن الايمان ليس مجرد التصديق بل لا بد من أعمال قلبية تستلزم أعمالا ظاهرة كما تقدم فحب الله ورسوله من الايمان وحب ما أمر الله به وبغض ما نهى عنه هذا من أخص الامور بالايমান ولهذا ذكر النبي في عدة أحاديث أن من سرته حسنته وسأته سيئته فهو مؤمن فهذا يحب الحسنة ويفرح بها ويبغض السيئة ويسوءه فعلها وان فعلها بشهوة غالبية وهذا الحب والبغض من خصائص الايمان ومعلوم أن الزاني حين يزني إنما يزني لحب نفسه لذلك الفعل فلو قام بقلبه خشية الله التي تقهر الشهوة أو حب الله الذي يغلبها لم يزن ولهذا قال تعالى عن يوسف عليه السلام { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } يوسف ٢٤ فمن كان مخلصا لله حق الاخلاص لم يزن وانما يزني لخلوه عن ذلك وهذا هو الايمان الذي ينزع منه لم ينزع منه نفس التصديق ولهذا قيل هو مسلم وليس بمؤمن فان المسلم المستحق للثواب لا بد أن يكون مصدقا والا كان منافقا لكن ليس كل من صدق قام بقلبه من الاحوال الايمانية الواجبة مثل كمال محبة الله ورسوله ومثل خشية الله والاخلاص له في الأعمال والتوكل عليه يكون الرجل مصدقا بما جاء به الرسول وهو مع ذلك يرأى بأعماله ويكون أهله وماله أحب اليه من الله ورسوله والجهاد في سبيله وقد خوطب بهذا المؤمنون في آخر الامر في سورة براءة فقبل لهم { إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } التوبة ٢٤ ومعلوم أن كثيرا من المسلمين أو أكثرهم بهذه الصفة وقد ثبت أنه لا يكون الرجل مؤمنا حتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما وانما المؤمن من لم يرتب وجاهد بماله ونفسه في سبيل الله فمن لم تقم بقلبه الاحوال الواجبة في الايمان فهو الذي نفي عنه الرسول والايمان وان كان معه التصديق والتصديق من الايمان ولا بد أن يكون مع التصديق شيء من حب الله وخشية الله والا فالتصديق الذي لا يكون معه شيء من ذلك ليس ايمانا البتة بل هو كتصديق فرعون واليهود وابليس وهذا هو الذي أنكره السلف على الجهمية قال الحميدى سمعت وكيعا يقول أهل السنة يقولون الايمان قول وعمل والمرجئة يقولون الايمان قول والجهمية يقولون الايمان المعرفة وفي رواية أخرى عنه وهذا كفر قال محمد بن عمر الكلابي سمعت وكيعا يقول الجهمية شر من القدرية قال وقال وكيع المرجئة الذين يقولون الاقرار يجزيء عن العمل ومن قال هذا فقد هلك ومن قال النية تجزئ عن العمل فهو كفر وهو قول جهم وكذلك قال أحمد بن حنبل ولهذا كان القول ان الايمان قول وعمل عند أهل السنة من شعائر السنة وحكى غير واحد الاجماع على ذلك وقد ذكرنا عن الشافعي رضى الله عنه ما ذكره من الاجماع على ذلك قوله في الأم وكان الاجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ومن أدركناهم يقولون ان الايمان قول وعمل ونية لا يجزئ واحد من الثلاثة إلا بالآخر وذكر ابن ابي حاتم في مناقبه سمعت حرمة يقول اجتمع حفص الفرد ومصطلان الاباضى عند الشافعي في دار الجروى فتناظرا معه في الايمان فاحتج مصطلان في الزيادة والنقصان وخالفه حفص الفرد فحوى الشافعي وتقلد المسألة على أن الايمان قول وعمل يزيد وينقص فطحن حفصا الفرد وقطعه وروى أبو عمرو الطلمنكى بإسناده المعروف عن موسى بن هارون الحمال قال أملى علينا إسحاق بن راهوية ان الايمان قول وعمل يزيد وينقص لا شك ان ذلك كما وصفنا وانما عقلنا هذا بالروايات الصحيحة والآثار العامة المحكمة وأحد

أصحاب رسول الله والتابعين وهلم جرا على ذلك وكذلك بعد التابعين من أهل العلم على شيء واحد لا يختلفون فيه

قال أبو عبدالله محمد بن نصر اختلف أصحابنا في تفسير قول النبي صلى الله عليه وسلم لا يزننى الزانى حين يزننى وهو مؤمن فقالت طائفة منهم انما أراد النبي ازالة اسم الايمان عنه من غير أن يخرج من الإسلام ولا يزيل عنه اسمه وفرقوا بين الايمان والاسلام وقالوا اذا زنى فليس بمؤمن وهو مسلم واحتجوا لتفريقهم بين الاسلام والايمان بقوله **{قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا { الحجرات ١٤}** الآية فقالوا الايمان خاص يثبت الاسم به بالعمل مع التوحيد والاسلام عام يثبت الاسم بالتوحيد والخروج من ملل الكفر واحتجوا بحديث سعد بن أبى وقاص وذكره عن سعد أن رسول الله أعطى رجالا ولم يعط رجلا منهم شيئا فقلت يا رسول الله أعطيت فلانا وفلانا ولم تعط فلانا وهو مؤمن فقال رسول الله أو مسلم أعادها ثلاثا والنبي يقول أو مسلم ثم قال انى لأعطى رجالا وامنع آخرين وهم أحب الى منهم مخافة أن يكبوا على وجوههم فى النار قال الزهرى فنرى أن الاسلام الكلمة والايمان العمل^٢

الاسلام أعمال الايمان والايمان عقود الاسلام

قال تعالى **{قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَمْ نُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ {١٤}** إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ {١٥} الحجرات ١٤- ١٥

قال محمد بن نصر حدثنا محمد بن يحيى حدثنا الحجاج بن المنهال عن حماد بن سلمة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن عمر بن الخطاب كان إذ أدخل بيته نشر المصحف فقرا فيه فدخل ذات يوم فقرا فأتى على هذه الآية **{الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ { الأنعام ٨٢}** إلى آخر الآية فإنتعل وأخذ رداءه ثم أتى الى أبى بن كعب فقال يا أبا المنذر أتيت قبل على هذه الآية **{الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ { الأنعام ٨٢}** وقد نرى أنا نظلم ونفعل فقال يا أمير المؤمنين ان هذا ليس بذلك يقول الله **{ إِنْ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ { لقمان ١٣}** انما ذلك الشرك قال محمد بن نصر وكذلك الفسق فسفان فسق ينقل عن الملة وفسق لا ينقل عن الملة فيسمى الكافر فاسقا والفاسق من المسلمين فاسقا ذكر الله إبليس فقال **{ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ { الكهف ٥٠}** وكان ذلك الفسق منه كفرا وقال الله تعالى **{وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ { السجدة ٢٠}** يريد الكفار دل على ذلك قوله **{كَلِمَاتٍ أَرَادُوا أَنْ يَخْرِجُوا مِنْهَا أَعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ دُوفُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ { السجدة ٢٠}** وسمى الفاسق من المسلمين فاسقا ولم يخرج من الإسلام قال الله تعالى **{وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَادَةٍ فَاجْلُدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ { النور ٤}** وقال تعالى **{فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ { البقرة ١٩٧}** فقالت العلماء فى تفسير الفسوق ها هنا هى المعاصى قالوا فلما كان الظلم ظلمين والفسق فسقين كذلك الكفر كفران أحدهما ينقل عن الملة والآخر لا ينقل عن الملة وكذلك الشرك شركان شرك فى التوحيد ينقل عن الملة وشرك فى العمل لا ينقل عن الملة وهو الرياء قال تعالى **{ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا { الكهف ١٠}** يريد بذلك المراعاة بالأعمال الصالحة وقال النبي الطيرة شرك قال محمد بن نصر فهذان مذهبان هما فى الجملة محكيان عن أحمد بن حنبل فى موافقيه من أصحاب الحديث حكى الشالنجى إسماعيل بن سعيد أنه سأل أحمد بن حنبل عن المصر على الكبائر يطلبها بجهده الا أنه لم يترك الصلاة والزكاة والصيام هل يكون مصرا من كانت هذه حاله قال هو مصر مثل قوله لا يزننى الزانى حين يزننى وهو مؤمن يخرج من الايمان ويقع فى الاسلام ومن نحو قوله

^١ مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٣٠٥-٣١٠

^٢ مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٣١٨

لا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ومن نحو قول ابن عباس في قوله { وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ } المائدة ٤ ؛ فقلت له ما هذا الكفر فقال كفر لا ينقل عن الملة مثل الايمان بعضه دون بعض وكذلك الكفر حتى يجئ من ذلك أمر لا يختلف فيه وقال ابن ابي شيبة لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن لا يكون مستكمل الايمان يكون ناقصا من ايمانه قال وسألت أحمد بن حنبل عن الاسلام والإيمان فقال الإيمان قول وعمل والإسلام إقرار قال وبه قال أبو خيثمة وقال ابن ابي شيبة لا يكون الإسلام إلا بإيمان ولا إيمان إلا بإسلام قلت وقد تقدم تمام الكلام بتلازمهما وان كان مسمى أحدهما ليس هو مسمى الآخر وقد حكى غير واحد إجماع أهل السنة والحديث على أن الايمان قول وعمل قال ابو عمر بن عبد البر في التمهيد أجمع أهل الفقه والحديث على ان الايمان قول وعمل ولا عمل الا بنية والايمان عندهم يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية والطاعات كلها عندهم ايمان الا ما ذكر عن ابي حنيفة وأصحابه فانهم ذهبوا الى أن الطاعة لا تسمى ايمانا قالوا انما الايمان التصديق والاقرار ومنهم من زاد المعرفة وذكر ما احتجوا به الى أن قال وأما سائر الفقهاء من أهل الرأى والآثار بالحجاز والعراق والشام ومصر منهم مالك بن أنس والليث بن سعد وسفيان الثوري والأوزاعي والشافعي وأحمد بن حنبل واسحاق بن راهويه وأبو عبيد القاسم بن سلام وداود بن علي والطبري ومن سلك سبيلهم فقالوا الايمان قول وعمل قول باللسان وهو الاقرار وإعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح مع الاخلاص بالنية الصادقة قالوا وكل ما يطاع الله عز وجل به من فريضة وناقلة فهو من الايمان والايمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي وأهل الذنوب عندهم مؤمنون غير مستكملى الايمان من أجل ذنوبهم وانما صاروا ناقصي الايمان بارتكابهم الكبائر ألا ترى الى قول النبي لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن الحديث يريد مستكمل الايمان ولم يرد به نفى جميع الايمان عن فاعل ذلك بدليل الاجماع على توريث الزانى والسارق وشارب الخمر اذا صلوا الى القبلة وانتحلوا دعوة الاسلام من قراباتهم المؤمنين الذين ليسوا بتلك الأحوال واحتج على ذلك ثم قال وأكثر أصحاب مالك على أن الايمان والاسلام شيء واحد قال وأما قول المعتزلة فالإيمان عندهم جماع الطاعات ومن قصر منها عن شيء فهو فاسق لا مؤمن ولا كافر وهؤلاء هم المتحققون بالإعتزال اصحاب المنزلة بين المنزلتين إلى أن قال وعلى أن الايمان يزيد وينقص يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية وعليه جماعة أهل الآثار والفقهاء من أهل الفتيا فى الأمصار وروى ابن القاسم عن مالك أن الإيمان يزيد وتوقف فى نقصانه وروى عنه عبدالرزاق ومعن بن عيسى وابن نافع أنه يزيد وينقص وعلى هذا مذهب الجماعة من أهل الحديث والحمد لله ثم ذكر حجج المرجئة ثم حجج أهل السنة ورد على الخوارج التكفير بالحدود المذكورة للعصاة فى الزنا والسرقة ونحو ذلك وبالموارثة وبحديث عبادة من أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فى الدنيا فهو كفارة وقال الايمان مراتب بعضها فوق بعض فليس ناقص الايمان ككامل الايمان قال الله تعالى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ } الأنفال ٢ أى حقا ولذلك قال { هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا } الأنفال ٤ وكذلك قوله المؤمن من أمنه الناس والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده يعنى حقا ومن هذا قوله أكمل المؤمنين ايمانا ومعلوم أن هذا لا يكون أكمل حتى يكون غيره أنقص وقوله أوثق عرى الايمان الحب فى الله والبغض فى الله وقوله لا إيمان لمن لا أمانة له يدل على أن بعض الايمان أوثق وأكمل من بعض وذكر الحديث الذى رواه الترمذى وغيره من أحب لله وابغض لله الحديث وكذلك ذكر ابو عمرو الطلمنكى اجماع أهل السنة على أن الايمان قول وعمل ونية واصابة السنة وقال أبو طالب المكى مبانى الاسلام الخمسة يعنى الشهادتين والصلوات الخمس والزكاة وصيام شهر رمضان والحج قال وأركان الايمان سبعة يعنى الخمسة المذكورة فى حديث جبرائيل والايمان بالقدر والايمان بالجنة والنار وكلاهما قد رويت فى حديث جبريل كما سنذكر إن شاء الله تعالى قال والإيمان بأسماء الله تعالى وصفاته والايمان بكتب الله وأنبيائه والايمان بالملائكة والشياطين يعنى والله أعلم الايمان بالفرق بينهما فان من الناس من يجعلهما جنسا واحدا لكن تختلف باختلاف الأعمال كما يختلف الانسان البر والفاجر والايمان بالجنة والنار وأنهما قد خلقتا قبل آدم والايمان بالبعث بعد الموت والايمان بجميع أقدار الله خيرها وشرها وحلوها ومرها أنها من الله قضاء وقدر ومشينة وحكما وان ذلك عدل منه وحكمة بالغة إستأثر بعلم غيبها ومعنى حقاقتها قال وقد قال قائلون ان الايمان هو الاسلام وهذا قد أذهب التفاوت والمقامات وهذا يقرب من مذهب المرجئة وقال آخرون ان الاسلام غير الايمان وهؤلاء قد أدخلوا التضاد والتغاير وهذا قريب من قول الاباضية فهذه مسألة مشكلة تحتاج الى شرح وتفصيل فمثل الاسلام من الإيمان كمثل الشهادتين احدهما من الأخرى فى المعنى والحكم فشهادة الرسول غير شهادة الوحداية فهما شيان فى الأعيان واحدهما مرتبطة بالأخرى فى المعنى والحكم كشيء واحد كذلك الايمان والاسلام احدهما مرتبط بالآخر فهما كشيء واحد لا ايمان لمن لا إسلام له ولا اسلام لمن لا إيمان له

إذ لا يخلو المسلم من إيمان به يصح إسلامه ولا يخلو المؤمن من إسلام به يحقق إيمانه من حيث اشترط الله للأعمال الصالحة الإيمان واشترط للإيمان الأعمال الصالحة فقال في تحقيق ذلك {فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ} الأنبياء ٩٤ وقال في تحقيق الإيمان بالعمل {وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى} طه ٧٥ فمن كان ظاهره أعمال الإسلام ولا يرجع إلى عقود الإيمان بالغيب فهو منافق نفاقاً ينقل عن الملة ومن كان عقده الإيمان بالغيب ولا يعمل بأحكام الإيمان وشرائع الإسلام فهو كافر كفراً لا يثبت معه توحيد ومن كان مؤمناً بالغيب مما أخبرت به الرسل عن الله عاملاً بما أمر الله فهو مؤمن مسلم ولو لا أنه كذلك لكان المؤمن يجوز أن لا يسمى مسلماً ولجاز أن المسلم لا يسمى مؤمناً بالله وقد أجمع أهل القبلية على أن كل مؤمن مسلم وكل مسلم مؤمن بالله وملائكته وكتبه وقال ومثل الإيمان في الأعمال كمثل القلب في الجسم لا ينفك أحدهما عن الآخر لا يكون ذو جسم حتى لا قلب له ولا ذو قلب بغير جسم فهما شيئان منفردان وهما في الحكم والمعنى منفصلان ومثلهما أيضاً مثل حبة لها ظاهر وباطن وهي واحدة لا يقال حبتان لتفاوت صفتيهما فكذلك أعمال الإسلام من الإسلام هو ظاهر الإيمان وهو من أعمال الجوارح والإيمان باطن الإسلام وهو من أعمال القلوب وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الإسلام علانية والإيمان في القلب وفي لفظ الإيمان سر فالإسلام أعمال الإيمان والإيمان عقود الإسلام فلا إيمان إلا بعمل ولا عمل إلا بعقد ومثل ذلك مثل العمل الظاهر والباطن أحدهما مرتبط بصاحبه من أعمال القلوب وعمل الجوارح ومثله قول رسول الله انما الأعمال بالنيات أى لا عمل إلا بعقد وقصد لأن إنما تحقيق للشيء ونفى لما سواه فأثبت بذلك عمل الجوارح من المعاملات وعمل القلوب من النيات فمثل العمل من الإيمان كمثل الشفتين من اللسان لا يصح الكلام إلا بهما لأن الشفتين تجمع الحروف واللسان يظهر الكلام وفي سقوط أحدهما بطلان الكلام وكذلك في سقوط العمل ذهاب الإيمان ولذلك حين عدد الله نعمه على الإنسان بالكلام ذكر الشفتين مع اللسان في قوله {أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ} ٨ {وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ} ٩ {البلد ٨-٩} بمعنى ألم نجعله ناظراً متكلماً فعبّر عن الكلام باللسان والشفتين لأنهما مكان له وذكر الشفتين لأن الكلام الذى جرت به النعمة لا يتم إلا بهما ومثل الإيمان والإسلام أيضاً كفسطاط قائم فى الأرض له ظاهر وأطنا ب وله عمود فى باطنه فالفسطاط مثل الإسلام له أركان من أعمال العلانية والجوارح وهو الأطنا ب التى تمسك أرجاء الفسطاط والعمود الذى فى وسط الفسطاط مثله كالإيمان لا قوام للفسطاط إلا به فقد احتاج الفسطاط إليها إذ لا قوام له ولا قوة إلا بهما كذلك الإسلام فى أعمال الجوارح لا قوام له إلا بالإيمان والإيمان من أعمال القلوب لا نفع له إلا بالإسلام وهو صالح الأعمال و أيضاً فإن الله قد جعل ضد الإسلام والإيمان واحداً فلو لا أنهما كشيء واحد فى الحكم والمعنى ما كان ضدتهما واحداً فقال {كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعَدَ إِيمَانِهِمْ} آل عمران ٨٦ وقال {أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} آل عمران ٨٠ فجعل ضدتهما الكفر قال وعلى مثل هذا أخبر رسول الله عن الإيمان والإسلام من صنف واحد فقال فى حديث ابن عمر بنى الإسلام على خمس وقال فى حديث ابن عباس عن وفد عبد القيس أنهم سألوه عن الإيمان فنذكر هذه الأوصاف فدل بذلك على أنه لا إيمان باطن إلا بإسلام ظاهر ولا إسلام ظاهر علانية إلا بإيمان سر وان الإيمان والعمل قرينان لا ينفك أحدهما بدون صاحبه قال فأما تفرقة النبي فى حديث جبريل بين الإيمان والإسلام فان ذلك تفصيل أعمال القلوب وعقودها على ما توجب هذه المعانى التى وصفناها أن تكون عقوداً من تفصيل أعمال الجوارح مما يوجب الأفعال الظاهرة التى وصفها أن تكون علانية لا أن ذلك يفرق بين الإسلام والإيمان فى المعنى باختلاف وتضاد ليس فيه دليل أنهما مختلفان فى الحكم قال ويجتمعان فى عبد واحد مسلم مؤمن فيكون ما ذكره من عقود القلب وصف قلبه وما ذكره من العلانية وصف جسمه قال و أيضاً فإن الأمة مجتمعة أن العبد لو آمن بجميع ما ذكره من عقود القلب فى حديث جبريل من وصف الإيمان ولم يعمل بما ذكره من وصف الإسلام أنه لا يسمى مؤمناً وأنه ان عمل بجميع ما وصف به الإسلام ثم لم يعتقد ما وصفه من الإيمان أنه لا يكون مسلماً وقد أخبر النبي أن الأمة لا تجتمع على ضلالة قلت كأنه أراد بذلك إجماع الصحابة ومن اتبعهم أو أنه لا يسمى مؤمناً فى الأحكام وأنه لا يكون مسلماً اذا أنكر بعض هذه الأركان أو علم أن الرسول أخبر بها ولم يصدقها أو أنه لم ير خلاف أهل الأهواء خلافاً والافأبو طالب كان عارفاً بأقوالهم وهذا والله أعلم مراده^١

^١ مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٣٢٨-٣٣٦

هناك قولين متطرفين قول من يقول الإسلام مجرد الكلمة والأعمال الظاهرة ليست داخلية في مسمى الإسلام وقول من يقول مسمى الإسلام والإيمان واحد وكلاهما قول ضعيف مخالف لحديث جبريل وسائر أحاديث النبي ولهذا لما نصر محمد بن نصر المروزي القول الثاني لم يكن معه حجة على صحته ولكن احتج بما يبطل به القول الأول فاحتج بقوله في قصة الأعراب { **بَلِ اللَّهِ يُمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } { ١٧ } { الحجرات ١٧ } قال فدل ذلك على أن الإسلام هو الإيمان فيقال بل يدل على نقيض ذلك لأن القوم لم يقولوا أسلمنا بل قالوا آمنا والله أمرهم أن يقولوا أسلمنا ثم ذكر تسميتهم بالإسلام فقال { **بَلِ اللَّهِ يُمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } { ١٧ } { الحجرات ١٧ } في قولكم آمنا ولو كان الإسلام هو الإيمان لم يحتج أن يقول إن كنتم صادقين فانهم صادقون في قولهم أسلمنا مع أنهم لم يقولوا ولكن الله قال { **يَمُنُونَ عَلَيْكُمْ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ** } { ١٧ } { الحجرات ١٧ } أي يمتنون عليك ما فعلوه من الإسلام فإله تعالى سمي فعلهم إسلاما وليس في ذلك ما يدل على أنهم سموه إسلاما وانما قالوا آمنا ثم أخبر أن المنة تقع بالهداية الى الإيمان فأما الإسلام الذي لا إيمان معه فكان الناس يفعلونه خوفا من السيف فلا منة لهم يفعله واذا لم يمن الله عليهم بالإيمان كان ذلك كإسلام المنافقين فلا يقبله الله منهم فأما اذا كانوا صادقين في قولهم آمنا فإله هو المان عليهم بهذا الايمان وما يدخل فيه من الإسلام وهو سبحانه نفى عنهم الإيمان أولا وهنا علق منة الله به على صدقهم فدل على جواز صدقهم وقد قيل إنهم صاروا صادقين بعد ذلك ويقال المعلق بشرط لا يستلزم وجود ذلك الشرط ويقال لأنه كان معهم إيمان ما لكن ما هو الإيمان الذي وصفه ثانيا بل معهم شعبة من الإيمان قال محمد بن نصر وقال الله تعالى { **وَمَا أَمَرُوا إِلَّا لِيُعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ** } { البينة ٥ } وقال { **إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ** } آل عمران ١٩ فسمى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة دينا قيما وسمى الدين إسلاما فمن لم يؤد الزكاة فقد ترك من الدين القيم الذي أخبر الله أنه عنده وهو الإسلام بعضا قال وقد جاء معنا هذه الطائفة التي فرقته بين الإسلام والإيمان على أن الإيمان قول وعمل وأن الصلاة والزكاة من الإيمان وقد سماهما الله دينا وأخبر أن الدين عنده الإسلام فقد سمي الله الإسلام بما سمي به الإيمان وسمى الإيمان بما سمي به الإسلام وبمثل ذلك جاءت الأخبار عن النبي فمن زعم أن الإسلام هو الإقرار وأن العمل ليس منه فقد خالف الكتاب والسنة ولا فرق بينه وبين المرجئة إذ زعمت أن الإيمان إقرار بلا عمل فيقال أما قوله إن الله جعل الصلاة والزكاة من الدين والدين عنده هو الإسلام فهذا كلام حسن موافق لحديث جبريل ورده على من جعل العمل خارجا من الإسلام كلام حسن وأما قوله ان الله سمي الإيمان بما سمي به الإسلام وسمى الإسلام بما سمي به الإيمان فليس كذلك فان الله إنما قال { **إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ** } آل عمران ١٩ ولم يقل قط إن الدين عند الله الإيمان ولكن هذا الدين من الإيمان وليس إذا كان منه يكون هو إياه فان الإيمان أصله معرفة القلب وتصديقه وقوله والعمل تابع لهذا العلم والتصديق ملازم له ولا يكون العبد مؤمنا إلا بهما وأما الإسلام فهو عمل محض مع قول والعلم والتصديق ليس جزء مسماه لكن يلزمه جنس التصديق فلا يكون عمل إلا بعلم لكن لا يستلزم الإيمان المفصل الذي بينه الله ورسوله كما قال تعالى { **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** } { ١٥ } { الحجرات ١٥ } وقوله { **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** } { الأنفال ٢ } وسائر النصوص التي تنفي الايمان عن من لم يتصف بما ذكره فإن كثيرا من المسلمين مسلم باطنا وظاهرا ومعه تصديق مجمل ولم يتصف بهذا الايمان والله تعالى قال { **وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ** } آل عمران ٨٥ وقال { **وَرَضِيَتْ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا** } { المائدة ٣ } ولم يقل ومن يبتغ غير الإسلام علما ومعرفة وتصديقا وإيمانا ولا قال رضيت لكم الإسلام تصديقا وعلما فإن الإسلام من جنس الدين والعمل والطاعة والانقياد والخضوع فمن ابتغى غير الإسلام دينا فلن يقبل منه والايمان طمأنينة ويقين أصله علم وتصديق ومعرفة والدين تابع له يقال أمنت بالله واسلمت لله قال موسى { **يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ** } { يونس ٨٤ } فلو كان مسماهما واحدا كان هذا تكريرا وكذلك قوله { **إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ** } { الأحزاب ٣٥ } كما قال والصادقين والصابرين والخاصعين فالمؤمن متصف بهذا كله لكن هذه الأسماء لا تطابق الإيمان في العموم والخصوص وكان النبي يقول اللهم لك أسلمت وبك أمنت و عليك توكلت و اليك أنبت و بك خاصمت و إليك حاكمت كما ثبت في الصحيحين أنه كان يقول ذلك إذا قام من الليل وثبت في صحيح مسلم وغيره أنه كان يقول في سجوده اللهم لك

سجدت وبك آمنت ولك أسلمت وفي الركوع يقول لك ركعت ولك أسلمت وبك آمنت ولما بين النبي خاصة كل منهما قال المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من أمانه الناس على دمائهم واموالهم ومعلوم أن السلامة من ظلم الانسان غير كونه مأمونا على الدم والمال فإن هذا أعلى والمؤمن يسلم الناس من ظلمه وليس من سلموا من ظلمه يكون مأمونا عندهم قال محمد بن نصر فمن زعم أن الإسلام هو الاقرار وأن العمل ليس منه فقد خالف الكتاب والسنة وهذا صحيح فإن النصوص كلها تدل على أن الأعمال من الإسلام

الذين وصفوا بالإسلام دون الإيمان قد لا يكونون كفارا في الباطن

وهو أنه قد جاء في الكتاب والسنة وصف أقوام بالإسلام دون الإيمان فقال تعالى **قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ نُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ {الحجرات ١٤}** وقال تعالى في قصة قوم لوط **وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ {الذاريات ٣٦-٣٥}** وقد ظن طائفة من الناس أن هذه الآية تقتضي أن مسمى الإيمان والإسلام واحد وعارضوا بين الآيتين وليس كذلك بل هذه الآية توافق الآية الأولى لأن الله أخبر أنه أخرج من كان فيها مؤمنا وأنه لم يجد إلا اهل بيت من المسلمين وذلك لأن امرأة لوط كانت في اهل البيت الموجودين ولم تكن من المخرجين الذين نجوا بل كانت من الغابرين الباقين في العذاب وكانت في الظاهر مع زوجها على دينه وفي الباطن مع قومها على دينهم خائفة لزوجها تدل قومها على إضيافه كما قال الله تعالى فيها **{ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ وَامْرَأةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا {التحريم ١٠}** وكانت خيانتهم لهما في الدين لا في الفرائض فإنه ما بغت امرأة نبي قط إذ نكاح الكافرة قد يجوز في بعض الشرائع ويجوز في شريعتنا نكاح بعض الأنواع وهن الكتابيات وأما نكاح البيغي فهو ديانة وقد صان الله النبي عن أن يكون ديوثا ولهذا كان الصواب قول من قال من الفقهاء بتحريم نكاح البيغي حتى تتوب و المقصود أن امرأة لوط لم تكن مؤمنة ولم تكن من الناجين المخرجين فلم تدخل في قوله **{فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ {٣٥}** {الذاريات ٣٥} وكانت من اهل البيت المسلمين وممن وجد فيه ولهذا قال تعالى **{فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ {٣٦}** {الذاريات ٣٦} وبهذا تظهر حكمة القرآن حيث ذكر الإيمان لما أخبر بالأخراج وذكر الإسلام لما أخبر بالوجود وأيضا فقد قال تعالى **{إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ {الأحزاب ٣٥}** ففرق بين هذا وهذا فهذه ثلاثة مواضع في القرآن و أيضا فقد ثبت في الصحيحين عن سعد بن ابي وقاص قال اعطى رسول الله رجالا ولم يعط رجلا فقلت يا رسول الله اعطيت فلانا وتركت فلانا وهو مؤمن فقال او مسلم قال ثم غلبي ما أجد فقلت يا رسول الله اعطيت فلانا وفلانا وتركت فلانا وهو مؤمن فقال او مسلم مرتين أو ثلاثا وذكر في تمام الحديث أنه يعطى رجالا ويدع من هو أحب إليه منهم خشية أن يكبهم الله في النار على مناخرهم قال الزهري فكانوا يرون أن الإسلام الكلمة والإيمان العمل فأجاب سعد بجوابين أحدهما أن هذا الذي شهدت له بالإيمان قد يكون مسلما لا مؤمنا الثاني إن كان مؤمنا وهو أفضل من أولئك فأنا قد أعطى من هو أضعف إيمانا لنلا يحمله الحرمان على الردة فيكبه الله في النار على وجهه وهذا من اعطاء المؤلفه قلوبهم وحينئذ فهؤلاء الذين أثبت لهم القرآن والسنة الإسلام دون الإيمان هل هم المنافقون الكفار في الباطن أم يدخل فيهم قوم فيهم بعض الإيمان هذا مما تنازع فيه أهل العلم على اختلاف أصنافهم فقالت طائفة من اهل الحديث والكلام وغيرهم بل هم المنافقون الذين استسلموا وانقادوا في الظاهر ولم يدخل الى قلوبهم شيء من الإيمان واصحاب هذا القول قد يقولون الإسلام المقبول هو الإيمان ولكن هؤلاء أسلموا ظاهرا لا باطنا فلم يكونوا مسلمين في الباطن ولم يكونوا مؤمنين وقالوا إن الله سبحانه يقول **{وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ {آل عمران ٨٥}** بيانه كل مسلم مؤمن فما ليس من الإسلام فليس مقبولا يوجب أن يكون الإيمان منه وهؤلاء يقولون كل مؤمن مسلم وكل مسلم مؤمن اذا كان مسلما في الباطن وأما الكافر

المنافق في الباطن فإنه خارج عن المؤمنين المستحقين للثواب بإتفاق المسلمين ولا يسمون بمؤمنين عند أحد من سلف الأمة وأئمتها ولا عند احد من طوائف المسلمين إلا عند طائفة من المرجئة وهم الكرامية الذين قالوا أن الايمان هو مجرد التصديق في الظاهر فاذا فعل ذلك كان مؤمنا وان كان مكذبا في الباطن وسلموا أنه معذب مخلد في الآخرة فنازعوا في اسمه لا في حكمه ومن الناس من يحكي عنهم أنهم جعلوهم من أهل الجنة وهو غلط عليهم ومع هذا فتسميتهم له مؤمنا بدعة ابتدعوها مخالفة للكتاب والسنة واجماع سلف الأمة وهذه البدعة الشنعاء هي التي انفرد بها الكرامية دون سائر مقالاتهم قال الجمهور من السلف والخلف بل هؤلاء الذين وصفوا بالإسلام دون الإيمان قد لا يكونون كفارا في الباطن بل معهم بعض الإسلام المقبول وهؤلاء يقولون الاسلام اوسع من الإيمان فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنا ويقولون في قول النبي لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن أنه يخرج من الإيمان إلى الإسلام ودوروا للإسلام دارة ودوروا للإيمان دارة أصغر منها في جوفها وقالوا إذا زنى خرج من الإيمان إلى الإسلام ولا يخرج من الإسلام إلى الكفر ودليل ذلك أن الله تبارك وتعالى قال { قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } { ١٤ } { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } { ١٥ } { الْحَجَرَات ١٤-١٥ } { ١٥ } { قُلْ أَنْتَ لَعَلُّمُونَ اللَّهُ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } { ١٦ } { يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } { ١٧ } { الْحَجَرَات ١٤-١٧ } فقد قال تعالى { لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ } { ١٤ } { الْحَجَرَات ١٤ } وهذا الحرف أي { وَلَمَّا } { ١٤ } { الْحَجَرَات ١٤ } ينفي به ما قرب وجوده وانتظر وجوده ولم يوجد بعد فيقول لمن ينتظر غائبا أي لما ويقول قد جاء لما يجيء بعد فلما قالوا { آمَنَّا } { ١٤ } { الْحَجَرَات ١٤ } قيل { لَمْ تُؤْمِنُوا } { ١٤ } { الْحَجَرَات ١٤ } بعد بل الإيمان مرجو منتظر منهم ثم قال { وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا } { ١٤ } { الْحَجَرَات ١٤ } أي لا ينقصكم من أعمالكم المثبتة شيئا أي في هذه الحال فإنه لو أرادوا طاعة الله ورسوله بعد دخول الإيمان في قلوبهم لم يكن في ذلك فائدة لهم ولا لغيرهم إذ كان من المعلوم أن المؤمنين يثابون على طاعة الله ورسوله وهم كانوا مقرين به فإذا قيل لهم المطاع يثاب والمراد به المؤمن الذي يعرف أنه مؤمن لم يكن فيه فائدة جديدة و أيضا فالخطاب لهؤلاء المخاطبين قد اخبر عنهم لما يدخل في قلوبهم وقيل لهم { وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا } { ١٤ } { الْحَجَرَات ١٤ } فلو لم يكونوا في هذه الحال مثابين على طاعة الله ورسوله لكان خلاف مدلول الخطاب فبين ذلك أنه وصف المؤمنين الذين اخرج هؤلاء منهم فقال تعالى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } { ١٥ } { الْحَجَرَات ١٥ } وهذا نعت محقق الإيمان لا نعت من معه مثقال ذرة من إيمان كما في قوله تعالى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } { ٢ } { الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } { ٣ } { أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا } { ٤ } { الْأَنْفَال ٢-٤ } وقوله تعالى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ إِذَا كَانُوا مَعَهُ } قوله لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن وامثال ذلك فدل البيان على أن الإيمان المنفي عن هؤلاء الأعراب هو هذا الإيمان الذي نفي عن فساق اهل القبلة الذين لا يخلدون في النار بل قد يكون مع أحدهم مثقال ذرة من إيمان ونفي هذا الإيمان لا يقتضي ثبوت الكفر الذي يخلد صاحبه في النار وبتحقق هذا المقام يزول الاشتباه في هذا الموضع ويعلم أن في المسلمين قسما ليس هو منافقا محضا في الدرك الأسفل من النار وليس هو من المؤمنين الذين قيل فيهم { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } { الْحَجَرَات ١٥ } ولا من الذين قيل فيهم { أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا } { ٤ } { الْأَنْفَال ٤ } فلا هم منافقون ولا هم من هؤلاء الصادقين المؤمنين حقا ولا من الذين يدخلون الجنة بلا عقاب بل له طاعات ومعاص وحسنات وسيئات ومعه من الإيمان ما لا يخلد معه في النار وله من الكبائر ما يستوجب دخول النار وهذا

القسم قد يسميه بعض الناس الفاسق الملي وهذا مما تنازع الناس في إسمه وحكمه والخلاف فيه أول خلاف ظهر في الإسلام في مسائل أصول الدين^١

العمل الظاهر لازم للعمل الباطن لا ينفك عنه

أن القلب له عمل مع التصديق والظاهر قول ظاهر وعمل ظاهر وكلاهما مستلزم للباطن والمرجئة أخرجوا العمل الظاهر عن الايمان فمن قصد منهم إخراج أعمال القلوب أيضا وجعلها هي التصديق فهذا ضلال بين ومن قصد إخراج العمل الظاهر قيل لهم العمل الظاهر لازم للعمل الباطن لا ينفك عنه وانتفاء الظاهر دليل إنتفاء الباطن فبقي النزاع في أن العمل الظاهر هل هو جزء من مسمى الايمان يدل عليه بالتضمن أو لازم لمسمى الايمان والتحقيق أنه تارة يدخل في الاسم وتارة يكون لازما للمسمى بحسب افراد الاسم واقتارانه فإذا قرن الايمان بالإسلام كان مسمى الإسلام خارجا عنه كما في حديث جبريل وان كان لازما له وكذلك إذا قرن الايمان بالعمل كما في قوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} البقرة ٨٢ فقد يقال إسم الايمان لم يدخل فيه العمل وإن كان لازما له وقد يقال بل دخل فيه وعطف عليه عطف الخاص على العام وبكل حال فالعمل تحقيق لمسمى الايمان وتصديق له ولهذا قال طائفة من العلماء كالشيخ أبي إسماعيل الأنصاري وغيره الايمان كله تصديق فالقلب يصدق ما جاءت به الرسل واللسان يصدق ما في القلب والعمل يصدق القول كما يقال صدق عمله قوله ومنه قول النبي العيان تزيان وزناهما النظر والاذنان تزيان وزناهما السمع واليد تزيان وزناها البطش والرجل تزيان وزناها المشي والقلب يتمنى ويشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه والتصديق يستعمل في الخبر وفي الإرادة يقال فلان صادق العزم وصادق المحبة وحملوا حملة صادقة السلف إشتد نكيرهم على المرجئة لما أخرجوا العمل من الايمان وقالوا إن الايمان يتمثل الناس فيه ولا ريب أن قولهم بتساوي إيمان الناس من أفحش الخطأ بل لا يتساوي الناس في التصديق ولا في الحب ولا في الخشية ولا في العلم بل يتفاضلون من وجوه كثيرة و أيضا فإخراجهم العمل يشعر أنهم أخرجوا أعمال القلوب أيضا وهذا باطل قطعا فإن من صدق الرسول وأبغضه وعاداه بقلبه وبدنه فهو كافر قطعا بالضرورة وان أدخلوا أعمال القلوب في الايمان أخطأوا أيضا لإمتناع قيام الايمان بالقلب من غير حركة بدن وليس المقصود هنا ذكر عمل معين بل من كان مؤمنا بالله ورسوله بقلبه هل يتصور إذا رأى الرسول وأعداه يقاتلونه وهو قادر على أن ينظر إليهم ويحضر على نصر الرسول بما لا يضره هل يمكن مثل هذا في العادة إلا أن يكون منه حركة ما إلى نصر الرسول فمن المعلوم أن هذا ممتنع فلماذا كان الجهاد المتعين بحسب الامكان من الايمان وكان عدمه دليلا على إنتفاء حقيقة الايمان بل قد ثبت في الصحيح عنه من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة نفاق وفي الحديث دلالة على أنه يكون فيه بعض شعب النفاق مع ما معه من الايمان ومنه قوله تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} الحجرات ١٥ و أيضا فقد ثبت في الصحيح عن النبي أنه قال من رأى من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان وفي رواية وليس وراء ذلك من الايمان مثقال حبة خردل فهذا يبين أن القلب إذا لم يكن فيه بغض ما يكرهه الله من المنكرات كان عادما للإيمان والبغض والحب من أعمال القلوب ومن المعلوم أن إبليس ونحوه يعلمون أن الله عز وجل حرم هذه الأمور ولا يبغضونها بل يدعون إلى ما حرم الله ورسوله^٢

إذا أفرد لفظ الايمان دخل فيه الباطن والظاهر

^١مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٤٧٣-٤٧٩

^٢مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٥٥٥-٥٥٧

إذا علم أن الإيمان الذي في القلب من التصديق والحب وغير ذلك يستلزم الأمور الظاهرة من الأقوال الظاهرة والأعمال الظاهرة كما أن القصد التام مع القدرة يستلزم وجود المراد وأنه يتمتع مقام الإيمان الواجب في القلب من غير ظهور موجب ذلك ومقتضاه زالت شبه العلمية في هذه المسألة ولم يبق إلا نزاع لفظي في أن موجب الإيمان الباطن هل هو جزء منه داخل في مسماه فيكون لفظ الإيمان دالا عليه بالتضمن والعموم أو هو لازم للإيمان ومعلول له وثمره له فتكون دلالة الإيمان عليه بطريق اللزوم و حقيقة الأمر أن إسم الإيمان يستعمل تارة هكذا وتارة هكذا كما قد تقدم فإذا قرن إسم الإيمان بالإسلام أو العمل كان دالا على الباطن فقط وأن أفراد إسم الإيمان فقد يتناول الباطن والظاهر وبهذا تأتلف النصوص فقوله الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان أفرد لفظ الإيمان فدخل فيه الباطن والظاهر وقوله في حديث جبريل الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ذكره مع قوله الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت فلما أفرد عن إسم الإسلام ذكر ما يخصه الإسم في ذلك الحديث مجردا عن الإقتران وفي هذا الحديث مقرون بإسم الإسلام وقوله تعالى {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ} آل عمران ٨٥ دخل فيه الباطن فلو أتى بالعمل الظاهر دون الباطن لم يكن ممن أتى بالدين الذي هو عند الله الإسلام وأما إذا قرن الإسلام بالإيمان كما في قوله تعالى {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا} الحجرات ١٤ وقوله {فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} ٣٥ {فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} ٣٦ {الذاريات ٣٥-٣٦} وقوله تعالى {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} الأحزاب ٣٥ فقد يراد بالإسلام الأعمال الظاهرة كما في حديث أنس الذي في المسند عن النبي أنه قال الإسلام علانية والإيمان في القلب ومن علم أن دلالة اللفظ تختلف بالأفراد والإقتران كما في إسم الفقير والمسكين والمعروف والمنكر والبيغي وغير ذلك من الأسماء وكما في لغات سائر الأمم عربها وعجمها زاحت عنه الشبهة في هذا الباب والله أعلم فإن قال قائل إسم الإيمان إنما يتناول الأعمال مجازا قيل أولا ليس هذا بأولى ممن قال إنما تخرج عنه الأعمال مجازا بل هذا أقوى لأن خروج العمل عنه إنما هو إذا كان مقرونا بإسم الإسلام والعمل وأما دخول العمل فيه فإذا أفرد كما في قوله الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان فإنما يدل مع الإقتران أولى بإسم المجاز مما يدل عند التجريد والإطلاق وقيل له ثانيا لا نزاع في أن العمل الظاهر هو فرع عن الباطن وموجب له ومقتضاه لكن هل هو داخل في مسمى الإسم وجزء منه أو هو لازم للمسمى كالشرط المفارق والموجب التابع ومن المعلوم أن الأسماء الشرعية والدينية كإسم الصلاة و الزكاة و الحج ونحو ذلك هي باتفاق الفقهاء إسم لمجموع الصلاة الشرعية والحج الشرعي^١

المنافق

وليس كل من أظهر الإسلام يكون مؤمنا في الباطن إذ قد عرف في المظهرين للإسلام المؤمن والمنافق قال الله تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ} البقرة ٨ وقال تعالى {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ} المنافقون ١ وقال تعالى {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ} الحجرات ١٤^٢

ولو اضمحل المنافقون النفاق ولم يتكلموا به كانوا منافقين قال تعالى {يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ} التوبة ٦٤ وأيضا قد أخبر الله عنهم أنهم يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم وأنهم كاذبون فقال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ} البقرة ٨ وقال تعالى {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ

^١ مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٥٧٥-٥٧٧

^٢ مجموع الفتاوى ج: ٣٥ ص: ١٢٨

المُنافِقِينَ لَكَادِبُونَ { المنافقون ١ } وقد قال النبي **الإسلام علانية والإيمان في القلب** وقد قال الله تعالى **{قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ { الحجرات ١٤ }** وفي الصحيحين عن سعد أن النبي أعطى رجالا ولم يعط رجلا فقلت يا رسول الله أعطيت فلانا وفلانا وتركت فلانا وهو مؤمن فقال أو مسلم مرتين أو ثلاثا^١

اساس النفاق

وقد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي انه قال عليكم بالصدق فان الصدق يهدي الى البر وان البر يهدي الى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا واياكم والكذب فان الكذب يهدي الى الفجور وان الفجور يهدي الى النار ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا فأخبر النبي ان الصدق اصل يستلزم البر وان الكذب يستلزم الفجور وقد قال تعالى { إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ {١٣} وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ {١٤} } الانفطار ١٣-١٤ ولهذا كان بعض المشايخ اذا امر بعض متبعيه بالتوبة واحب ان لا ينفره ولا يشعب قلبه امره بالصدق ولهذا كان يكثر في كلام مشايخ الدين وأئمة ذكر الصدق والاخلاص حتى يقولون قل لمن لا يصدق لا يتبعني ويقولون الصدق سيف الله في الارض وما وضع على شيء الا قطعه ويقول يوسف بن اسباط وغيره ما صدق الله عبد الا صنع له وأمثال هذا كثير والصدق والاخلاص هما في الحقيقة تحقيق الايمان والاسلام فان المظهرين الاسلام ينقسمون الى مؤمن ومنافق والفارق بين المؤمن والمنافق هو الصدق فان اساس النفاق الذي يبنى عليه هو الكذب ولهذا اذا ذكر الله حقيقة الايمان نعتة بالصدق كما في قوله تعالى **{قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ يُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا { الحجرات ١٤ }** الى قوله **{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ { الحجرات ١٥ }** وقال تعالى **{لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ { الحشر ٨ }** فأخبر ان الصادقين في دعوى الايمان هم المؤمنون الذين لم يتعقب ايمانهم ريبة وجاهدوا في سبيله باموالهم وانفسهم^٢

الصدق يهدي الى البر

قال تعالى **{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ { الحجرات ١٥ }** فجعلهم صادقين في الايمان^٣

وقد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا فأخبر النبي أن الصدق يستلزم البر وأن الكذب يستلزم الفجور ولهذا كان بعض المشايخ إذا أمر متبعيه بالتوبة وأحب أن لا ينفر ويتعب قلبه أمره بالصدق ولهذا يكثر في كلام مشايخ الدين وأئمة ذكر الصدق والاخلاص حتى يقولون قل لمن لا يصدق لا يتبعني ويقولون الصدق سيف الله في الأرض ما وضع على شيء إلا قطعه ويقول يوسف بن اسباط وغيره ما صدق الله عبد إلا صنع له وأمثال هذا كثير والصدق والاخلاص هما

^١ مجموع الفتاوى ج: ١٣ ص: ٥٧

^٢ مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ١٠

^٣ منهاج السنة النبوية ج: ١ ص: ١٠٨

تحقيق الإيمان والإسلام فإن المظهرين الإسلام ينقسمون إلى مؤمن ومنافق فالفاروق بين المؤمن والمنافق هو الصدق كما في قوله **قَالَتْ الْأَعْرَابُ أَمَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** {١٤} **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** {١٥} **الحجرات ١٤-١٥** فأخبر أن الصادقين في دعوى الإيمان هم المؤمنون الذين لم يتعقب إيمانهم به وجاهدوا في سبيله بأموالهم وأنفسهم وذلك أن هذا هو العهد المأخوذ على الأولين والآخرين^١

الشارع دائما لا ينفي المسمى الشرعي إلا لإنتفاء واجب فيه

فما جاء من نفي الأعمال في الكتاب والسنة فإنما هو لإنتفاء بعض واجباته كقوله تعالى **{فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً}** النساء ٦٥ وقوله تعالى **{وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ}** النور ٤٧ وقوله تعالى **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَرْتَابُوا}** **الحجرات ١٥** الآية وقوله **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ}** النور ٦٢ الآية ونظائر ذلك كثيرة ومن ذلك قوله لا إيمان لمن لا أمانه له^٢ ولا صلاة إلا بفاتحة الكتاب ولا صلاة إلا بوضوء^٣

جاءت السنة في سائر الأعمال كالصلاة وغيرها أنه يثاب على ما فعله منها ويعاقب على الباقي حتى إنه إن كان له تطوع جبر ما ترك بالتطوع ولو كان ما فعل باطلا وجوده كعدمه لا يثاب عليه لم يجبر بالنواتل شيء وعلى ذلك دل حديث المسيء الذي في السنن أنه إذا نقص منها شيئا أثيب على ما فعله^٤ فإن قلت فالفقهاء يطلقون أنه قد بطلت صلاته وصومه وحجه إذا ترك منه ركنا قيل لأن الباطل في عرفهم ضد الصحيح والصحيح في عرفهم ما حصل به مقصوده وترتب عليه حكمه وهو براءة الذمة ولهذا يقولون الصحيح ما أسقط القضاء فصار قولهم بطلت بمعنى وجب القضاء لا بمعنى أنه لا يثاب عليها بشيء في الآخرة^٥ وهكذا جاء النفي في كلام الله ورسوله كقوله صلى الله عليه وسلم لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن وقوله لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له^٦ وقوله تعالى **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ}** الأنفال ٢ وقوله **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}** **الحجرات ١٥** فإن نفي الإيمان عن ترك واجبا منه أو فعل محرما فيه كنفي غيره كقوله لا صلاة إلا بأمر القرآن وقوله للمسيء ارجع فصل فإنك لم تصل وقوله للمنفرد خلف الصف لما أمره بالإعادة لا صلاة لفظ خلف الصف وقوله من سمع النداء ثم لم يجب من غير عذر فلا صلاة له^٧ ومن قال من الفقهاء إن هذا لنفي الكمال قيل له إن أردت الكمال المستحب فهذا باطل لوجهين أحدهما أن هذا لا يوجد قط في لفظ الشارع أنه ينفي عملا فعله العبد على الوجه الذي وجب عليه ثم ينفية لترك بعض المستحبات بل الشارع لا ينفي عملا إلا إذا لم يفعله العبد كما وجب عليه^٨ الثاني أنه لو نفي بترك مستحب لكان عامة الناس لا صلاة لهم ولا صيام فإن الكمال المستحب متفاوت ولا أحد يصلي كصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أكل من لم يكملها كتكميل الرسول يقال لا صلاة له^٩

لفظ الإيمان تختلف دلالاته بالإطلاق والإقتران

^١ أمراض القلوب ج: ١ ص: ٤٠ و التحفة العراقية ج: ١ ص: ٤٠
^٢ مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ٥٣١ و القواعد النورانية ج: ١ ص: ٢٧

^٣ منهاج السنة النبوية ج: ٥ ص: ٢٠٧-٢٠٩

قوله صلى الله عليه وسلم (انما الاعمال بالنيات) لفظه إنما للحصر عند جماهير العلماء وهذا مما يعرف بالإضطرار من لغة العرب كما تعرف معانى حروف النفي والإستفهام والشرط وغير ذلك لكن تنازع الناس هل دلالتها على الحصر بطريق المنطوق او المفهوم على قولين والجمهور على أنه بطريق المنطوق والقول الآخر قول بعض مثبتى المفهوم كالقاضى أبى يعلى فى أحد قولييه وبعض الغلاة من نفاته وهؤلاء زعموا أنها تفيد الحصر وإحتجوا بمثل قوله **{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ } الحجرات ١٠** وقد إحتج طائفة من الأصوليين على أنها للحصر بأن حرف إن للإثبات وحرف ما للنفي فإذا إجتمعا حصل النفي والإثبات جميعا وهذا خطأ عند العلماء بالعربية فإن ما هنا هو ما الكافة ليست ما النافية وهذه الكافة تدخل على إن وأخواتها فتكفها عن العمل وذلك لأن الحروف العاملة اصلها ان تكون للإختصاص فإذا إختصت بالإسم أو بالفعل ولم تكن كالجزم منه عملت فيه فإن وأخواتها إختصت بالإسم فعملت فيه وتسمى الحروف المشبهة للأفعال لأنها عملت نصبا ورفعا وكثرت حروفها وحروف الجر إختصت بالإسم فعملت فيه وحروف الشرط إختصت بالفعل فعملت فيه بخلاف أدوات الإستفهام فإنها تدخل على الجملتين ولم تعمل وكذلك ما المصدرية ولهذا القياس فى ما النافية أن لا تعمل أيضا على لغة تميم ولكن تعمل على اللغة الحجازية التى نزل بها القرآن فى مثل قوله تعالى **{ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ } المجادلة ٢** و **{ مَا هَذَا بَشَرًا } يوسف ٣١** إستحسانا لمشابهتها ليس هنا لما دخلت ما الكافة على أن أزلت إختصاصها فصارت تدخل على الجملة الإسمية والجملة والفعلية فبطل عملها كقوله **{ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ } الرعد ٧** وقوله **{ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } الطور ١٦** وقد تكون ما التى بعد أن إسمها لا حرفا كقوله **{ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ } طه ٦٩** بالرفع أى ان الذى صنعوه كيد ساحر خلاف قوله **{ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا } طه ٧٢** فإن القراءة بالنصب لا تستقيم إذا كانت ما بمعنى الذى وفى كلا المعنيين الحصر موجود اكن إذا كانت ما بمعنى الذى فالحصر جاء من جهة أن المعارف هى من صيغ العموم فإن الأسماء أما معارف وإما نكرات والمعارف من صيغ العموم والنكرة فى غير الموجب كالنفي وغيره من صيغ العموم فقوله **{ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ } طه ٦٩** تقديره أن الذى صنعوه كيد ساحر وأما الحصر فى إنما فهو من جنس الحصر بالنفي والإستثناء كقوله تعالى **{ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا } الشعراء ١٥٤** **{ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ } آل عمران ١٤٤** والحصر قد يعبر عنه بأن الأول محصور فى الثانى وقد يعبر عنه بالعكس والمعنى واحد وهو أن الثانى أثبتة الأول ولم يثبت له غيره مما يتوهم أنه ثابت له وليس المراد أنك تنفى عن الأول كل ما سوى الثانى فقوله **{ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ } الرعد ٧** أى انك لست ربا لهم ولا محاسبا ولا مجازيا ولا وكيفا عليهم كما قال **{ لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ } الغاشية ٢٢** وكما قال **{ فَأِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ } آل عمران ٢٠** **{ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ } المائدة ٧٥** ليس هو إليها ولا أمة الهة بل غايته أن يكون رسولا كما غاية محمد أن يكون رسولا وغاية مريم أن تكون صديقة وهذا مما إستدل به على بطلان قول بعض المتأخرين أنها نبيه وقد حكى الإجماع على عدم نبوة أحد من النساء القاضى ابوبكر ابن الطيب والقاضى أبويعلى والأستاذ ابوالمعالى الجوينى وغيرهم وكذلك قوله تعالى **{ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ } آل عمران ١٤٤** أى ليس مخلدا فى الدنيا لا يموت ولا يقتل بل يجوز عليه ما جاز على اخوانه المرسلين من الموت أو القتل **{ أَفَأَنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ } آل عمران ١٤٤** نزلت يوم أحد لما قيل أن محمدا قد قتل وتلاها الصديق يوم مات رسول الله فقال من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت وتلى هذه الآية فكان الناس لم يسمعوها حتى تلاها ابوبكر رضى الله تعالى عنه فكان لا يوجد احد إلا يتلوها وأما قوله تعالى **{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ } الأنفال ٢** الآية فهذه الآية أثبت فيها الإيمان لهؤلاء ونفاه عن غيرهم كما نفاه النبى صلى الله عليه وسلم عن نفاه عنه فى الأحاديث مثل قوله لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن فإياكم وإياكم وكذلك قوله لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له ومن هذا الباب قوله تعالى **{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا } الحجرات ١٥** الآية وقوله **{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْمَأُذُنُوهُ } النور ٦٢** الآية وهذه المواضع قد تنازع الناس فى نفيها والذى عليه جماهير السلف وأهل الحديث وغيرهم أن نفي الإيمان لإنتفاء بعض الواجبات فيه والشارع دائما لا ينفى المسمى الشرعى إلا لإنتفاء واجب فيه إذا قيل المراد بذلك نفي الكمال فالكمال نوعان واجب ومستحب فالمستحب كقول بعض الفقهاء الغسل ينقسم إلى كامل ومجزى أى كامل المستحبات وليس هذا الكمال هو المنفى فى لفظ الشارع بل المنفى هو الكمال الواجب وإلا فالشارع لم ينف الإيمان ولا الصلاة ولا الصيام ولا الطهارة ولا نحو ذلك من المسميات الشرعية لإنتفاء بعض مستحباتها إذ لو كان كذلك لا

تنفى الإيمان عن جماهير المؤمنين بل إنما نفاه لإنتفاء الواجبات كقوله عليه الصلاة والسلام لا صيام لمن لم يبيت النية و لا صلاة إلا بأمر القرآن وقد رويت عنه ألفاظ تنازع الناس في ثبوتها عنه مثل قوله لا صيام لمن لم يبيت الصيام من الليل ولا صلاة إلا بوضوء ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد من ثبتت عنده هذه الألفاظ فعليه ان يقول بموجبها فيوجب ما تضمنته من التثبيت وذكر اسم الله وإجابة المؤذن ونحو ذلك ثم إذا ترك الإنسان بعض واجبات العبادة هل يقال بطلت كلها فلا ثواب له عليها أم يقال يثاب على ما فعله ويعاقب على ما تركه وهل عليه إعادة ذلك هذا يكون بحسب الأدلة الشرعية فمن الواجبات في العبادة ما لا تبطل العبادة بتركه ولا إعادة على تاركه بل يجبر المتركة كالواجبات في الحج التي ليست أركاناً مثل رمى الجمار وأن يحرم من غير الميقات ونحو ذلك وكذلك الصلاة عند الجمهور كمالك وأحمد وغيرهم فيها واجب لا تبطل الصلاة بتركه عندهم كما يقول أبو حنيفة في الفاتحة والطمانينية وكما يقول مالك وأحمد في التشهد الأول لكن مالك وأحمد يقولان ما تركه من هذا سهوا فعليه أن يسجد للسهو وأما إذا تركه عمدا فتبطل صلاته كما تبطل الصلاة بترك التشهد الأول عمدا في المشهور من مذهبيهما لكن أصحاب مالك يسمون هذا سنة مؤكدة ومعناه معنى الواجب عندهم وأما أبو حنيفة فيقول من ترك الواجب الذي ليس بفرض عمدا أساء ولا إعادة عليه والجمهور يقولون لا نعهد في العبادة واجبا فيما يتركه الإنسان إلى غير بدل ولا إعادة عليه فلا بد من وجوب البديل للإعادة ولكن مع هذا إتفقت الأئمة على أن من ترك واجبا في الحج ليس بركن ولم يجبره بالدم الذي عليه لم يبطل حجة ولا تجب إعادته فهكذا يقول جمهور السلف وأهل الحديث ان من ترك واجبا من واجبات الإيمان الذي لا يناقض أصول الإيمان فعليه أن يجبر إيمانه إما بالتوبة وإما بالحسنات المكفرة فالكبائر يتوب منها والصغائر تكفرها الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن لم يفعل لم يحبط إيمانه جملة واصلهم أن الإيمان يتبع بعض فيذهب بعضه ويبقى بعضه كما في قوله عليه الصلاة والسلام يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ولهذا مذهبهم أن الإيمان يتفاضل ويتبعض هذا مذهب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم وأما الذين أنكروا تبعضه وتفاضله كأنهم قالوا متى ذهب بعضه ذهب سائرهم ثم إنقسموا قسمين فقالت الخوارج والمعتزلة فعل الواجبات وترك المحرمات من الإيمان فإذا ذهب بعض ذلك ذهب الإيمان كله فلا يكون مع الفاسق إيمان أصلا بحال ثم قالت الخوارج هو كافر وقالت المعتزلة ليس بكافر ولا مؤمن بل هو فاسق ننزله منزلة بين المنزلتين فخالفوا الخوارج في الاسم ووافقوهم في الحكم وقالوا أنه مخلد في النار لا يخرج منها بشفاعة ولا غيرها والحزب الثاني وافقوا أهل السنة على أنه لا يخلد في النار من أهل التوحيد أحد ثم ظنوا أن هذا لا يكون إلا مع وجود كمال الإيمان لإعتقادهم ان الإيمان لا يتبعض فقالوا كل فاسق فهو كامل الإيمان وإيمان الخلق متماثل لا متفاضل وإنما التفاضل في غير الإيمان من الأعمال وقالوا الأعمال ليست من الإيمان لأن الله فرق بين الإيمان والأعمال في كتابه ثم قال الفقهاء المعتبرون من أهل هذا القول إن الإيمان هو تصديق اللسان وقول القلب وهذا المنقول عن حماد بن أبي سليمان ومن وافقه كأبي حنيفة وغيره وقال جهم والصالحي ومن وافقهما من أهل الكلام كأبي الحسن وغيره أنه مجرد تصديق القلب وفصل الخطاب في هذا الباب أن اسم الإيمان قد يذكر مجردا وقد يذكر مقرونا بالعمل أو بالإسلام فإذا ذكر مجردا تناول الأعمال كما في الصحيحين الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق وفيهما انه قال لو فد عبد القيس أمركم بالإيمان بالله أتدرون ما الإيمان بالله شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن تؤدوا خمس ما غنمتم وإذا ذكر مع الإسلام كما في حديث جبريل أنه سأل النبي عن الإيمان والإسلام والإحسان فرق بينهما فقال الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله إلى آخره وفي المسند عن النبي الإسلام علانية والإيمان في القلب فلما ذكرها جميعا ذكر أن الإيمان في القلب والإسلام ما يظهر من الأعمال وإذا أفرد الإيمان أدخل فيه الأعمال الظاهرة لأنها لوازم ما في القلب لأنه متى ثبت الإيمان في القلب والتصديق بما أخبر به الرسول وجب حصول مقتضى ذلك ضرورة فإنه ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وقلبات لسانه فإذا ثبت التصديق في القلب لم يتخلف العمل بمقتضاه ألبتة فلا تستقر معرفة تامة ومحبة صحيحة ولا يكون لها اثر في الظاهر ولهذا ينفي الله الإيمان عن من إنتفت عنه لوازمه فإن إنتفاء اللازم يقتضى إنتفاء الملزوم كقوله تعالى {وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا أَوْلِيَاءَ} المائدة ٨١ وقوله {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} المجادلة ٢٢ الآية ونحوها فالظاهر والباطن متلازمان لا يكون الظاهر مستقيما إلا مع إستقامة الباطن وإذا إستقام الباطن فلا بد ان يستقيم الظاهر ولهذا قال النبي ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد الا وهي القلب وقال عمر لمن

رآه يعبث في صلاته لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه وفي الحديث لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم لسانه ولا يستقيم لسانه حتى يستقيم قلبه ولهذا كان الظاهر لازماً للباطن من وجه وملزوماً له من وجه وهو دليل عليه من جهة كونه ملزوماً لا من جهة كونه لازماً فإن الدليل ملزوم المدلول يلزم من وجود الدليل ووجود المدلول ولا يلزم من وجود الشيء وجود ما يدل عليه والدليل يطرد ولا وينعكس بخلاف الحد فإنه يطرد وينعكس وتنازعا في العلة هل يجب طردها بحيث تبطل بالتخصيص والإنتقاص والصواب أن لفظ العلة يعبر به عن العلة التامة وهو مجموع ما يستلزم الحكم فهذه يجب طردها ويعبر به عن المقتضى للحكم الذي يتوقف إقتضائه على ثبوت الشروط وإنتفاء الموانع فهذه إذا تخلف الحكم عنها لغير ذلك بطلت وكذلك تنازعا في إنعكاسها وهو أنه هل يلزم من عدم الحكم عدمها فقل لا يجب إنعكاسها لجواز تعليل الحكم بعلمتين وقيل يجب الإنعكاس لأن الحكم متى ثبت مع عدمها لم تكن مؤثرة فيه بل كان غنياً عنها وعدم التأثير مبطل للعلة وكثير من الناس يقول بأن عدم التأثير يبطل العلة ويقول بأن العكس ليس بشرط فيها وآخرون يقولون هذا تناقض والتحقيق في هذا أن العلة إذا عدت عدم الحكم المتعلق بها بعينه لكن يجوز وجود مثل ذلك الحكم بعلة أخرى فإذا وجد ذلك الحكم بدون علة أخرى علم أنها عديمة التأثير وبطلت وأما إذا وجد نظير ذلك الحكم بعلة أخرى كان نوع ذلك الحكم معللاً بعلمتين وهذا جائز كما إذا قيل في المرأة المرتدة كفرت بعد إسلامها فتقتل قياساً على الرجل لقول النبي لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله إلا بإحدى ثلاث رجل كفر بعد إسلامه أو زنى بعد إحصانه أو قتل نفساً فقتل بها فإذا قيل له لا تأثير لقولك كفر بعد إسلامه فإن الرجل يقتل بمجرد الكفر وحينئذ فالمرأة لا تقتل بمجرد الكفر فيقول هذه علة ثابتة بالنص وقوله من بدل دينه فاقتلوه وأما الرجل فما قتلته لمجرد كفره بل لكفره وجراءته ولهذا لا أقتل من كان عاجزاً عن القتال كالشيخ الهرم ونحوه وإما الكفر بعد الإسلام فعلة أخرى مبيحة للدم ولهذا قتل بالردة من كان عاجزاً عن القتال كالشيخ الكبير وهذا قول مالك وأحمد وإن كان ممن يرى أن مجرد الكفر يبيح القتال كالشافعي قال الكفر وحدة علة والكفر بعد الإسلام علة أخرى وليس هذا موضع بسط هذه الأمور وإنما تنبه عليها والمقصود أن لفظ الإيمان تختلف دلالاته بالإطلاق والإقتران فإذا ذكر مع العمل أريد به أصل الإيمان المقتضى للعمل وإذا ذكر وحده دخل فيه لوازم ذلك الأصل وكذلك إذا ذكر بدون الإسلام كان الإسلام جزءاً منه وكان كل مسلم مؤمناً فإذا ذكر لفظ الإسلام مع الإيمان تميز أحدهما عن الآخر كما في حديث جبريل وكما في قوله تعالى { إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ الْأَحْزَابِ ٣٥ } ولهذا نظائر كلفظ المعروف والمنكر والعدل والإحسان وغير ذلك ففي قوله { يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } آل عمران ١٠٤ يدخل في لفظ المعروف كل مأمور به وفي لفظ المنكر كل منهي عنه وفي قوله تعالى { إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ الْعَنَكِبُوتِ ٤٥ } جعل الفحشاء غير المنكر وقوله { وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ } النحل ٩٠ جعل الفحشاء والبيغى غير المنكر وإذا قيل هذا من باب عطف الخاص على العام والعام على الخاص فلنناس هنا قولان منهم من يقول الخاص دخل في العام وخص بالذكر فقد ذكر مرتين ومنهم من يقول تخصيصه بالذكر يقتضى أنه لم يدخل في العام وقد يعطف الخاص على العام كما في قوله { وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ } البقرة ٩٨ وقوله { وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ } الأحزاب ١٧ الآية وقد يعطف العام على الخاص كما في قوله تعالى { وَأَوْرَثْنَاكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَّوُّوها } الأحزاب ٢٧ وأصل الشبهة في الإيمان أن القائلين أنه لا يتبعض قالوا أن الحقيقة المركبة من أمور متى ذهب بعض اجزائها إنتفت تلك الحقيقة كالعشرة المركبة من آحاد فلو قلنا إنه يتبعض لزم زوال بعض الحقيقة مع بقاء بعضها فيقال لهم إذا زال بعض أجزاء المركب تزول الهيئة الاجتماعية الحاصلة بالتركيب لكن لا يلزم أن يزول سائر الأجزاء والإيمان المؤلف من الأقوال الواجبة والأعمال الواجبة الباطنة والظاهرة هو المجموع الواجب الكامل وهذه الهيئة الاجتماعية تزول بزوال بعض الأجزاء وهذه هي المنفية في الكتاب والسنة في مثل قوله لا يزنى الزانى البخ وعلى ذلك جاء قوله تعالى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا } الحجرات ١٥ الآيات ولكن لا يلزم أن تزول سائر الأجزاء ولا أن سائر الأجزاء الباقية لا تكون من الإيمان بعد زوال بعضه كما أن واجبات الحج من الحج الواجب الكامل وإذا زالت زال هذا الكمال ولم يزل سائر الحج وكذلك الإنسان الكامل يدخل في مسماه أعضاؤه كلها ثم لو قطعت يده ورجلاه لم يخرج عن إسم الإنسان وإن كان قد زال منه بعض ما يدخل في الإسم الكامل وكذلك لفظ الشجرة والباب والبيت والحائط وغير ذلك يتناول المسمى في حال كمال اجزائه بعد ذهاب بعض اجزائه وبهذا تزول الشبهة التي أوردتها الرازى ومن إتبعه كالأصبهاني وغيره على الشافعي فإن مذهبه في ذلك مذهب جمهور أهل الحديث والسلف وقد اعترض هؤلاء بهذه الشبهة الفاسدة على السلف والإيمان يتفاضل من جهة الشارع فليس ما أمر الله به كل عبد هو

ما أمر الله به غيره ولا الإيمان الذي يجب على كل عبد يجب على غيره بل كانوا في أول الإسلام يكون الرجل مؤمنا كامل الإيمان مستحقا للثواب إذا فعل ما أوجبه الله عليه ورسوله وإن كان لم يقع منه التصديق المفصل بما لم ينزل من القرآن ولم يصم رمضان ولم يحج البيت كما أن من آمن في زمننا هذا إيمانا تاما ومات قبل دخول وقت صلاة عليه مات مستكملا للإيمان الذي وجب عليه كما أنه مستحق للثواب على إيمانه ذلك وأما بعد نزول ما نزل من القرآن وإيجاب ما أوجبه الله ورسوله من الواجبات وتمكن من فعل ذلك فإنه لا يكون مستحقا للثواب بمجرد ما كان يستحق به الثواب قبل ذلك فلذلك يقول هؤلاء لم يكن هذا مؤمنا بما كان به مؤمنا قبل ذلك وهذا لأن الإيمان الذي شرع لهذا اعظم من الإيمان الذي شرع لهذا وكذلك المستطيع الحج يجب عليه ما لا يجب على العاجز عنه وصاحب المال يجب عليه من الزكاة ما لا يجب على الفقير ونظائره متعددة وأما تفاصيله من جهة العبد فتارة يقوم هذا من الإقرار والعمل بأعظم مما يقوم به هذا وكل أحد يعلم أن ما في القلب من الأمور يتفاضل حتى ان الإنسان يجد نفسه أحيانا أعظم حبا لله ورسوله وخشية لله ورجاء لرحمته وتوكلا عليه وإخلاصا منه في بعض الأوقات وكذلك المعرفة والتصديق تتفاضل في اصح القولين وهذا اصح الروايتين عن احمد وقد قال غير واحد من الصحابة كعمر بن حبيب الخطمي وغيره الإيمان يزيد وينقص فإذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فتلك زيادته وإذا غفلنا ونسينا وضيعا فذلك نقصانه ولهذا سن الإستثناء في الإيمان فإن كثير من السلف من الصحابة والتابعين وغيرهم إستثنوا في الإيمان وآخرون أنكروا الإستثناء فيه وقالوا هذا شك والذين إستثنوا فيه منهم من أوجبه ومنهم من لم يوجبه بل جوز تركه باعتبار حالتين وهذا اصح الأقوال وهذان القولان في مذهب أحمد وغيره فمن إستثنى لعدم علمه بانه غير قائم بالواجبات كما امر الله ورسوله فقد أحسن وكذلك من إستثنى لعدم علمه بالعاقبة وكذلك من إستثنى تعليقا للأمر بمشيئة الله تعالى لا شكاً ومن جزم بما هو في نفسه في هذه الحال كمن يعلم من نفسه أنه شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فجزم بما هو متيقن حصوله في نفسه فهو محسن في ذلك وكثير من منازعات الناس في مسائل الإيمان ومسائل الأسماء والأحكام هي منازعات لفظية فإذا فصل الخطاب زال الإرتياب والله سبحانه أعلم بالصواب^١

" ليس الايمان بالتمنى ولا بالتحلى "

وأما أهل السنة فقد يقول بعضهم (ان الايمان) هو منقول كالأسماء الشرعية من الصلاة والزكاة وقد يقول بعضهم بل هو متروك على ما كان وزادت عليه الشريعة أشياء ومنهم من يقول بل هو باق على أصله من التصديق مع دخول الأعمال فيه فإن الأعمال داخلة في التصديق فالمؤمن يصدق قوله بعمله كما قال الحسن البصري ليس الايمان بالتمنى ولا بالتحلى ولكن ما وفر في القلب وصدقه العمل ومنه قول النبي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه ومنهم من يقول ليس الايمان في اللغة هو التصديق بل هو الاقرار وهو في الشرع الاقرار أيضا والاقرار يتناول القول والعمل وليس هذا موضع بسط ذلك فقد بسطته في غير هذا الموضع وإذا عرف مسمى الايمان فعند ذكر استحقاق الجنة والنجاة من النار ودم من ترك بعضه ونحو ذلك يراد به الايمان الواجب كقوله **{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ نَمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } الحجرات ١٥** وقوله **{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } الأنفال ٢** الآية وقوله **{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ } النور ٦٢** وقوله في الجنة **{ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ } الحديد ٢١** وقوله **{ لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن } ففني عنه الايمان الواجب الذي يستحق به الجنة ولا يستلزم ذلك نفي أصل الايمان وسائر اجزائه وشعبه وهذا معنى قولهم نفي كمال الايمان لا حقيقته أي الكمال الواجب ليس هو الكمال المستحب المذكور في قول الفقهاء الغسل كامل ومجزئ ومن هذا الباب قوله من غشنا فليس منا ليس المراد به أنه كافر كما تأولته الخوارج ولا أنه ليس من خيارنا**

^١مجموع الفتاوى ج: ١٨ ص: ٢٦٨-٢٧٩

كما تأولته المرجئة ولكن المضمّر يطابق المظهر والمظهر هو المؤمنون المستحقون للثواب السالمون من العذاب والغاش ليس منا لأنه متعرض لسخط الله وعذابه وإذا تبين هذا فمن ترك بعض الايمان الواجب لعجزه عنه إما لعدم تمكنه من العلم مثل أن لا تبلغه الرسالة أو لعدم تمكنه من العمل لم يكن مأموراً بما يعجز عنه ولم يكن ذلك من الايمان والدين الواجب في حقه وإن كان من الدين والايان الواجب في الأصل بمنزلة صلاة المريض والخائف والمستحاضة وسائر أهل الاعذار الذين يعجزون عن إتمام الصلاة فإن صلاتهم صحيحة بحسب ما قدروا عليه وبه أمروا إذ ذاك وإن كانت صلاة القادر على الاتمام أكمل وأفضل كما قال النبي المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف في كل خير رواه مسلم عن أبي هريرة في حديث حسن السياق وقوله صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم وصلاة النائم على النصف من صلاة القاعد ولو أمكنه العلم به دون العمل لوجب الايمان به علماً واعتقاداً دون العمل^١

الايان المطلق مستلزم للأعمال

وإذا ذكر اسم الايمان مجرداً دخل فيه الاسلام والأعمال الصالحة كقوله في حديث الشعب الايمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا اله الا الله وأدناها امطة الأذى عن الطريق وكذلك سائر الأحاديث التي يجعل فيها أعمال البر من الايمان ثم أن نفى الايمان عند عدمها دل على أنها واجبة وان ذكر فضل ايمان صاحبها ولم ينف ايمانه دل على أنها مستحبة فان الله ورسوله لا ينفى اسم مسمى أمر الله به ورسوله الا اذا ترك بعض واجباته كقوله لا صلاة الا بأمر القرآن وقوله لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له ونحو ذلك فأما اذا كان الفعل مستحباً في العبادة لم ينفها لانتفاء المستحب فان هذا لو جاز لجاز أن ينفى عن جمهور المؤمنين اسم الايمان والصلاة والزكاة والحج لأنه ما من عمل الا وغيره أفضل منه وليس أحد يفعل أفعال البر مثل ما فعلها النبي بل ولا أبو بكر ولا عمر فلو كان من لم يأت بكمالها المستحب يجوز نفيها عنه لجاز ان ينفى عن جمهور المسلمين من الأولين والآخرين وهذا لا يقوله عاقل فمن قال أن المنفى هو الكمال فان أراد أنه نفى الكمال الواجب الذي يذم تاركه ويتعرض للعقوبة فقد صدق وان أراد أنه نفى الكمال المستحب فهذا لم يقع قط في كلام الله ورسوله ولا يجوز أن يقع فان من فعل الواجب كما وجب عليه ولم ينتقص من واجبه شيئاً لم يجز ان يقال ما فعله لا حقيقة ولا مجازاً فاذا قال للأعرابي المسيء في صلاته ارجع فصل فانك لم تصل وقال لمن صلى خلف الصف وقد امره بالاعادة لا صلاة لفض خلف الصف كان لترك واجب وكذلك قوله تعالى **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}** الحجرات ١٥ يبين أن الجهاد واجب وترك الارتياب واجب والجهاد وان كان فرضاً على الكفاية فجميع المؤمنين يخاطبون به ابتداء فعليهم كلهم اعتقاد وجوبه والعزم على فعله اذا تعين ولهذا قال النبي من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة نفاق رواه مسلم فأخبر أنه من لم يهجم به كان على شعبة نفاق وايضا فالجهاد جنس تحته انواع متعددة ولا بد ان يجب على المؤمن نوع من انواعه وكذلك قوله تعالى **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا دُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}** {٢} الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ {٣} الأنفال ٢- ٣ هذا كله واجب فان التوكل على الله واجب من أعظم الواجبات كما أن الاخلاص لله واجب وحب الله ورسوله واجب وقد أمر الله بالتوكل في غير آية أعظم مما أمر بالوضوء والغسل من الجنابة ونهى عن التوكل على غير الله قال تعالى **{ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ}** هود ١٢٣ وأما قوله **{ الَّذِينَ إِذَا دُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}** {٢} الانفال ٢ فيقال من أحوال القلب وأعماله ما يكون من لوازم الايمان الثابتة فيه بحيث اذا كان الانسان مؤمناً لزم ذلك بغير قصد منه ولا تعمد له^٢

^١ مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ٤٧٧-٤٧٩

^٢ مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٤-١٦

فان قيل اذا كان المؤمن حقا هو الفاعل للواجبات التارك للمحرمات فقد قال {أَوْلَيْكَ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا { الأنفال ٤ ولم يذكر الا خمسة أشياء وكذلك قال في الآية الأخرى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ { الحجرات ١٥ وكذلك قوله {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ {النور ٦٢ قيل عن هذا جوابان أحدهما أن يكون ما ذكر مستلزما لما ترك فانه ذكر وجل قلوبهم اذا ذكر الله وزيادة ايمانهم اذا تليت عليهم آياته مع التوكل عليه واقام الصلاة على الوجه المأمور به باطنا وظاهرا وكذلك الانفاق من المال والمنافع فكان هذا مستلزما للباقي فان وجل القلب عند ذكر الله يقتضى خشيته والخوف منه وقد فسروا { وَجَلَّتْ { الأنفال ٢ بفرقت وفي قراءة ابن مسعود اذا ذكر الله فرقت قلوبهم وهذا صحيح فان الوجل في اللغة هو الخوف يقال حمرة الخجل وصفرة الوجل ومنه قوله تعالى {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ {المؤمنون ٦٠ قالت عائشة يا رسول الله هل الرجل يزنى ويسرق ويخاف أن يعاقب قال لا يا ابنة الصديق هو الرجل يصلى ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه وقال السدى في قوله تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ { الأنفال ٢ هو الرجل يريد أن يظلم او يهيم بمعصية فينزاع عنه وهذا كقوله تعالى {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَىٰ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ {٤٠} فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ {٤١} { النزاعات ٤٠-٤١ وقوله {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ {الرحمن ٤٦ قال مجاهد وغيره من المفسرين هو الرجل يهيم بالمعصية فيذكر مقامه بين يدي الله فيتركها خوفا من الله واذا كان وجل القلب من ذكره يتضمن خشيته ومخافته فذلك يدعو صاحبه الى فعل المأمور وترك المحذور قال سهل بن عبد الله ليس بين العبد وبين الله حجاب اغلظ من الدعوى ولا طريق اليه اقرب من الافتقار واصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله ويدل على ذلك قوله تعالى {وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَىٰ الْعُضْبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسُخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَزْهَبُونَ {الأعراف ١٥٤ فأخبر ان الهدى والرحمة للذين يرهبون الله قال مجاهد وابراهيم هو الرجل يريد ان يذنب الذنب فيذكر مقام الله فيدع الذنب رواه ابن ابي الدنيا عن ابن الجعد عن شعبة عن منصور عنهما في قوله تعالى {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ {الرحمن ٤٦} ١

ومما يدل من القرآن على أن الايمان المطلق مستلزم للأعمال قوله تعالى {إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ {السجدة ١٥ فنفي الايمان عن غير هؤلاء فمن كان اذا ذكر بالقرآن لا يفعل ما فرضه الله عليه من السجود لم يكن من المؤمنين وسجود الصلوات الخمس فرض باتفاق المسلمين وأما سجود التلاوة ففيه نزاع وقد يحتج بهذه الآية من يوجبها لكن ليس هذا موضع بسط هذه المسألة فهذه الآية مثل قوله {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ { الحجرات ١٥ وقوله {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ { الأنفال ٢ وقوله {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوا {النور ٦٢ ومن ذلك قوله تعالى {عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ {٤٣} لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ {٤٤} إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ {٤٥} التوبة ٤٣-٤٥ وهذه الآية مثل قوله {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ {المجادلة ٢٢ وقوله {وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا هُمُ أَوْلِيَاءَ {المائدة ٨١ بين سبحانه أن الايمان له لوازم وله أصداد موجودة تستلزم ثبوت لوازمه وانتفاء اصداده ومن اصداده موادة من حاد الله ورسوله ومن اصداده استئذانه في ترك الجهاد ثم صرح بأن استئذانه انما يصدر من الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ودل قوله { وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ {٤٤} التوبة ٤٤ على أن المتقين هم المؤمنون ومن هذا الباب قوله لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن وقوله لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه وقوله لا تؤمنوا حتى تحابوا وقوله لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من ولده ووالده والناس أجمعين وقوله لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه وقوله من غشنا فليس منا ومن حمل علينا السلاح فليس منا ٢

^١مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٩

^٢مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٠-١٦١

لا يلزم من كون إيمانه ناقصا عن الواجب أن يكون باطلا حابطا

فان الايمان وان كان اسما لدين الله الذى أكمله بقوله { **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ** } المائدة ٣ وهو اسم لطاعة الله وللبر وللعمل الصالح وهو جميع ما أمر الله به فهذا هو الايمان الكامل التام وكماله نوعان كمال المقربين وهو الكمال بالمستحب وكمال المقتصدين وهو الكمال بالواجب فقط وإذا قلنا فى مثل قول النبي لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا إيمان لمن لا أمانة له وقوله { **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ** } الأنفال ٢ الآية وقوله { **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** } الحجرات ١٥ وقوله { **لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ** } البقرة ١٧٧ الآية الى قوله { **أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** } البقرة ١٧٧ إذا قال القائل فى مثل هذا ليس بمؤمن كامل الايمان أو نفى عنه كمال الايمان لا أصله فالمراد به كمال الايمان الواجب ليس بكمال الايمان المستحب كمن ترك رضى الجمار أو ارتكب محظورات الإحرام غير الوطىء ليس هذا مثل قولنا غسل كامل ووضوء كامل وأن المجزئ منه ليس بكامل ذلك نفى الكمال المستحب وكذا المؤمن المطلق هو المؤدى للايمان الواجب ولا يلزم من كون إيمانه ناقصا عن الواجب أن يكون باطلا حابطا كما فى الحج ولا أن يكون معه الايمان الكامل كما تقوله المرجئة ولا أن يقال ولو أدى الواجب لم يكن إيمانه كاملا فان الكمال المنفى هنا الكمال المستحب^١

الايمان قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح

فالتوحيد والإشراك يكون فى أقوال القلب ويكون فى أعمال القلب ولهذا قال الجنيد التوحيد قول القلب والتوكل عمل القلب اراد بذلك التوحيد الذى هو التصديق فإنه لما قرنه بالتوكل جعله أصله واذا افرد لفظ التوحيد فهو يتضمن قول القلب وعمله والتوكل من تمام التوحيد وهذا كلفظ الايمان فانه اذا افرد دخلت فيه الاعمال الباطنة والظاهرة وقيل الايمان قول وعمل اى قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق عليه الايمان بضع وستون شعبة اعلاها قول لا اله الا الله وادناها اماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الايمان ومنه قوله تعالى { **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** } الحجرات ١٥ وقوله { **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** } {٢} الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } {٣} { **أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا** } {٤} { **الْأَنْفَالُ ٢ - ٤** } وقوله { **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوا** } {النور ٦٢} و الايمان المطلق يدخل فيه الاسلام كما فى الصحيحين عن النبي انه قال لوفد عبد القيس أمركم بالايمان بالله اتدرون ما الايمان بالله شهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة ووان تؤدوا خمس ما غنمتم ولهذا قال من قال من السلف كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنا واما اذا قرن لفظ الايمان بالعمل او بالاسلام فانه يفرق بينهما كما فى قوله تعالى { **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** } البقرة ٢٧٧ وهو فى القرآن كثير وكما فى قول النبي فى الحديث الصحيح لما سأله جبريل عن الاسلام والايمان والاحسان فقال الاسلام ان تشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت قال فما الايمان قال ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره قال فما الاحسان قال ان تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك ففرق فى هذا النص بين الاسلام و الايمان لما قرن بين الاسمين وفى ذلك النص ادخل الاسلام فى الايمان لما افرد بالذكر وكذلك لفظ العمل فان الاسلام المذكور هو من العمل والعمل الظاهر هو

^١مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ٢٩٣

موجب ايمان القلب ومقتضاه فاذا حصل ايمان القلب حصل ايمان الجوارح ضرورة وايمان القلب لا بد فيه من تصديق القلب وانقياده والا فلو صدق قلبه بان محمدا رسول الله وهو يبغضه ويحسده ويستكبر عن متابعته لم يكن قد آمن قلبه و الايمان وان تضمن التصديق فليس هو مرادفا له فلا يقال لكل مصدق بشيء انه مؤمن به فلو قال انا اصدق بان الواحد نصف الاثنين وان السماء فوقنا والأرض تحتنا ونحو ذلك مما يشاهده الناس ويعلمونه لم يقل لهذا انه مؤمن بذلك بل لا يستعمل الا فيمن اخبر بشيء من الأمور الغائبة كقول اخوة يوسف { وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا } يوسف ١٧ فانهم اخبروه بما غاب عنه وهم يفرقون بين من آمن له وآمن به فالاول يقال للمخبر والثاني يقال للمخبر به كما قال اخوة يوسف { وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا } يوسف ١٧ وقال تعالى { فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ } يونس ٨٣ وقال تعالى { وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤَدُّونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أَدْنَىٰ قُلُوبِ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ } التوبة ٦١ ففرق بين ايمانه بالله وايمانه للمؤمنين لان المراد يصدق المؤمنين اذا اخبروه واما ايمانه بالله فهو من باب الاقرار به ومنه قوله تعالى عن فرعون وملأته { أَنْتُمْ لِبَشَرِينَ مِثْلِنَا } المؤمنون ٤٧ اى نقر لهما ونصدقهما ومنه قوله { أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } البقرة ٧٥ ومنه قوله تعالى { فَأَمَّا لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي } العنكبوت ٢٦ ومن المعنى الآخر قوله تعالى { يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ } البقرة ٣ وقوله { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهِ } البقرة ٢٨٥ وقوله { لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولَؤُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ } البقرة ١٧٧ اى اقر بذلك ومثل هذا فى القرآن كثير و المقصود هنا ان لفظ الايمان انما يستعمل فى بعض الاخبار وهو مأخوذ من الأمن كما ان الاقرار مأخوذ من قر فالمؤمن صاحب امن كما ان المقر صاحب اقرار فلا بد فى ذلك من عمل القلب بموجب تصديقه فاذا كان عالما بان محمدا رسول الله ولم يفترن بذلك حبه وتعظيمه بل كان يبغضه ويحسده ويستكبر عن اتباعه فان هذا ليس بمؤمن به بل كافر به ومن هذا الباب كفر ابليس وفرعون واهل الكتاب الذين يعرفونه كما يعرفون ابناءهم وغير هؤلاء فان ابليس لم يكذب خيرا ولا مخبرا بل استكبر عن امر ربه وفرعون وقومه قال الله فيهم { وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَوْتَنَّتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا } النمل ١٤ وقال له موسى { لَقَدْ عَلِمْتُمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ } الإسراء ١٠٢ وقال تعالى { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ } البقرة ١٤٦ فمجرد علم القلب بالحق ان لم يفترن به عمل القلب بموجب علمه مثل محبة القلب له واتباع القلب له لم ينفع صاحبه بل اشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول اللهم انى اعوذ بك من علم لا ينفع ونفس لا تشبع ودعاء لا يسمع وقلب لا يخشع ولكن الجهمية ظنوا ان مجرد علم القلب وتصديقه هو الايمان وان من دل الشرع على انه ليس بمؤمن فان ذلك يدل على عدم علم قلبه وهذا من اعظم الجهل شرعا وعقلا وحقيقته توجب التسوية بين المؤمن والكافر ولهذا اطلق وكيع بن الجراح واحمد بن حنبل وغيرهما من الأئمة كفرهم بذلك فانه من المعلوم ان الانسان يكون عالما بالحق ويبغضه لغرض آخر فليس كل من كان مستكبرا عن الحق يكون غير عالم به وحينئذ فالايمان لا بد فيه من تصديق القلب وعمله وهذا معنى قول السلف الايمان قول وعمل ثم انه اذا تحقق القلب بالتصديق والمحبة التامة المتضمنة للارادة لزم وجود الأفعال الظاهرة فان الارادة الجازمة اذا اقترنت بها القدرة التامة لزم وجود المراد قطعا وانما ينتفى وجود الفعل لعدم كمال القدرة او لعدم كمال الارادة والاف مع كمالها يجب وجود الفعل الاختيارى فاذا اقر القلب اقرارا تاما بان محمدا رسول الله واحبه محبة تامة امتنع مع ذلك ان لا يتكلم بالشهادتين مع قدرته على ذلك لكن ان كان عاجزا لخرس ونحوه او الخوف ونحوه لم يكن قادرا على النطق بهما و ابو طالب وان كان عالما بان محمدا رسول الله وهو محب له فلم تكن محبته له لمحبتته الله بل كان يحبه لأنه ابن اخيه فيحبه للقرابة واذا احب ظهوره فلما يحصل له بذلك من الشرف والرئاسة فأصل محبوبه هو الرئاسة فهذا لما عرض عليه الشهادتين عند الموت رأى ان بالاقرار بهما زوال دينه الذى يحبه فكان دينه احب اليه من ابن اخيه فلم يقر بهما فلو كان يحبه لأنه رسول الله كما كان يحبه ابو بكر الذى قال الله فيه { وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى } { ١٧ } الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى } { ١٨ } وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْرَى } { ١٩ } إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى } { ٢٠ } وَأَسْوَفَ لَبِئْسَ الَّذِي يَرْتَدَّى } { ٢١ } الليل ١٧-٢١ وكما كان يحبه سائر المؤمنين به كعمر وعثمان وعلى غيرهم لنطق بالشهادتين قطعا فكان حبه حبا مع الله لا حبا لله ولهذا لم يقبل الله ما فعله من نصر الرسول وموازرتة لأنه لم يعمل لله والله لا يقبل من العمل الا ما اريد به وجهه بخلاف الذى فعل ما فعل ابتغاء وجه ربه الأعلى وهذا مما يحقق ان الايمان والتوحيد لا بد فيهما من عمل القلب كحب القلب فلا بد من اخلاص الدين لله والدين لا يكون دينا الا بعمل فان الدين يتضمن الطاعة

والعبادة وقد انزل الله عز وجل سورتي الاخلاص قل يا ايها الكافرون قل هو الله احد احدهما في توحيد القول والعلم والثانية في توحيد العمل والارادة فقال في الأول { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ } { ١ } { اللَّهُ الصَّمَدُ } { ٢ } { لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ } { ٣ } { وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ } { ٤ } { الاخلاص ١-٤ } فأمره ان يقول هذا التوحيد وقال في الثاني { قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ } { ١ } { لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ } { ٢ } { وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ } { ٣ } { وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ } { ٤ } { وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ } { ٥ } { لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ } { ٦ } الكافرون ١-٦ فأمره ان يقول ما يوجب البراءة من عباده غير الله واخلاص العبادة لله

تحقيق الايمان بالأعمال الظاهرة والباطنة

ولفظ الإيمان قيل أصله التصديق وليس مطابقا له لابد بل ان يكون تصديقا عن غيب وإلا فالخبر عن مشهود ليس تصديقه إيمانا لأنه من الأمن الذي هو الطمأنينة وهذا انما يكون في المخبر الذي قد يقع فيه ريب والمشهودات لا ريب فيها الا على هذا فأما تصديق القلب فقط كما تقول الجهمية ومن إتبعهم من الأشعرية وإما القلب واللسان كما تقوله المرجئة أو باللسان كما تقوله الكرامية وإما التصديق بالقلب والقول والعمل فان الجميع يدخل في مسمى التصديق على مذهب أهل الحديث كما فسره شيخ الاسلام وغيره وقيل بل هو الاقرار لان التصديق انما يطابق الخبر فقط واما الاقرار فيطابق الخبر والامر كقوله { أَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا عَلَىٰ آلِ عِمْرَانَ ٨١ } ولأن قر وأمن متقاربان فالإيمان دخول في الامن والاقرار دخول في الإقرار وعلى هذا فالكلمة إقرار والعمل بها إقرار أيضا ثم هو في الكتاب بمعنيين أصل وفرع واجب فالأصل الذي في القلب وراء العمل فلهذا يفرق بينهما بقوله { آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } البقرة ٢٥ والذي يجمعهما كما في قوله { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ } الحجرات ١٥ و { لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ } التوبة ٤٤ وحد الحيا و وفد عبد القيس وهو مركب من أصل لا يتم بدونه ومن واجب ينقص بفواته نقصا يستحق صاحبه العقوبة ومن مستحب يفوت بفواته علو الدرجة فالناس فيه ظالم لنفسه ومقتصد وسابق كالحج وكالبدن والمسجد وغيرهما من الأعيان والأعمال والصفات فمن سواء أجزائه ما اذا ذهب نقص عن الاكمل ومنه ما نقص عن الكمال وهو ترك الواجبات أو فعل المحرمات ومنه ما نقص ركنه وهو ترك الاعتقاد والقول الذي يزعم المرجئة والجهمية أنه مسمى فقط وبهذا تزول شبهات الفرق وأصله القلب وكمال العمل الظاهر بخلاف الإسلام فإن أصله الظاهر وكمال القلب في الصحيحين عن النبي أنه قال الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان فذكر أعلا شعب الإيمان وهو قول لا إله إلا الله فإنه لا شيء أفضل منها كما في الموطأ وغيره عن النبي أنه قال أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير وفي الترمذي وغيره أنه قال من مات وهو يعلم أن لا اله الا الله دخل الجنة وفي الصحيح عنه أنه قال لعنه عند الموت يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله وقد تظاهرت الدلائل على أن أحسن الحسنات هو التوحيد كما أن أسوأ السيئات هو الشرك وهو الذنب الذي لا يغفره الله كما قال تعالى { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } النساء ١١٦ وتلك الحسنة التي لا بد من سعادة صاحبها كما ثبت في الصحيح عنه حديث الموجبتين موجبة السعادة وموجبة الشقاوة فمن مات يشهد أن لا اله الا الله دخل الجنة وأما من مات يشرك بالله شيئا دخل النار وذكر في الحديث أنها أعلا شعب الإيمان وفي الصحيحين عنه أنه قال لو فد عبد القيس أمرم بالإيمان بالله أتدرون ما الإيمان بالله شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله وتقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة وتؤدوا خمس المغنم فجعل هذه الأعمال من الإيمان وقد جعلها من الإسلام في حديث جبرائيل الصحيح لما أتاه في صورة أعرابي وسأله عن الإيمان فقال الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت

١١ مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٢٦٨ - ٢٧٤ و الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٣٢٢ - ٣٢٣

وتؤمن بالقدر خيره وشره وسأله عن الاسلام فقال أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت وفي حديث في المسند قال الإسلام علانية والإيمان في القلب فأصل الإيمان في القلب وهو قول القلب وعمله وهو إقرار بالتصديق والحب والانقياد وما كان في القلب فلا بد أن يظهر موجبه ومقتضاه على الجوارح وإذا لم يعمل بموجبه ومقتضاه دل على عدمه أو ضعفه ولهذا كانت الأعمال الظاهرة من موجب ايمان القلب ومقتضاه وهي تصديق لما في القلب ودليل عليه وشاهد له وهي شعبة من مجموع الإيمان المطلق وبعض له لكن ما في القلب هو الأصل لما على الجوارح كما قال أبو هريرة رضي الله عنه أن القلب ملك والاعضاء جنوده فان طاب الملك طابت جنوده وإذا خبت الملك خبت جنوده وفي الصحيحين عنه أنه قال ان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح لها سائر الجسد واذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب ولهذا ظن طوائف من الناس أن الايمان انما هو في القلب خاصة وما على الجوارح ليس داخلا في مسماه ولكن هو من ثمراته ونتائجه الدالة عليه حتى ال الامر بغلاتهم كجهم وأتباعه الى أن قالوا يمكن ان يصدق بقلبه ولا يظهر بلسانه الا كلمة الكفر مع قدرته على اظهارها فيكون الذي في القلب إيمانا نافعا له في الآخرة وقالوا حيث حكم الشارع بكفر أحد بعمل أو قول فلكونه دليلا على إنتفاء ما في القلب وقولهم متناقض فانه اذا كان ذلك دليلا مستلزما لانتهاء الايمان الذي في القلب امتنع أن يكون الإيمان ثابتا في القلب مع الدليل المستلزم لنفيه وان لم يكن دليلا لم يجز الاستدلال به على الكفر الباطن والله سبحانه في غير موضع يبين أن تحقيق الايمان وتصديقه بما هو من الأعمال الظاهرة والباطنة كقوله {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} {٢} الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} {٣} {الأنفال ٢- ٣} وقال {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} {الحجرات ١٥} وقال تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ} {النور ٦٢} وقال تعالى {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} {النساء ٦٥} فإذا قال القائل هذا يدل على أن الايمان ينتفي عند انتفاء هذه الأمور لا يدل على أنها من الايمان قيل هذا اعتراف بأنه ينتفي الإيمان الباطن مع عدم مثل هذه الأمور الظاهرة فلا يجوز أن يدعي أنه يكون في القلب إيمان ينافي الكفر بدون أمور ظاهرة لا قول ولا عمل وهو المطلوب وذلك تصديق وذلك لأن القلب اذا تحقق ما فيه أثر في الظاهر ضرورة لا يمكن انفكاك أحدهما عن الآخر فالإرادة الجازمة للفعل مع القدرة التامة توجب وقوع المقذور فاذا كان في القلب حب الله ورسوله ثابتا استلزم موالاة أوليائه ومعاداة أعدائه {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ} {المجادلة ٢٢} {ولَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا أَوْلِيَاءَ} {المائدة ٨١} فهذا التلازم أمر ضروري ومن جهة ظن انتفاء التلازم غلط غلطون كما غلط آخرون في جواز وجود إرادة جازمة مع القدرة التامة بدون الفعل حتى تنازعوا هل يعاقب على الإرادة بلا عمل وقد بسطنا ذلك في غير هذا الموضوع وبيننا أن الهمة التي لم يقترن بها فعل ما يقدر عليه الهام ليست إرادة جازمة وان الإرادة الجازمة لا بد أن يوجد معها ما يقدر عليه العبد والعفو وقع عن من هم بسيئة ولم يفعلها لا عن من أراد وفعل المقذور عليه وعجز عن حصول مراده كالذي أراد قتل صاحبه فقاتله حتى قتل أحدهما فان هذا يعاقب لأنه أراد وفعل المقذور من المراد ومن عرف الملازمات التي بين الأمور الباطنة والظاهرة زالت عنه شبهات كثيرة في مثل هذه المواضع التي كثر اختلاف الناس فيها بقي أن يقال فهل اسم الإيمان للأصل فقط أو له ولفروعه والتحقق أن الإسم المطلق يتناولهما وقد يخص الإسم وحده بالإسم مع الإقتران وقد لا يتناول إلا الأصل اذا لم يخص إلا هو كإسم الشجرة فإنه يتناول الأصل والفرع إذا وجدت ولو قطعت الفروع لكان إسم الشجرة يتناول الأصل وحده وكذلك اسم الحج هو اسم لكل ما يشرع فيه من ركن وواجب ومستحب وهو حج أيضا تام بدون المستحبات وهو حج ناقص بدون الواجبات التي يجبرها دم والشارع لا ينفي الايمان عن العبد لترك مستحب لكن لترك واجب بحيث ترك ما يجب من كماله وتمامه لا بانتفاء ما يستحب في ذلك ولفظ الكمال والتمام قد يراد به الكمال الواجب والكمال المستحب كما يقول بعض الفقهاء الغسل ينقسم الى كامل ومجزئ فاذا قال النبي لا إيمان لمن لا أمانة له و لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ونحو ذلك كان لانتهاء بعض ما يجب فيه لا لانتهاء الكمال المستحب والايمان يتبع بعض ويتفاضل الناس فيه كالحج والصلاة ولهذا قال يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ومثقال شعيرة من إيمان وأما إذا استعمل إسم الإيمان مقيدا كما في قوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} {البقرة ٢٧٧} وقوله {الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} {يونس ٦٣} وقول النبي صلى الله عليه

وسلم الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت ونحو ذلك فهنا قد يقال إنه متناول لذلك وان عطف ذلك عليه من باب عطف الخاص على العام كقوله تعالى { وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ } البقرة ٩٨ وقوله { وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ } الأحزاب ٧^١

قال الله تعالى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } الأنفال ٢ وقال { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } الحجرات ١٥ وقال { فَرَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ } آل عمران ١٧٣ وقال { لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ } الفتح ٤ وقال { فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } التوبة ١٢٤ وقال النبي الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق وقال لوفد عبدالقيس أمركم بالإيمان بالله أتدرون ما الإيمان بالله شهادة أن لا إله إلا الله وأن تؤدوا خمس ما غنمتم وأجمع السلف أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص ومعنى ذلك أنه قول القلب وعمل القلب ثم قول اللسان وعمل الجوارح فأما قول القلب فهو التصديق الجازم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ويدخل فيه الإيمان بكل ما جاء به الرسول ثم الناس في هذا على أقسام منهم من صدق به جملة ولم يعرف التفصيل ومنهم من صدق جملة وتفصيلا ثم منهم من يدوم استحضاره وذكره لهذا التصديق ومنهم من يغفل عنه ويذهل ومنهم من استبصر فيه بما كذب الله في قلبه من النور والإيمان ومنهم من جزم به لدليل قد تعترض فيه شبهة أو تقليد جازم وهذا التصديق يتبعه عمل القلب وهو حب الله ورسوله وتعظيم الله ورسوله وتعزير الرسول وتوقيره وخشية الله والانباء إليه والاخلاص له والتوكل عليه الى غير ذلك من الأحوال فهذه الأعمال القلبية كلها من الإيمان وهي مما يوجبها التصديق والاعتقاد ايجاب العلة المعلول ويتبع الاعتقاد قول اللسان ويتبع عمل القلب الجوارح من الصلاة والزكاة والصوم والحج ونحو ذلك^٢

الفرع يستمد من أصله والأصل يثبت ويقوى بفرعه

قال تعالى { وَادْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ } ص ٤٥ فوصفهم بالقوة في العمل والبصيرة في العلم وأصل القوة قوة القلب الموجبة لمحبة الخير وبغض الشر فإن المؤمن قوته في قلبه وضعفه في جسمه والمنافق قوته في جسمه وضعفه في قلبه فالإيمان لا بد فيه من هذين الأصلين التصديق بالحق والمحبة له فهذا أصل القول وهذا أصل العمل ثم الحب التام مع القدرة يستلزم حركة البدن بالقول والظاهر والعمل الظاهر ضرورة كما تقدم فمن جعل مجرد العلم والتصديق موجبا لجميع ما يدخل في مسمي الإيمان وكل ما سمي إيمانا فقد غلط بل لا بد من العلم والحب والعلم شرط في محبة المحبوب كما أن الحياة شرط في العلم لكن لا يلزم من العلم بالشيء والتصديق بثبوته محبته إن لم يكن بين العالم والمعلوم معنى في المحب أحب لأجله ولهذا كان الإنسان يصدق بثبوت أشياء كثيرة ويعلمها وهو يبغضها كما يصدق بوجود الشياطين والكفار ويبغضهم ونفس التصديق بوجود الشيء لا يقتضي محبته لكن الله سبحانه يستحق لذاته أن يحب ويعبد وأن يحب لأجله رسوله والقلوب فيها معنى يقتضي حبه وطاعته كما فيها معنى يقتضي العلم والتصديق به فمن صدق به وبرسوله ولم يكن محبا له ولرسوله لم يكن مؤمنا حتى يكون فيه مع ذلك الحب له ولرسوله وإذا قام بالقلب التصديق به والمحبة له لزم ضرورة أن يتحرك البدن بموجب ذلك من الأقوال الظاهرة والأعمال الظاهرة فما يظهر على البدن من الأقوال والأعمال هو موجب ما في القلب ولازمه ودليله ومعلوله كما أن ما يقوم بالبدن من الأقوال والأعمال له أيضا تأثير فيما في القلب فكل منهما

^١ مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٦٤٣-٦٤٧

^٢ مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٦٧١-٦٧٦

يؤثر في الآخر لكن القلب هو الأصل والبدن فرع له والفرع يستمد من أصله والأصل يثبت ويقوى بفرعه كما في الشجرة التي يضرب بها المثل لكلمة الإيمان قال تعالى { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ {٢٤} تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا } {٢٥} إبراهيم ٢٤ وهي كلمة التوحيد والشجرة كلما قوي أصلها وعرق وروي قويت فروعها وفروعها أيضا إذا اعتدت بالمطر والريح أثر ذلك في أصلها وكذلك الإيمان في القلب و الإسلام علانية ولما كانت الأقوال والأعمال الظاهرة لازمة ومستلزمة للأقوال والأعمال الباطنة كان يستدل بها عليها كما في قوله تعالى { لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ {المجادلة ٢٢} فأخبر أن من كان مؤمنا بالله واليوم الآخر لا يوجدون موادين لأعداء الله ورسوله بل نفس الإيمان ينافي مودتهم فإذا حصلت المادة دل ذلك على خلل الإيمان وكذلك قوله { تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لُبِيسٌ مَّا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ } {٨٠} ولَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا آبَاءَهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِن كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ } {٨١} المائدة ٨٠ - ٨١ وكذلك قوله { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } الحجرات ١٥ فأخبر تعالى أن هؤلاء هم الصادقون في قولهم آمنا ودل ذلك على أن الناس في قولهم آمنا صادق وكاذب والكاذب فيه نفاق بحسب كذبه قال تعالى في المنافقين { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ } {٨} البقرة ٨ إلى قوله { وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ } {١٠} البقرة ١٠ وفي يكذبون قرأتان مشهورتان وفي الحديث أساس النفاق الذي يبني عليه الكذب وقال تعالى { إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ } المنافقون ١ وقال تعالى { وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لِنِئَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنُصَدِّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ } {٧٥} فَلَمَّا آتَاهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ بَخُلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ } {٧٦} فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ } {٧٧} التوبة ٧٥-٧٧ وقال { وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ } التوبة ٥٨ ومثل هذا كثير و بالجملة فلا يستريب من تدبر ما يقول في أن الرجل لا يكون مؤمنا بمجرد تصديق في القلب مع بغضه لله ولرسوله وإستكباره عن عبادته ومعاداته له ولرسوله ١

حصر المؤمنين فيمن آمن وجاهد

كشف الله في سورة التوبة احوال المنافقين ووصفهم فيها بالجبن وترك الجهاد ووصفهم بالبخل عن النفقة في سبيل الله والشح على المال وهذان داءان عظيمان الجبن والبخل قال النبي شر ما في المرء شح هالع وجبن خالع حديث صحيح ولهذا قد يكونان من الكبائر الموجبة للنار كما دل عليه قوله { وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } آل عمران ١٨٠ وقال تعالى { وَمَنْ يُؤْلَمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَفَدَّ بَاءَ بَعْضِ مِّنَ اللَّهِ وَمَا وَاهُ جَهَنَّمَ وَيُسَّ الْمَصِيرُ } الأنفال ١٦ واما وصفهم بالجبن والفرع فقال تعالى في سورة محمد { فَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَطَرَ الْعَشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِي لَهُمْ } محمد ٢٠ اي فبعدا لهم {طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ } محمد ٢١ وقال تعالى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } الحجرات ١٥ فحصر المؤمنين فيمن آمن وجاهد ٢

لا بد لمحِب الله من متابعة الرسول والمجاهدة

^١ مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٥٤١-٥٤٣

^٢ مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٤٣٥

وقد قال تعالى {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} التوبة ٢٤ فأخبر أن من كانت محبوباته أحب إليه من الله ورسوله والجهاد في سبيله فهو من أهل الوعيد وقال في الذين يحبهم ويحبونه { فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ } المائدة ٥٤ فلا بد لمحبة الله من متابعة الرسول و المجاهدة في سبيل الله بل هذا لازم لكل مؤمن قال تعالى { **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** } الحجرات ١٥ فهذا حب المؤمن لله وأما المحبة الشركية فليس فيها متابعة للرسول ولا بغض لعدوه و مجاهدة له كما يوجد في اليهود و النصراني و المشركين يدعون محبة الله و لا يتابعون الرسول و لا يجاهدون عدوه و كذلك أهل البدع المدعون للمحبة لهم من الإعراض عن إتباع الرسول بحسب بدعتهم و هذا من حبههم لغير الله و تجدهم من أبعد الناس عن موالاته أولياء الرسول و معاداة أعدائه و الجهاد في سبيله لما فيهم من البدع التي هي شعبة من الشرك^١

أكد الله ايجاب الجهاد وعظم أمره

فالعقوبة على ترك الواجبات وفعل المحرمات هو مقصود الجهاد في سبيل الله وهو واجب على الأمة واجب على الأمة بالاتفاق كما دل عليه الكتاب والسنة وهو من افضل الأعمال قال رجل يارسول الله دلني على عمل يعدل الجهاد في سبيل الله قال لا تستطيعه او لا تستطيعه قال أخبرني به قال هل تستطيع اذا خرج المجاهد ان تصوم ولا تقطر وتقوم ولا تفتر قال ومن يستطيع ذلك قال فذلك الذي يعدل الجهاد في سبيل الله وقال إن في الجنة لمنة درجة بين الدرجة الى الدرجة كما بين السماء والأرض أعدها الله للمجاهدين في سبيله كلاهما في الصحيحين وقال النبي رأس الأمر الاسلام وعموده الصلاة وذروره سنامه الجهاد في سبيل الله وقال الله تعالى { **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** } الحجرات ١٥ وقال تعالى { **أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** } ١٩ { **الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ** } ٢٠ { **يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ** } ٢١ { **خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنْ اللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ** } ٢٢ { التوبة ١٩-٢٢ }^٢

فكل من بلغته دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى دين الله الذي بعثه به فلم يستجب له فإنه يجب قتاله حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله وكان الله لما بعث نبيه وأمره بدعوة الخلق إلى دينه لم يأذن له في قتل أحد على ذلك ولا قتاله حتى هاجر إلى المدينة فأذن له وللمسلمين بقوله تعالى أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ثم إنه بعد ذلك أوجب عليهم القتال بقوله تعالى { **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** } البقرة ٢١٦ وأكد الايجاب وعظم أمر الجهاد في عامة السور المدنية ودم التاركين له ووصفهم بالنفاق ومرض القلوب فقال تعالى { **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** } الحجرات ١٥ وقال تعالى { **وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَى لَهُمْ** } ٢٠ { **طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ** } ٢١ { **فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ** } محمد ٢٠-٢٢ فهذا كثير

^١ مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٣٦٤-٣٦٥

^٢ مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٣٠٨-٣٠٩ و السياسة الشرعية ج: ١ ص: ٦٥

في القرآن وكذلك تعظيمه وتعظيم وأهله في سورة الصف التي يقول فيها { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ } { ١٠ } { تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } { ١١ } { يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } { ١٢ } { وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشْرُ الْمُؤْمِنِينَ } { ١٣ } الصف ١٠-١٣

والأمر بالجهاد وذكر فضائله في الكتاب والسنة أكثر من أن يحصر ولهذا كان أفضل ما تطوع به الإنسان وكان باتفاق العلماء أفضل من الحج والعمرة ومن الصلاة التطوع والصوم التطوع كما دل عليه الكتاب والسنة حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد وقال ان في الجنة لمائة درجة ما بين الدرجة والدرجة كما بين السماء والارض أعدها الله للمجاهدين في سبيله متفق عليه وقال من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار رواه البخاري وقال صلى الله عليه وسلم رباط يوم وليلة في سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه وإن مات أجرى عليه عمله الذي كان يعمله وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان رواه مسلم وفي السنن رباط يوم في سبيل الله خير من الف يوم فيما سواه من المنازل وقال عيان لا تمسها النار عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله قال الترمذي حديث حسن وفي مسند الامام احمد حرس ليلة في سبيل الله أفضل من ألف ليلة يقام ليلاً ويصام نهارها وفي الصحيحين ان رجلاً قال يارسول الله أخبرني بشئ يعدل الجهاد في سبيل الله قال لا تستطيع قال أخبرني به قال هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تصوم لا تفتقر قال لا قال فذلك الذي يعدل الجهاد وفي السنن انه قال إن لكل أمة سياحة وسياحة أمتي الجهاد في سبيل الله وهذا باب واسع لم يرد في ثواب الأعمال وفضلها مثل ما ورد فيه وهو ظاهر عند الاعتبار فان نفع الجهاد عام لفاعله ولغيره في الدين والدنيا ومشتمل على جميع أنواع العبادات الباطنة والظاهرة فانه مشتمل من محبة الله تعالى والاخلاص له والتوكل عليه وتسليم النفس والمال له والصبر والزهد وذكر الله سائر أنواع الأعمال على ما لا يشتمل عليه عمل آخر والقائم به من الشخص والأمة بين إحدى الحسينيين دائماً إما النصر والظفر وإما الشهادة والجنة فان الخلق لا بد لهم من محيا وممات ففيه استعمال محياهم ومماتهم في غاية سعادتهم في الدنيا والآخرة وفي تركه ذهاب السعادتين أو نقصهما فان من الناس من يرغب في الأعمال الشديدة في الدين أو الدنيا مع قلة منفعتها فالجهاد أنفع فيهما من كل عمل شديد وقد يرغب في ترفيه نفسه حتى يصادفه الموت فموت الشهيد أيسر من كل ميتة وهي أفضل الميتات وإذا كان أصل القتال المشروع هو الجهاد ومقصودة هو ان يكون الدين كله لله وان تكون كلمة الله هي العليا فمن امتنع من هذا قوتل باتفاق المسلمين واما من لم يكن من أهل الممانعة والمقاتلة كالنساء والصبيان والراهب والشيخ الكبير والأعمى والزمن ونحوهم فلا يقتل عند جمهور العلماء إلا ان يقاتل بقوله او فعله وإن كان بعضهم يرى إباحة قتل الجميع لمجرد الكفر إلا النساء والصبيان لكونهم مالا للمسلمين والأول هو الصواب لأن القتال هو لمن يقاتلنا إذا أردنا إظهار دين الله كما قال الله تعالى { وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُفَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْنَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } البقرة ١٩٠ وفي السنن عنه أنه مر على امرأة مقتولة في بعض مغازيه قد وقف عليها الناس فقال ماكانت هذه لتقاتل وقال لأحدهم إحق خالدا فقل له لا تقتلوا ذرية ولا عسيفا وفيهما أيضا عنه أنه كان يقول لا تقتلوا شيخا فانيا ولا طفلا صغيرا ولا امرأة وذلك ان الله تعالى أباح من قتل النفوس ما يحتاج اليه في صلاح الخلق كما قال تعالى { وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ } البقرة ٢١٧ أي ان القتل وإن كان فيه شر وفساد ففي فتنة الكفار من الشر والفساد ما هو أكبر منه فمن لم يمنع المسلمين من إقامة دين الله لم تكن مضرة كفره إلا على نفسه ولهذا قال الفقهاء إن الداعية إلى البدع المخالفة للكتاب والسنة يعاقب بما لا يعاقب به الساكت وجاء في الحديث أن الخطيئة إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها ولكن إذا ظهرت فلم تنكر ضرت العامة ولهذا أوجب الشريعة قتال الكفار ولم توجب قتل المقذور عليهم منهم بل إذا أسر الرجل منهم في القتال او غير القتال مثل ان تلقيه السفينة إلينا او يضل الطريق او يؤخذ بحيلة فانه يفعل فيه الامام الأصلح من قتله او استعباده او المن عليه او مفاداته بمال او نفس عند أكثر الفقهاء كما دل عليه الكتاب والسنة وإن كان من الفقهاء من يرى المن عليه ومفاداته منسوخا^١

^١ مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٣٥٠-٣٥٥ و السياسة الشرعية ج: ١ ص: ١٠١

الجهاد بالنفس يكون باللسان و باليد

قال تعالى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } الحجرات ١٥ ان الله سبحانه قال في كتابه { وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } التوبة ٤١ الاية والجهاد بالنفس يكون باللسان كما يكون باليد بل قد يكون اقوى منه قال النبي جاهدوا المشركين بايديكم والسنتكم واموالكم رواه النسائي وغيره وكان يقول لحسان بن ثابت اغزهم وغازهم وكان ينصب له منبرا في المسجد ينافح عن رسول الله بشعره وهجائه للمشركين وقال النبي اللهم ايد به روح القدس وقال ان جبريل معك ما دمت تنافح عن رسوله وقال هي انكى فيهم من النبل وكان عدد من المشركين يكفون عن اشياء مما يؤذي المسلمين خشية هجاء حسان حتى ان كعب بن الاشرف لما ذهب الى مكة كان كلما نزل عند اهل بيت هجاهم حسان بقصيدة فيخرجونه من عندهم حتى لم يبقى له بمكة من يؤويه وفي الحديث افضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر وافضل الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل تكلم بحق عند سلطان جائر فامر به فقتل^١

ترك الجهاد هو دليل النفاق

ان الجهاد من موجب محبة الله ورسوله فإن مقصود الجهاد تحصيل ما أحبه الله ودفع ما أبغضه الله ترك الجهاد لعدم المحبة التامة وهو دليل النفاق فمن لم يكن فيه داع إلى الجهاد فلم يأت بالمحبة الواجبة قطعاً كان فيه نفاق كما قال تعالى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } الحجرات ١٥ وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي أنه قال من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات علي شعبة من نفاق وكذلك جمع بينهما في قوله تعالى { أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } ١٩ { الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ } ٢٠ { يُبَسِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ } ٢١ { خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ } ٢٢ { التوبة ١٩-٢٢ } فقرنه بالمحبة في الآيتين من قوله { قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تُرَضُّونَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ } التوبة ٢٤ وفي قوله تعالى { فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ } المائدة ٥٤ فأخبر أن القوم الذين يحبهم الله ورسوله هم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم كما قال تعالى في الآية الأخرى { أَشِدَاءَ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ } الفتح ٢٩ فوصفهم بالذلة والرحمة لأوليائهم إخوانهم والعزة والشدة على أعدائهم وأنهم يجاهدون في سبيل الله والجهاد من الجهد وهو الطاقة وهو أعظم من الجهد الذي هو المشقة فإن الضم اقوي من الفتح وكلما كانت الحروف أو الحركات اقوي كان المعني اقوي ولهذا كان الجرح اقوي من الجرح فإن الجرح هو المجروح نفسه وهو غير الجرح مصدر وهو فعل وكذلك الكره والمكره والمكره كما قال تعالى { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ } البقرة ٢١٦ وقال تعالى { وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا } الرعد ١٥ فالجهاد نهاية الطاقة والقدرة قال تعالى { وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ } التوبة ٧٩ وفي الحديث أفضل الصدقة جهد من مقل يسره إلي فقير ولهذا قال النبي الجهاد سنام العمل فإنه أعلى الإرادات في نهاية القدرة وهذا هو أعلى ما يكون من الإيمان كالسنام الذي هو أعلى ما في البعير وقد يكون بمشقة وقد لا يكون وأما الجهد فهو المشقة وإن لم يكن تمام القدرة فالجهاد في سبيل الله تعالى من الجهد وهي المغالبة في سبيل الله بكمال القدرة والطاقة فيتضمن شيئين أحدهما استقراغ الوسع والطاقة والثاني أن يكون ذلك في تحصيل محبوبات الله ودفع مكروهاته والقدرة والإرادة بهما يتم الأمر^٢

^١ الصارم المسلول ج: ٢ ص: ٣٨٨-٣٩١

^٢ قاعدة في المحبة ج: ١ ص: ٩٣-٩٥

أمير الحرب هو إمام الصلاة

أعلم أن الله تعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وأكمل لأمة الدين وأتم عليهم النعمة وجعله على شريعة من الأمر وأمره أن يتبعها ولا يتبع سبيل الذين لا يعلمون وجعل كتابه مهيمنا على ما بين يديه من الكتب ومصداق لها وجعل له شرعة ومنهاجا وشرع لأمة سنن الهدى ولن يقوم الدين إلا بالكتاب والميزان والحديد كتاب يهدى به وحديد ينصره كما قال تعالى {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيُقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ} الحديد ٢٥ فالكتاب به يقوم العلم والدين والميزان به تقوم الحقوق في العقود المالية والقبوض والحديد به تقوم الحدود على الكافرين والمنافقين ولهذا كان في الأزمان المتأخرة الكتاب للعلماء والعباد والميزان للوزراء والكتاب وأهل الديوان والحديد للأمراء والأجناد والكتاب له الصلاة والحديد له الجهاد ولهذا كان أكثر الآيات والأحاديث النبوية في الصلاة والجهاد وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في عيادة المريض اللهم اشف عبدك يشهد لك صلاة وينكأ لك عدوا وقال عليه السلام رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذرورة سنامه الجهاد في سبيل الله ولهذا جمع بينهما في مواضع من القرآن كقوله تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} الحجرات ١٥ والصلاة أول أعمال الإسلام وأصل أعمال الإيمان ولهذا سماها إيمانا في قوله {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ} البقرة ١٤٣ أى صلاتكم إلى بيت المقدس هكذا نقل عن السلف وقال تعالى {أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ} التوبة ١٩ وقال {فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} المائدة ٥٤ فوصفهم بالمحبة التي هي حقيقة الصلاة كما قال {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا} الفتح ٢٩ فوصفهم بالشدّة على الكفار والضلال وفي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل أى العمل أفضل قال إيمان بالله و جهاد في سبيله فقيل ثم ماذا قال ثم حج مبرور مع قوله في الحديث الصحيح لما سأله ابن مسعود أى العمل أفضل قال الصلاة في وقتها قال ثم ماذا قال بر الوالدين قال ثم ماذا قال الجهاد في سبيل الله فإن قوله إيمان بالله دخل فيه الصلاة ولم يذكر في الأول بر الوالدين إذ ليس لكل أحد والدان فالأول مطلق والثانى مقيد بمن له والدان ولهذا كانت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر خلفائه الراشدين ومن سلك سبيلهم من ولاة الأمور في الدولة الأموية والعباسية أن الإمام يكون إماما في هذين الأصلين جميعا الصلاة والجهاد فالذى يؤمهم في الصلاة يؤمهم في الجهاد وأمر الجهاد والصلاة واحد في المقام والسفر وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا استعمل رجلا على بلد مثل عتاب بن أسيد على مكة و عثمان بن أبى العاص على الطائف وغيرهما كان هو الذي يصلى بهم ويقوم الحدود وكذلك إذا استعمل رجلا على مثل غزوة كاستعماله زيد بن حارثة وابنه أسامة وعمر بن العاص وغيرهم كان أمير الحرب هو الذي يصلى بالناس ولهذا استدل المسلمون بتقديمه أبا بكر في الصلاة على أنه قدمه في الإمامة العامة وكذلك كان أمراء الصديق كيزيد بن أبى سفيان وخالد بن الوليد و شريحيل بن حسنة وعمر بن العاص وغيرهم أمير الحرب هو إمام الصلاة وكان نواب عمر بن الخطاب كاستعماله على الكوفة عمار بن ياسر على الحرب والصلاة وابن مسعود على القضاء وبيت المال و عثمان بن حنيف على الخراج ومن هنا أخذ الناس ولاية الحرب وولاية الخراج و ولاية القضاء فإن عمر بن الخطاب هو أمير المؤمنين فلما انتشر المؤمنون وغلبوا الكافرين على البلاد وفتحوها واحتاجوا إلى زيارة في الترتيب و وضع لهم الديوان ديوان الخراج للمال المستخرج و ديوان العطاء و النفقات للمال المصروف و مصر لهم الأمصار فمصر الكوفة والبصرة و مصر الفسطاط فإنه لم يؤثر أن يكون بينه وبين جند المسلمين نهر عظيم كدجلة والفرات والنيل فجعل هذه الأمصار مما يليه فصل وكانت مواضع الأئمة و مجامع الأمة هي المساجد فإن النبي صلى الله عليه وسلم أسس مسجده المبارك على

التقوي ففيه الصلاة و القراءة و الذكر و تعليم العلم و الخطب و فيه السياسة و عقد الألوية و الرايات و تأمير الأمراء و تعريف العرفاء و فيه يجتمع المسلمون عنده لما أهمهم من أمر دينهم و دنياهم^١

أهل الصبر والشكر

والقسم الممدوح هم الذين يدعونه و يتوبون اليه و يثبتون على عبادته و التوبة اليه في حال السراء فيعبدونه و يطيعونه في السراء و الضراء و هم أهل الصبر و الشكر كما ذكر ذلك عن أنبيائه عليهم السلام فقال تعالى {وَذَا النُّونِ إِذ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} {٨٧} فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ} {٨٨} الأنبياء ٨٧- ٨٨ وقال تعالى عن المؤمنين الذين قتل نبيهم {وَكَايِنٌ مِّنْ نَّبِيِّ قَاتَل مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} {١٤٦} وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَنَبِّئْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} {١٤٧} فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسُنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} {١٤٨} آل عمران ١٤٦-١٤٨ وقوله { قَاتِلْ } آل عمران ١٤٦ أي النبي قتل هذا أصح القولين و قوله { مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ } آل عمران ١٤٦ جملة في موضع الخبر صفة للنبي صفة بعد صفة أي كم من نبي معه ربيون كثير قتل و لم يقتلوا معه فانه كان يكون المعنى أنه قتل و هم معه و المقصود أنه كان معه ربيون كثير و قتل في الجملة و أولئك الربيون {فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} آل عمران ١٤٦ و الربيون الجموع الكثيرة و هم الألواف الكثيرة وهذا المعنى هو الذي يناسب سبب النزول و هو ما أصابهم يوم أحد لما قيل إن محمدا قد قتل و قد قال قبل ذلك {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} آل عمران ١٤٤ و هي التي تلاها أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوم مات النبي صلى الله عليه و سلم و قال من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات و من كان يعبد الله فان الله حي لا يموت فانه عند قتل النبي و موته تحصل فتنة عظيمة للناس المؤمنين و الكافرين و تحصل ردة و نفاق لضعف قلوب أتباعه لموته و لما يليه الشيطان في قلوب الكافرين إن هذا قد انقضى أمره و ما بقى يقول دينه و انه لو كان نبيا لما قتل و غلب و نحو ذلك فأخبر الله تعالى أنه كم من نبي قتل فان بنى اسرائيل كثيرا من الأنبياء و النبي معه ربيون كثير أتباع له و قد يكون قتله في غير حرب و لا قتال بل يقتل و قد اتبعه ربيون كثير فما وهن المؤمنون لما أصابهم بقتله و ما ضعفوا و ما استكانوا و الله يحب الصابرين و لكن استغفروا لذنوبهم التي بها تحصل المصائب فما أصابهم من سيئة فمن أنفسهم و سألو الله أن يغفر لهم و أن يثبت أقدامهم فيثبتهم على الايمان و الجهاد لئلا يرتابوا و لا ينكلوا عن الجهاد قال تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} {الحجرات ١٥}

الجهاد تمام الايمان و سنام العمل

و الجهاد تمام الايمان و سنام العمل كما قال تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} {الحجرات ١٥} وقال {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} آل عمران ١١٠ الآية وقال {أَجْعَلْنَاهُ سَفَايَةَ الْحَاجِّ} التوبة ١٩ الآية فذلك يكون هذا الجزاء في حق المجاهدين كما قال تعالى {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} {العنكبوت ٦٩} فهذا في العلم والنور وقال {وَلَوْ أَنَا كُنْتُنَا عَلَيْهِمْ

^١ ب مجموع الفتاوى ج: ٣٥ ص: ٣٦- ٣٩

^٢ مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٣٧٣- ٣٧٥

أَنْ أَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ { النساء ٦٦ الى قوله { وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا { النساء ٦٨ فقتل النفوس هو قتل بعضهم بعضا وهو من الجهاد والخروج من ديارهم هو الهجرة ثم اخبر أنهم اذا فعلوا ما يوعظون به من الهجرة والجهاد كان خيرا لهم واشد تثبيتا ففي الآية أربعة أمور الخير المطلق والتثبيت المتضمن للقوة والمكنة والاجر العظيم وهداية الصراط المستقيم وقال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَتَّصِرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ { محمد ٧ وقال { وَيَتَّصِرَنَّ اللَّهُ مِنَ يَتَّصِرُهُ { الحج ٤٠ الى قوله { وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ { الحج ٤١ وقال { يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ { المائدة ٥٤^١

وفي الصحيحين أنه قال ثلاث من كن فيه فقد وجد حلاوة الإيمان وفي لفظ لا يجد حلاوة الإيمان إلا من كان فيه ثلاث خصال أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار وقد قال الله تعالى { قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ { التوبة ٢٤ فلم يرض منهم أن يكون حبه الله ورسوله كحب الأهل والمال وأن يكون حب الجهاد في سبيله كحب الأهل والمال بل حتى يكون الجهاد في سبيله الذي هو تمام حبه وحب رسوله أحب إليهم من الأهل والمال فهذا يقتضي أن يكون حبه الله ورسوله مقدما على كل محبة ليس عندهم شيء يحبونه كحب الله بخلاف المشركين وان يكون الجهاد في سبيله أحب إليهم من الأهل والمال فإن ذلك هو تمام الإيمان الذي ثوابه حب الله ورسوله كما قال تعالى قال تعالى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا { الحجرات ١٥ إيماننا لا يكون بعده ريب قال تعالى { وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ { الحجرات ١٥^٢

ولهذا وصف الله المحبين له الذين يحبهم هو بالجهاد فقال تعالى { مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ { المائدة ٥٤^٣

طريقة القرآن الإنكار بالقلب واللسان قبل الإنكار باليد

والله سبحانه قد أمرنا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأمر بالشيء مسبوق بمعرفته فمن لا يعلم المعروف لا يمكنه النهي عنه وقد أوجب الله علينا فعل المعروف وترك المنكر فإن حب الشيء وفعله وبغض ذلك وتركه لا يكون إلا بعد العلم بهما حتى يصح القصد إلى فعل المعروف وترك المنكر فإن ذلك مسبوق بعلمه فمن لم يعلم الشيء لم يتصور منه حب له ولا بغض ولا فعل ولا ترك لكن فعل الشيء والأمر به يقتضى أن يعلم علما مفصلا يمكن معه فعله والأمر به إذا أمر به مفصلا ولهذا أوجب الله على الإنسان معرفة ما أمر به من الواجبات مثل صفة الصلاة والصيام والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا أمر بأوصاف فلا بد من العلم بثبوتها فكما أنا لا تكون مطيعين إذا علمنا عدم الطاعة فلا نكون مطيعين إلا إذا لم نعلم وجودها بل الجهل بوجودها كالعلم بعدمها وكون كل منهما معصية فإن الجهل بالتساوى كالعلم بالتفاضل في بيع الأموال الربوية بعضها بجنسه فإن لم نعلم المماثلة كان كما لو علمنا المفاضلة وأما معرفة ما يتركه وينهى عنه فقد يكتفى بمعرفته في بعض المواضع مجملا فالإنسان يحتاج إلى معرفة المنكر وإنكاره وقد يحتاج إلى الحجج المبنية لذلك وإلى الجواب عما يعارض به أصحابها من الحجج وإلى دفع أهوائهم وإرادتهم وذلك يحتاج إلى إرادة جازمة وقدرة على ذلك وذلك لا يكون إلا بالصبر كما قال تعالى { وَالْعَصْرِ { ١ } إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ { ٢ } { إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ { ٣ } العصر ١-٣ وأول ذلك أن تذكر الأقوال والأفعال على وجه الذم لها والنهي عنها وبيان ما فيها من الفساد فإن الإنكار بالقلب واللسان قبل الإنكار باليد وهذه طريقة القرآن فيما يذكره

^١ مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٤٠١-٤٠٢

^٢ الاستقامة ج: ١ ص: ٢٦٤

^٣ قاعدة في المحبة ج: ١ ص: ٥٢

تعالى عن الكفار والفساق والعصاة من أقوالهم وأفعالهم يذكر ذلك على وجه الذم والبغض لها ولأهلها وبيان فسادها وضدها والتحذير منها كما أن فيما يذكره عن أهل العلم والإيمان ومن فيهم من أنبيائه وأوليائه على وجه المدح والحب وبيان صلاحه ومنفعته والترغيب فيه وذلك نحو قوله تعالى { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ } {الأنبياء ٢٦} { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا } {٨٨} { لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا } {٨٩} { تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَّقَطِرْنَ مِنْهُ وَتَنْشِقُ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا } {٩٠} { أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا } {٩١} { وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا } {٩٢} { إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا } {٩٣} { لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا } {٩٤} { وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا } {٩٥} مريم ٨٨-٩٥ { وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّى ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ } {التوبة ٣٠} الآيات وهذا كثير جدا فالذى يحب أقوالهم وأفعالهم هو منهم إما كافر وإما فاجر بحسب قوله وفعله وليس منهم من هو بعكسه وليس عليه عذاب فى تركه لكنه لا يثاب على مجرد عدم ذلك وإنما يثاب على قصده لترك ذلك وإرادته وذلك مسبوق بالعلم بقبح ذلك وبغضه لله وهذا العلم والقصد والبغض هو من الإيمان الذى يثاب عليه وهو ادنى الإيمان كما قال النبى من رأى منكم منكرا فليغيره بيده إلى آخره وتغيير القلب يكون بالبغض لذلك وكراهته وذلك لا يكون إلا بعد العلم به وبقبحه ثم بعد ذلك يكون الإنكار باللسان ثم يكون باليد والنبى قال وذلك أضعف الإيمان فيمن رأى المنكر فأما إذا رآه فلم يعلم أنه منكر ولم يكرهه ولم يكن هذا الإيمان موجودا فى القلب فى حال وجوده ورؤيته بحيث يجب بغضه وكراهته والعلم بقبحه يوجب جهاد الكفار والمنافقين إذا وجدوا وإذا لم يكن المنكر موجودا لم يجب ذلك ويثاب من أنكره عند وجوده ولا يثاب من لم يوجد عنده حتى ينكره وكذلك ما يدخل فى ذلك من الأقوال والأفعال المنكرات قد يعرض عنها كثير من الناس إعراضهم عن جهاد الكفار والمنافقين وعن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فهؤلاء وإن كانوا من المهاجرين الذين هجروا السيئات فليسوا من المجاهدين الذين يجاهدون فى إزالتها حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فتدبر هذا فإنه كثيرا ما يجتمع فى كثير من الناس هذان الأمران بغض الكفر وأهله وبغض الفجور وأهله وبغض نهيهم وجهادهم كما يجب المعروف وأهله ولا يجب أن يأمر به ولا يجاهد عليه بالنفس والمال وقد قال تعالى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } {الحجرات ١٥} وقال تعالى { قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تُرَضُّوْنَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } {التوبة ٢٤} وقوله { لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } {المجادلة ٢٢} وكثير من الناس بل أكثرهم كراحتهم للجهاد على المنكرات اعظم من كراحتهم للمنكرات لا سيما إذا كثرت المنكرات وقويت فيها الشبهات والشهوات فربما مالوا إليها تارة وعنها أخرى فتكون نفس أحدهم لوامة بعد أن كانت أمانة ثم إذا ارتقى إلى الحال الأعلى فى هجر السيئات وصارت نفسه مطمئنة تاركة للمنكرات والمكروهات لا تحب الجهاد ومصابرة العدو على ذلك وإحتمال ما يؤذيه من الأقوال والأفعال فإن هذا شىء آخر داخل فى قوله { أَلَمْ نَرِ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً } {النساء ٧٧} الآيات إلى قوله { وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا } {النساء ٨٥} والشفاعة الإعانة إذ المعين قد صار شفيعا للمعان فكل من أعان على بر أو تقوى كان له نصيب منه ومن أعان على الإثم والعدوان كان له كفل منه وهذا حال الناس فيما يفعلونه بقلوبهم وألسنتهم وأيديهم من الإعانة على البر والتقوى والإعانة على الإثم والعدوان ومن ذلك الجهاد بالنفس والمال على ذلك من الجانبين كما قال تعالى قبل ذلك { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثَبَاتًا أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا } {النساء ٧١} إلى قوله { إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا } {النساء ٧٦} ^١

الجهاد بالمال مقدم على الجهاد بالنفس

قال تعالى { **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** } الحجرات ١٥ والجهاد بالمال مقدم على الجهاد بالنفس كما في قوله تعالى { **وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** } التوبة ٤١ وقوله { **الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ** } التوبة ٢٠ الآية وقوله { **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** } الأنفال ٧٢ وذلك لأن الناس يقاتلون دون أموالهم فإن المجاهد بالمال قد أخرج ماله حقيقة لله والمجاهد بنفسه لا يرجو النجاة لا يوافق أنه يقتل في الجهاد ولهذا أكثر القادرين على القتال يهون على أحدهم أن يقاتل ولا يهون عليه إخراج ماله^١

المنافق تختلف سريرته وعلانيته

وان المنافق لا بد أن تختلف سريرته وعلانيته وظاهره وباطنه ولهذا يصفهم الله في كتابه بالكذب كما يصف المؤمنين بالصدق قال تعالى { **وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** بما كانوا يكذبون } البقرة ١٠ وقال { **وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ** } المنافقون ١ وأمثال هذا كثير وقال تعالى { **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** } الحجرات ١٥ وقال { **لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ** } البقرة ١٧٧ الى قوله { **أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** } البقرة ١٧٧^٢

النية عمل القلب فلم يشرع اظهارها باللسان

وقد قال احمد في رواية أبو داود و سألته هو قبل التكبير تقول شيئاً قال لا و حملته بعض اصحابنا على أنه ليس قبل التكبير ذكر مشروع و كلام احمد عام في الذكر و اللفظ بالنية و ذلك لأن النية محض عمل القلب فلم يشرع اظهارها باللسان لقوله سبحانه { **قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** } الحجرات ١٦ و فاعل ذلك يعلم الله بدينه الذي في قلبه و لهذا قال العلماء في قوله { **إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لُجُوهَ اللَّهِ** } الإنسان ٩ لم يقوله بالسنتهم و إنما علمه الله من قلوبهم و لهذا لم يستحبوا ان يتلفظ بنية الاخلاص و لأن التلفظ بذلك لم ينقل عن النبي صلى الله عليه و سلم و لا عن اصحابه و لا عن أحد من التابعين لهم باحسان و معلوم ان ذلك لو كان مستحباً لفعوله و علموه و امروا به و لو كان ذلك لنقل كما نقل سائر الاذكار و إذا لم يكن كذلك كان من محدثات الامور و لأن النية مشروعة في جميع الواجبات و المستحبات بل يستحب ان تكون جميع حركات العبد و سكناته بنية صالحة فلو كان اللفظ بها مستحباً لاستحب لمن يشيع جنازة ان يقول اتبعها ايماناً و احتساباً و لمن جاهد في سبيل الله ان يقول نويت جهادي ان تكون كلمة الله هي العليا و إذا انفق نفقة ان يقول ابتغي بهذه النفقة وجه الله إلى سائر الاعمال و معلوم يقينا ان النبي صلى الله عليه و سلم و السابقين و التابعين لم يكونوا يتكلمون بهذه النيات مع وجودها في قلوبهم و لأن حصول النية في القلب امر ضروري للفعل حتى لو اراد ان يفعله بلا نية لم يمكن و إذا حضرت النية فلو عبر عنها بما يدل على خلافها لم يؤثر ذلك لأنها مما يعرض للقلب بمنزلة الفرح و الحزن و الحب و البغض و الرضى و السخط و الشهوة و النفرة و معلوم ان قصد تحقيق هذه الاشياء بالتعبير عنها قبيح و لأن ذلك تكثير لكلام لا اصل له و فتح لباب اللغو من القول فكان حسمه اولى و القول في الطهارة و الصيام مثل هذا فان قيل قد استحببتم ان يتكلم بما ينوي في الحج و قد نص احمد على ذلك و روي

^١ منهاج السنة النبوية ج: ٨ ص: ٢٣٠

^٢ مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٦٢١

عن جماعة من السلف قلنا الفرق بينهما من ثلاثة اوجه احدهما ان التكلم في الحج ماثور عن النبي صلى الله عليه وسلم و ماثور عن الصحابة و التابعين قبل التلبية و في اثناء التلبية الثاني ان الحج ليس في اوله ذكر واجب عند اصحابنا و لا له حد من الافعال الظاهرة يدخل به فيه فاستحب ان يتكلم بالنية ليبين اول الاحرام الثالث ان اكثر الناس لا يعلمون ما يقصدون بالاحرام حتى يتكلموا به بخلاف الصلاة و الصوم فان المقصود معلوم لهم و النية تتبع العلم و بكل حال فلا يستحب الجهر بشيء من اللفظ بالنية بل يكره الجهر به في الامام و المأموم كدعاء الاستفتاح و تسييح الركوع و السجود و اولى

ان الله سبحانه هو المان بالعمل

ان النفوس الجاهلية تتخيل ان الإنسان بعبادته و علمه يصير له على الله حق من جنس ما يصير للمخلوق على المخلوق كالذين يخدمون ملوكهم و ملاكهم فيجلبون لهم منفعة و يدفعون عنهم مضرة و يبقى أحدهم يتقاضى العوض و المجازاة على ذلك و يقول له عند جفاء أو إعراض يراه منه ألم أفعل كذا يمن عليه بما يفعله معه و إن لم يقله بلسانه كان ذلك في نفسه و تخيل مثل هذا في حق الله تعالى من جهل الإنسان و ظلمه ولهذا بين سبحانه أن عمل الإنسان يعود نفعه عليه و أن الله غنى عن الخلق كما قال تعالى { وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتِطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَذَا كُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } الحجرات ١٧ و في الحديث الصحيح الإلهي يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضرى فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفَعوني يا عبادي إنكم تخطئون بالليل و النهار و أنا أغفر الذنوب جميعا و لا أبالي فاستغفروني أغفر لكم يا عبادي لو أن أولكم و آخركم و إنسكم و جنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا يا عبادي لو أن أولكم و آخركم و إنسكم و جنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا يا عبادي لو أن أولكم و آخركم و إنسكم و جنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان منهم مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر^٢

أفعال العباد مخلوقة لله

ان أفعال العباد حادثة كائنة بعد ان لم تكن فحكمها حكم سائر الحوادث و هي ممكنة من الممكنات فحكمها حكم سائر الممكنات فما من دليل يستدل به على أن بعض الحوادث و الممكنات مخلوقة لله إلا و هو يدل على أن أفعال العباد مخلوقة لله فإنه قد علم أن المحدث لا بد له من محدث و هذه المقدمة ضرورية عند جماهير العقلاء و كذلك الممكن لا بد له من مرجح تام فإذا كان فعل العبد حادثا بعد أن لم يكن فلا بد له من محدث و إذا قيل المحدث هو العبد فيكون العبد صار محدثا له بعد أن لم يكن هو أيضا أمر حادث فلا بد له من محدث إذ لو كان العبد لم يزل محدثا له لزم دوام ذلك الفعل الحادث و إذا كان إحداثه له حادثا فلا بد له من محدث و إذا قيل المحدث إرادة العبد قيل إرادته أيضا حادثة فلا بد لها من محدث و إن قيل حدثت بإرادة من العبد قيل تلك الإرادة أيضا لا بد لها من محدث فأى محدث فرضته في العبد إن كان حادثا فالقول فيه كالقول في الحادث الأول و إن جعلته قديما أزليا كان هذا ممتنعا لأن ما يقوم بالعبد لا يكون قديما أزليا و إن قلت هو وصف للعبد و هي قدرته المخلوقة فيه مثلا لم ينفك هذا لوجوه أحدها أن يقال فإذا كانت هذه القدرة المخلوقة فيه موجودة قبل حدوث الفعل و حين حدوثه فلا بد من سبب آخر حادث ينضم إليها و إلا لزم ترجيح أحد المتئين على الآخر بلا مرجح و حدوث الحوادث بلا سبب

^١ شرح العمدة ج: ٤ ص: ٥٩١-٥٩٣

^٢ مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٢١٥

حادث وإلا فإذا كان حال العبد قبل أن يفعل وحاله حين الفعل سواء لا مزية لأحد الحالين على الآخر وكان تخصيص هذه الحال بكونه فاعلا فيها دون الأخرى ترجيحا لأحد المتماثلين بدون مرجح وهكذا إذا قيل فعله يمكن أن يكون وأن لا يكون والممكن لا يترجح وجوده على عدمه إلا بمرجح تام والمرجح إذا كان من العبد فالقول فيه كالقول في الفعل فلا بد أن يكون المرجح التام من الله تعالى وأن يستلزم وجوده وجود الفعل وإلا لم يكن تاما ولأجل هذا اتفق أهل السنة المثبتون للقدر على أن الله خص المؤمنين بنعمة دون الكافرين بأن هداهم للإيمان ولو كانت نعمته على المؤمنين مثل نعمته على الكافرين لم يكن المؤمن مؤمنا كما قال تعالى { **وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ** } الحجرات ٧ وقال تعالى { **يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِلَّا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } الحجرات ١٧ وقال تعالى { **فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَفَوْا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** } البقرة ٢١٣ وقال تعالى { **أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ** } المجادلة ٢٢ وقال تعالى { **فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ** } الأنعام ١٢٥

الإيمان نعمة خص الله بها المؤمنين

مادل عليه الكتاب و السنة و كان عليه السابقون الأولون من المهاجرين و الأنصار و الذين إتبعوهم بإحسان و هو أن الله خالق كل شيء و ربه و مليكه و قد دخل في ذلك جميع الأعيان القائمة بأنفسها و صفاتها القائمة بها من أفعال العباد و غير أفعال العباد و أنه سبحانه ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن فلا يكون في الوجود شيء إلا بمشيئته و قدرته لا يمتنع عليه شيء شاءه بل هو قادر على كل شيء و لا يشاء شيئا إلا و هو قادر عليه و أنه سبحانه يعلم ما كان و ما يكون و ما لم يكن لو كان كيف يكون و قد دخل في ذلك أفعال العباد و غيرها و قد قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم قدر آجالهم و أرزاقهم و أعمالهم و كتب ذلك و كتب ما يصيرون إليه من سعادة و شقاوة فهم يؤمنون بخلقه لكل شيء و قدرته على كل شيء و مشيئته لكل ما كان و علمه بالأشياء قبل أن تكون و تقديره لها و كتابته إياها قبل أن تكون و غلاة القدرية يفكرون علمه المتقدم و كتابته السابقة و يزعمون أنه أمر و نهى و هو لا يعلم من يطيعه ممن يعصيه بل الأمر أنف أي مستأنف وهذا القول أول ما حدث في الإسلام بعد إنقراض عصر الخلفاء الراشدين و بعد إمارة معاوية بن أبي سفيان في زمن الفتنة التي كانت بين ابن الزبير و بين بنى أمية في أواخر عصر عبد الله بن عمر و عبد الله بن عباس و غيرهما من الصحابة و كان أول من ظهر عنه ذلك بالبصرة معبد الجهني فلما بلغ الصحابة قول هؤلاء تبرعوا منهم و أنكروا مقالتهم كما قال عبد الله بن عمر لما أخبر عنهم إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم و أنهم برءاء مني و كذلك كلام ابن عباس و جابر بن عبد الله و واثلة بن الأسقع و غيرهم من الصحابة و التابعين لهم بإحسان و سائر أئمة المسلمين فيهم كثير حتى قال فيهم الأئمة كمالك و الشافعي و أحمد بن حنبل و غيرهم أن المنكرين لعلم الله المتقدم يكفرون ثم كثر خوض الناس في القدر فصار جمهورهم يقر بالعلم المتقدم و الكتاب السابق لكن ينكرون عموم مشيئة الله و عموم خلقه و قدرته يظنون أنه لا معنى لمشيئته إلا أمره فما شاءه فقد أمر به و ما لم يشأه لم يأمر به فلزمهم أن يقولوا أنه قد يشاء ما لا يكون و يكون ما لا يشاء و أنكروا أن يكون الله تعالى خالقا لأفعال العباد أو قادرا عليها أو أن يخص بعض عبادة من النعم بما يقتضي إيمانهم به و طاعتهم له و زعموا أن نعمته التي يمكن بها الإيمان و العمل الصالح على الكفار كأبي لهب و أبي جهل مثل نعمته بذلك على أبي بكر و عمر و عثمان و علي بمنزلة رجل دفع لأولاده مالا فقسمه بينهم بالسوية لكن هؤلاء أحدثوا أعمالهم الصالحة و هؤلاء أحدثوا أعمالهم الفاسدة من غير نعمة خص الله بها المؤمنين و هذا قول باطل و قد قال تعالى { **يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِلَّا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ** } للإيمان إن كنتم صادقين } الحجرات ١٧ و قال تعالى { **وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ**

عَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ {الحجرات ٧} وقد أمرنا الله أن نقول في صلاتنا {اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} {٦} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غير المغضوب عليهم وَلَا الضَّالِّينَ} {٧} الفاتحة ٦-٧ وقال أهل الجنة { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ } {الأعراف ٤٣} وقال الخليل صلوات الله وسلامه عليه { رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ دُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ } {البقرة ١٢٨} وقال { رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ دُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ } {إبراهيم ٤٠} وقال تعالى { وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا } {السجدة ٢٤} وقال { وَجَعَلْنَا هُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ } {القصص ٤١} ونصوص الكتاب والسنة وسلف الأمة المبينة لهذه الأصول كثيرة مع ما في ذلك من الدلائل العقلية الكثيرة على ذلك وسلف الأمة وأئمتها متفقون أيضا على أن العباد مأمورون بما أمرهم الله به منهيون عما نهاهم الله عنه و متفقون على الإيمان بوعده و وعيده الذي نطق به الكتاب والسنة و متفقون أنه لا حجة لأحد على الله في واجب تركه و لا محرم فعله بل لله الحجة البالغة على عباده و من إحتج بالقدر على ترك مأمور أو فعل محظور أو دفع ما جاءت به النصوص في الوعد و الوعيد فهو أعظم ضلالا و إفتراء على الله و مخالفة لدين الله من أولئك القدريّة فإن أولئك مشبهون بالمجوس و قد جاءت الآثار فيهم أنهم مجوس هذه الأمة كما روى ذلك عن ابن عمر و غيره من السلف و قد رويت في ذلك أحاديث مرفوعة الى النبي صلى الله عليه و سلم منها ما رواه أبو داود و الترمذي و لكن طائفة من أئمة الحديث طعنوا في صحة الأحاديث المرفوعة في ذلك و هذا مبسوط في موضعه و المقصود هنا أن القدريّة النافية يشبهون المجوس في كونهم أثبتوا غير الله يحدث أشياء من الشر بدون مشيئته و قدرته و خلقه و أما المحتجون على القدر بإسقاط الأمر و النهي و الوعد و الوعيد فهو لاء يشبهون المشركين الذين قال الله فيهم { سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى دَافُوا بِأَسْنَانِهِمْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ } {الأنعام ١٤٨} وقال تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } {النحل ٣٥} وما قالته القدريّة فهو بناء على أصلهم الفاسد وهو أن إقدار الله المؤمن والكافر والبر والفاجر سواء فلا يقولون إن الله خص المؤمن المطيع بإعانة حصل بها الإيمان بل يقولون إن إعانتة للمطيع والعاصي سواء ولكن هذا بنفسه رجح الطاعة وهذا بنفسه رجح المعصية كالوالد الذي أعطى كل واحد من ابنه سيفا فهذا جاهد به في سبيل الله وهذا قطع به الطريق أو أعطاهما مالا فهذا أنفقه في سبيل الله وهذا أنفقه في سبيل الشيطان وهذا القول فاسد باتفاق أهل السنة والجماعة المثبتين للقدر فإنهم متفقون على أن الله على عبده المطيع المؤمن نعمة دينية خصه بها دون الكافر وأنه أعانته على الطاعة إعانة لم يعن بها الكافر كما قال تعالى { **وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ** } {الحجرات ٧} فبين أنه حبيب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم فالقدريّة تقول هذا التحبيب والتزيين عام في كل الخلق أو هو بمعنى البيان وإظهار دلائل الحق والآية تقتضي أن هذا خاص بالمؤمنين ولهذا قال { **أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ** } {الحجرات ٧} والكفار ليسوا راشدين وقال تعالى { فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعْدُ فِي السَّمَاءِ } {الأنعام ١٢٥} وقال { أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } {الأنعام ١٢٢} وقال تعالى { وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ } {الأنعام ٥٣} وقال تعالى { **يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } {الحجرات ١٧} ^١

من اعتقد أن منته على المؤمنين بالهداية دون الكافرين ظلم منه فهذا جهل

^١ منهاج السنة النبوية ج: ٣ ص: ٤٤

وأما من اعتقد أن منته على المؤمنين بالهداية دون الكافرين ظلم منه فهذا جهل لوجهين أحدهما أن هذا تفضل منه كما قال تعالى { **بَلِ اللَّهِ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } الحجرات ١٧ وكما قالت الأنبياء { **قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ** } إبراهيم ١١ وقال تعالى { **وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيُفْلِحُوا أَوْ يُكَلِّمُوا أَوْ يُؤَلِّمُوا مَنْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَنْ بَيْنَنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ** } الأنعام ٥٣ فتخصيص هذا بالإيمان كتخصيص هذا بمزيد علم وقوة وصحة وجمال ومال قال تعالى { **أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا** } الزخرف ٣٢ وإذا خص أحد الشخصين بقوة وطبيعة تقضي غذاء صالحا خصه بما يناسب ذلك من الصحة والعافية وإذا لم يعط الآخر ذلك نقص عنه وحصل له ضعف ومرض والظلم وضع الشيء في غير موضعه فهو لا يضع العقوبة إلا في المحل الذي يستحقها لا يضعها على محسن أبدا وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يمين الله ملأى لا يغيثها نفقة سخاء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغيث ما في يمينه والقسط بيده الأخرى يقبض ويبسط فبين أنه سبحانه يحسن ويعدل ولا يخرج فعله عن العدل والإحسان ولهذا قيل كل نعمة منه فضل وكل نعمة منه عدل ولهذا يخبر أنه تعالى يعاقب الناس بذنوبهم وأن إنعامه عليهم إحسان منه كما في الحديث الصحيح الإلهي يقول الله تعالى يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه وقد قال تعالى { **مَا أَصَابَكُمْ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكُمْ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا** } النساء ٧٩ أي ما أصابك من نعم تحبها كالنصر والرزق فالله أنعم بذلك عليك وما أصابك من نقم تكرها فبذنوبك وخطاياك فالحسنات والسيئات هنا أراد بها النعم والمصائب^١

لطائف لغوية

١- قال تعالى { **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** } الحجرات ١٥ اسم الإيمان فإنه تارة يذكر مفردا مجردا لا يقرن بالعمل الواجب فيدخل فيه العمل الواجب تضمنا ولزوما وتارة يقرن بالعمل فيكون العمل حينئذ مذكورا بالمطابقة والنص ولفظ الإيمان يكون مسلوب الدلالة عليه حال الاقتران أو دالا عليه وأمثال ذلك من الكتاب والسنة ومن استقرأ ذلك علم أن الاسم الشرعي كالإيمان والصلاة والوضوء والصيام لا ينفيه الشارع عن شيء إلا لانتفاء ما هو واجب فيه لا لانتفاء ما هو مستحب فيه^٢

٢- قال تعالى { **قُلْ أَتَعَلَّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** } الحجرات ١٦ عليم منزله عن الجهل^٣

٣- قال تعالى { **قُلْ أَتَعَلَّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** } الحجرات ١٦ المضاف إلى الله سبحانه في الكتاب والسنة كانت إضافة اسم إلى اسم أو نسبة فعل إلى اسم أو خبر باسم عن اسم واما الخبر الذي هو جملة اسمية فمثل قوله { **وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** } البقرة ٢٨٢ { **وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } البقرة ٢٨٤ وذلك لان الكلام الذي توصف به الذوات اما جملة او مفرد فالجملة اما اسمية كقوله { **وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** } البقرة ٢٨٢ او فعلية كقوله { **عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ** } المزمّل ٢٠ اما المفرد فلا بد فيه من

^١ منهاج السنة النبوية ج: ١ ص: ١٣٨-١٣٩

^٢ العقيدة الأصفهانية ج: ١ ص: ١٧٦-١٧٧

^٣ الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧

اضافة الصفة لفظا او معنى كقوله { بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ } البقرة ٢٥٥ وقوله { هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً } فصلت ١٥ او
اضافة الموصوف كقوله { ذُو الْقُوَّةِ } الذاريات ٥٨^١
٤- قال تعالى { إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } الحجرات ١٨ عليم منزه عن
الجهل بصير منزه عن العمى^٢

^١مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ١٤٤

^٢الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧

{ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ
عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ
وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي

مِنَ الْمُسْلِمِينَ }

{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ }

{ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

####